

مَسَلَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ

صَرِيحُ الْغَوَانِي

فؤاد جنتارزي

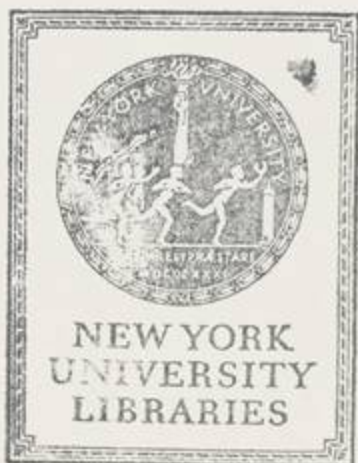
أحد أساتذة الدائرة العربية في جامعة بيروت الأميركية

طبع في دار الكتاب - بيروت سنة ١٩٦١

BOBST LIBRARY



3 1142 02842 5406



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

THE

LIBRARY

OF THE
MUSEUM OF
COMPARATIVE ZOOLOGY
AT HARVARD UNIVERSITY
CAMBRIDGE, MASS.

1880

1881

1882

1883

1884

1885

1886

1887

1888

1889

1890

1891

1892



٧
جَامِعَةُ بَيْرُوتِ الْأَمِيرِيَّةِ

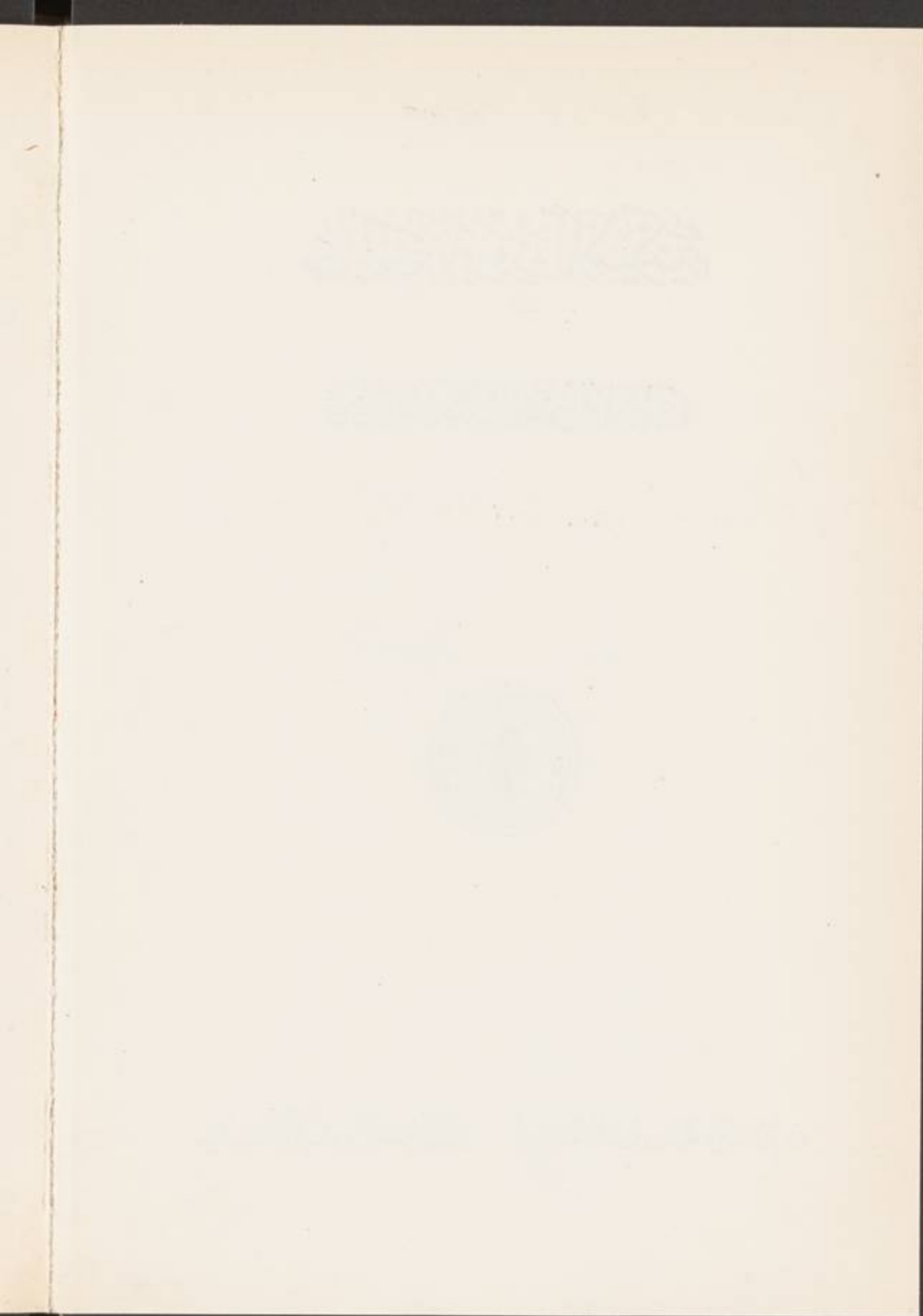
مِنْشُورَاتُ كَلِيَّةِ الْعُلُومِ وَالْأَدَابِ

front



5

سِنِّيَّةُ الْعُلُومِ الشَّرْقِيَّةِ الْحَلَقَةُ السَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ



Tarazī, Fu'ād Hannā

مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ

صَرِيحُ الْغَوَايِ

/Muslim ibn al-Walīd/

فُؤَادُ جَنَّا تَرْزِي

أَحَدُ أَسَانِدَةِ الدَّائِرَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي جَامِعَةِ بَيْرُوتِ الْأُمِّيَّةِ

طُبِعَ فِي دَارِ الْكِتَابِ - بَيْرُوتَ سَنَةِ ١٩٦١

Near East

PJ

25

A6

no. 36

c.1

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
تصدير	٧
توطئة في مصادر دراسة مسلم ومراجعها	١١
القسم الاول - بيئته في الكوفة وبغداد :	١٧
الكوفة :	١٩
المجتمع الكوفي	٢٠
عناصره وحاجاته	٢٠
مظاهر الحياة فيه	٢٣
الحياة العقلية	٢٣
حياة المجون واللهو	٢٧
بغداد :	٢٩
نشأتها ونموها	٢٩
بغداد مركز سياسة الدولة	٢٩
حياتها الاجتماعية	٣١
حياتها العقلية	٣٣
حياتها العلمية	٣٥
حياتها الادبية	٣٦
القسم الثاني - سيرته :	٤١
نسبه	٤٤
اسرته	٥٩
مولده	٦١
نشأته وثقافته	٦٣

٦٦	سمته وشخصيته
٧٧	زواجه وإعقابه
٧٩	لقبه
٨١	صلته بخلفاء عصره وأعلامه :
٨٢	مسلم والخلفاء
٨٨	« والبرامكة
٩٢	« ويزيد بن يزيد
١٠٠	« والفضل بن سهل
١٠٥	صلته بشعراء عصره :
١١٠	مسلم وأبو نؤاس
١١٤	« وأبو العتاهية
١١٧	« والعباس بن الاحنف
١١٧	« ودعبل الخزاعي
١٢١	سنواته الاخيرة
١٢٣	القسم الثالث - شعره :
١٢٥	ضياح الكثير من شعره
١٢٧	لمحة في حركة الشعر في عهده
١٣٢	موقفه من هذه الحركة
١٣٢	مدرسة البديع
١٣٧	خصائصه الشعرية
١٦٨	شخصيته الشعرية
١٧٠	الابواب الشعرية التي طرقها :
١٧٠	أ - المديح
١٧٩	ب - الغزل
١٨٧	ج - وصف الخمر
١٩٩	خاتمة
٢٠١	كشاف المصادر والمراجع

تصدير

هذه محاولة لدراسة شاعر على نهج علمي. ولئن كان في اخضاع الأدب للعلم ما يفقده رواءه ، فإن فيه ايضاً ما يستبطن معناه الحقيقي ويكشف عن منابع الجمال فيه .

والشاعر الذي نحن بصددده هو مسلم بن الوليد الانصاري احد شعراء العراق في النصف الاخير من القرن الثاني للهجرة ، وواحد من شعرائنا القدامى الذين حاولوا ان يواثقوا بين الشعر والحياة ويجعلوا من نتاجهم صدى لمشاعرهم وصورة لعصرهم .

ولما كان القرن الثاني قد حمل للعرب عامة حياة جديدة فيها من وسائل الحضارة المادية والفكرية ما لم يكن لهم به عهد من قبل ، فقد حمل لأدبائهم خاصة تحدياً قوياً للاساليب التعبيرية المألوفة لديهم لذلك العهد . ولعل من حسن حظ مسلم ان يكون من اولئك الذين استجابوا لذلك التحدي وحاولوا - الى حد - ابتكار صور تعبيرية جديدة لبعض مظاهر هذه الحياة . ولئن كانت شاعرنا لم يستطع - بحكم ظروفه الخاصة - ان يعبث كثيراً بكلاسيكية الشعر المعروفة لعهد ، فإنه استطاع على الاقل ان يززع «عموده» وان يضع حجراً في صرح كلاسيكية جديدة اقل تزمناً واخف ركانة .

هذا ، وقد استهلكت هذه الدراسة بتوطئة عن مصادرها ومراجعتها ، وقسمت تلك الى ثلاثة اقسام : الديوان ، والمراجع القديمة ، والمراجع الحديثة . وتحدثت عن الديوان فذكرت عيوبه كمصدر ، وعن المراجع القديمة فذكرت اهمها ، واهم ما اورده كل منها عن مسلم ، واصالة ما اورده ، ومدى وثوقنا بصاحبه . وضربت صفعاً عن الحديثة لاعتمادها على القديمة بصورة رئيسية ، ولانه سيشار اليها خلال البحث وفي كشاف المراجع .

ويلي التوطئة **القسم الاول** ، وهو يبحث في بيئة مسلم في الكوفة وبغداد ،
المدينتين اللتين قضى فيها الشطر الاعظم من حياته ، واللتين كان لهما اكبر الاثر
في تكوين شخصيته ، وتقويم شعره وتوجيهه . وقد تحدثت في هذا القسم عن
كل من المدينتين ، فوصفت مجتمعيهما وما سادهما من تفاعلات اجتماعية وتيارات
فكرية ، وتحدثت عن الحياة العقلية في كل منهما كما تجلت في العلوم الدينية
واللسانية ، والفنون الادبية ، والحياة اللاهية ، السائدة زمن مسلم . وبذلك
مهدت السبيل لدراسة ثقافة الرجل وحياته العابثة . وكان لا بد لي من ان اعرض
لهذا الصراع العنيف الذي اخذ يظهر بين القديم والجديد ، في الحياة والادب ،
نتيجة لاختلاط العرب بالاعاجم ، وان ابين اثر ذلك في ظهور حركة للنقد ،
عمادها المحافظون ، كان لها اثر كبير في توجيه الشعر في وقت كان يتلمس فيه
مسلم طريقه نحو المجد الشعري .

ويلي ذلك **القسم الثاني** ، وهو يبحث في سيرته . وهنا يبرز جانب هام من
مهمة الكتاب في محاولة استخلاص حقائق هذه السيرة من روايات مضطربة
وشعر ناقص . وقد بت في سبيل ذلك استظهر بالملابسات لاستجلاء غوامض
الروايات ومتناقضاتها ، واستعين بما قد بقي من اصداء حياته في شعره اولاً ، وفي
اشعار معاصريه وسيرهم ثانياً ، فاستطعت ان استنبط عن طريق ذلك بعض
الحقائق - على سبيل الترجيح على الاقل - وان اسد بعض ما تراءى لي من
ثغرات في سيرة حياته . واذا صح ما توصلت اليه في هذا الصدد اكون قد
ساعدت على وضع معالم لبعض مراحل هذه الحياة ، واسهمت في ازالة الاختلاط
الذي يلزم سيرته حتى في الدراسات الحديثة ، وفي وضع اساس لدراسة جديدة
يمكن تقصيصها لظهار الصلة بين هذه المراحل المفترضة وتطور شعر مسلم ، فلعل
عن طريق مثل هذه الدراسة يمكن اثبات هذه المراحل بشكل قاطع ، او
يمكن تعديلها بعض التعديل .

ويلي ذلك **القسم الثالث** الذي يبحث في شعره . ولقد تناولت فيه ، في ما
تناولت ، ابراز هذا الشعر كحصيلة للصراع بين القديم والجديد في مظاهر الحياة
المختلفة في العصر العباسي . وحاولت اظهار خصائصه ، ورسم معالم شخصية
صاحبه الشعرية . ثم تطرقت الى بحث الابواب التي طرقها الشاعر ، وحاولت ،
في كل باب ، ان اميز مواطن التقليد من مواطن الجدة ما امكن ، وان اعقد

مقارنة بين شاعرنا وبين غيره من الشعراء حيثما اقتضت طبيعة البحث ذلك .
وتلي كل هذا خاتمة ابنت فيها اثر مسلم في تجريب الشعراء على استخدام
البديع ، واثر مدرسته في تنشيط حركتي التأليف والنقد في القرنين الثالث
والرابع ، بصورة خاصة .

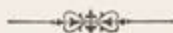
...

ولا يسعني ، أخيراً ، الا ان اشكر جميع اخواني الذين اعانوني في هذه المهمة ،
ولا سيما الدكتور محمد يوسف نجم الذي صرف قسطاً من وقته في قراءة الأصل
وابداء الملاحظات المجدية عنه ، والدكتور قسطنطين زريق الذي تكرم فزودني
ببعض ملاحظاته القيمة ، والسيد ف. ل. كينت (F. L. Kent) الذي اعانني
في ترجمة بعض النصوص اللاتينية . وكذلك لجنة النشر في الجامعة ، التي عملت
على نشر هذا الاثر المتواضع ووضعه في متناول القارئ الكريم .

فؤاد حنا تزوي

الجامعة الاميركية - بيروت

١٥ تشرين الاول ١٩٦٢



1871

1872

1873

1874

1875

نوطة في مصادر دراسة مسلم ومراجعها :

يمكن تقسيم المصادر والمراجع التي نستقي منها اخبار مسلم وشعره الى ثلاثة اقسام : الاول ديوانه ، والثاني كتب الادب والتاريخ القديمة التي ترجمت له او روت بعض اخباره وشعره ، والثالث الكتابات الحديثة التي تناولته بالدرس .

اما القسم الاول ، وهو الديوان ^(١) ، فقد وصل اليها ناقصاً ، وما وصل اليها منه ليس مرتباً ترتيباً زمنياً بحيث يعيننا على فهم تطور عقلية صاحبه وشاعريته ، ولا هو غني بالدلالات التاريخية فيساعدنا على تقصي مراحل حياته . ومع ذلك ، فهذا الذي وصل لا يزال جليل الفائدة لفهم ميول صاحبه العامة ، واستجلاء بعض جوانب شخصيته ، والكشف عن بعض الشخصيات التي كان لها اثر في حياته ، وابانة بعض حوادث العصر التي كان له بها صلة مباشرة او غير مباشرة . أضف الى كل ذلك انه الاثر الفني الذي ندرس صاحبه لاجله .

واما القسم الثاني فيقسم ايضاً الى قسمين : الاول ، الكتب التي أُفرد له في كل منها ترجمة خاصة ، والثاني ، الكتب التي وردت فيها نتف من اخباره او ابيات من شعره في معرض الحديث عن شاعر آخر او خليفة او امير ، او عند الاستشهاد على باب من ابواب الشعر او موضوع من موضوعات البلاغة والنحو . واهم الكتب التي من النوع الاول :

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (المتوفى ٢٧٦ هـ) ، وفي الجزء الثاني منه

(١) لديوان مسلم طبعات رأينا منها :

١. طبعة المستشرق دي خويه (سنة ١٨٧٥ م) ، وقد اعتمد فيها ناشرها على المخطوطة الوحيدة الموجودة في لندن . وهي طبعة قيمة رغم ما فيها من بعض اخطاء نحوية . وتحوي هذه الطبعة ، بالاضافة الى الديوان ، تعليقات وقهارس للكلمات الغريبة باللاتينية ، ومقدمة عن حياة الكاتب باللاتينية ايضاً ، وباباً في اخبار مسلم واشعاره جمعه الناشر من كتب الادب المختلفة .

٢. طبعة السيد ميرزا علي محمد الحسيني - بمبي ، الهند ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥ م) . وهي طبعة حجرية اعتمد فيها صاحبها على طبعة دي خويه ، على ما يبدو ، بعد ان صحح بعض الاخطاء النحوية البارزة ، وبعد ان حذف المقدمة والحواشي والتعليقات والفهرست لانها باللاتينية .

٣. طبعة الدكتور سامي الدهان - دار المعارف ، مصر (١٩٥٧) ، وهي اجود الطبعات واكثرها دقة وتحققاً ، اعتمد فيها صاحبها على مصور للمخطوطة الاصلية - كما يذكر - وقدم لها بدراسة لحياة مسلم ، وذيّلها بما عثر عليه في الكتب الادبية المختلفة من اخباره واشعاره مضيئاً بذلك شيئاً الى ما جاء في دي خويه ، واغناها بالفهارس والتعليقات .

ترجمة مختصرة لمسلم تقع في حوالي صفحة ذكر فيها المؤلف اسمه ولقبه ونسبه في الانصار ، ثم أطرى على مدحه وذكر ان جله كان في يزيد بن مزيد وداود بن يزيد المهلي والبرامكة وكتبهم محمد بن منصور بن زياد. وبعد ذلك اورد انه ولي في خلافة المأمون بريد جرجان وانه لم يزل بها حتى مات. ومن ثم ذكر انه أعقب وانه لقب صريع الغواني لبنت شعر قاله .

وعدا هذه الترجمة فقد ذكر مسلم مرتين في الجزء نفسه : الاولى في ترجمة ابي نواس حيث ذكر المؤلف ملاحاة وقعت بينهما على اثر نقد كل منهما لشعر صاحبه ، والاخرى خلال ترجمة دعبيل اذ اورد خبر «اجتماعه مع ابي نواس ومسلم وابي الشيص» وأردف انه ذكر ذلك في كتابه «الاشربة» .

وعلى الرغم من اختصار الترجمة التي اوردها هذا الكتاب وقلة الاخبار التي ذكرها عن مسلم ، فان له اهمية خاصة تعود الى ان مؤلفه «كان فاضلاً ثقة» — على حد قول ابن خلكان^(١) — وانه توفي بعد وفاة مسلم بثمان وستين سنة فقط ، وانه اتصل بأناس عرفوا مسلماً معرفة شخصية وثيقة كدعبيل^(٢) مثلاً .

٢) طبقات الشعراء لابن المعتز (المتوفى ٢٩٦ هـ)

ويفرد باباً لخبار مسلم في نحو ست صفحات يترجم له في الاولى منها ويذكر في الباقية نماذج مختارة من شعره . كما يذكر في اخبار بعض الشعراء الآخرين المعاصرين له، كبشار وابي الشيص والعباس بن الاحنف، روايات تتصل اكثرها باشتراكه ومعظمهم في مجالس الشراب ووفوده مع بعضهم على بعض الخلفاء . ويسرد في اخبار ابي تمام رواية تنبئ بشغف هذا بشعر مسلم وابي نواس .

والظاهر ان ابن المعتز اعتمد في قسم من ترجمته التي اوردها لمسلم على ابن قتيبة ، او انه وابن قتيبة اعتمدا مرجعاً واحداً في هذا القسم المشترك بينهما . فهو يذكر في الترجمة ان مسلماً كان «مداحاً محسناً مجيداً مفلحاً»^(٣) وان جل مديحه كان في يزيد بن مزيد وفي البرامكة والخلفاء . ثم يذكر مدحه للرشد وتلقيه اياه بصريع الغواني ، كما يذكر انه اول من وسع البديع بعد بشار .

(١) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٢) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٨٢٧ .

(٣) طبقات الشعراء ص ٢٣٥ .

ومن بعض تعليقات ابن المعتز على مختاراته من شعر مسلم يبدو حبه له ، ففي احدها يقول : « وهذا معنى لا يتفق للشاعر مثله في الف سنة »^(١) ، وفي آخر يقول : « وما السحر معناه رقة وحسناً : ... »^(٢) . وليس هذا الحب غريباً فابن المعتز يعشق البديع ، ومسلم من شعرائه ، ويهوى الشعر المحدث^(٣) ، ومسلم من فحولته .

(٣) كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني (المتوفي ٣٥٦ هـ) :

وهو اجمع المراجع التي وصلت اليها لاجبار مسلم . وقد افرد لهذه الاخبار فصلاً يقرب من ثلاثين صفحة ضمنه روايات مختلفة عن نسب مسلم ولقبه وسيرته وميوله واهوائه ووفاته وشعره ومناقضاته . وقد اورد هذا الفصل دي خويه في ذيل ما نشره من ديوان مسلم سنة ١٨٧٥ م نقلاً عن مخطوطات وجدها في ميونيخ (رقم ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٤٨١) وغوطا (رقم ٥٣٢) ، كما اوردته الدكتور سامي الدهان في ذيل « شرح ديوان صريع الغواني » الذي نشرته له دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧ ، نقلاً عن مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٣١٨ أدب . وهذا الفصل هو من « السفر الخامس » من الاغاني ، على ما جاء في طبعة دي خويه ، ومن الجزء السابع عشر منها ، على ما جاء في مخطوطة دار الكتب المصرية ، كما يذكر الدهان .

ويضاف الى هذا الفصل اخبار متفرقة عن مسلم تتراوح في مجموعها بين سبع صفحات وتسع ، ورد بعضها ضمن تراجم غيره من الشعراء ، كأبي العتاهية وعلي ابن الحليل وابي الشيص وابن ابي عينة ودعبل وابي نواس . كما ورد بعضها الآخر منشوراً هنا وهناك في اخبار ولد ابي محمد اليزيدي ، واسماعيل القراطيسي ، والوليد بن طريف .

واخبار الاغاني عن مسلم سلسلة من الروايات التي تفتقر الى التنظيم والدقة العلمية ، شأن جل روايات الاغاني . وعلى ذلك كانت من الصعب احياناً ، ومن المستحيل احياناً اخرى ، ربط بعض احداثها بزمان خاص او بوقت معين لنستعين

(١) طبقات الشعراء ص ٢٣٦ .

(٢) نفسه ص ٢٣٦ .

(٣) نفسه ص ٨٧ .

بذلك على تحديد مكانها من سلسلة حياة صاحبها وتبين الدوافع التي قد تكون أدت اليها والنتائج التي قد تكون نجمت عنها .

وعلى الرغم من ذلك ، فلعل هذه الروايات كانت المرجع الرئيسي الذي اعتمد عليه معظم من كتب عن مسلم فيما بعد .

وفي الوقت الذي قد نشك فيه ببعض هذه الروايات فإننا في الواقع لا نستطيع دحضها تماماً لافتقارنا الى الأسس التي تمكننا من ذلك . ولا اخالنا نستطيع ان نذهب الى ما ذهب اليه ابن الجوزي من ان مثل الاصبهاني « لا يوثق بروايته »^(١) او الى ما روي من ان ابن تيمية قد ذهب اليه من تضعيفه واتهامه في نقله^(٢) ، كما لا نستطيع ان نسرف في امتداحه كما فعل ياقوت^(٣) وابن خلكان^(٤) . وكل ما نستطيع قوله هو اننا لمسنأ فيه شدة الحذر والاستحاطة عند ايراده هذه الروايات ، فهو ينسبها لاصحابها عادة ، وان بدا له اختلاف في رواية حادثة فانه يذكر ما وصل اليه فيها من روايات دون ان يقتصر على سرد رواية واحدة منها^(٥) .

٤) معجم الشعراء للموزباني (المتوفى ٣٨٤ هـ) :

افرد لمسلم ترجمة مختصرة في بضعة سطور ، ذكر فيها انه « مولى اسعد بن زرارة »^(٦) الحزرجي يكنى ابا الوليد ويلقب بصريع الغواني ، وانه « شاعر مفلق مستخرج للطيف المعاني بحلو الالفاظ » . كما ذكر انه « اول من طلب البديع واكثر منه وتبعه الشعراء فيه » . وذكر كذلك مدحه للرشد ورؤساء دولته واتصاله بذوي الرياستين الفضل بن سهل الذي ولاه بريد جرجان حيث مات .

ويبدو ان ليس في هذه الترجمة من جديد بالنسبة للتراجم التي ذكرناها سابقاً ، ولعل صاحبها استقاها منها او من غيرها من تراجم مشابهة سبقته ولم تصل اليها .

١) راجع تصدير الجزء الاول من كتاب الاغاني - ط . دار الكتب .

٢) نفسه .

٣) معجم الادباء ج ١٣ ص ٩٤ .

٤) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٦٨ .

٥) لاحظ ايراده لروايتين مختلفتين لحادثة واحدة في دي خويه ص ٢٥٣ (نقلنا عن مخطوطة ميونيخ للاغاني) .

٦) هو اسعد بن زرارة بن عدس (راجع اسد الغابة ج ١ ص ٧١ ، واعيان الشيعة ج ١١ ص ١٩٦) .

٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (المتوفى ٤٦٣ هـ) :

ويترجم لمسلم في الجزء الثالث عشر في نحو صفحتين يذكر فيها كنيته ونسبه ولقبه . ثم يذكر انه « كوفي نزل بغداد » وانه مداح مجيد ومفوه بليغ ، مدح الرشيد والبرامكة ، وأسبغ عليه الرشيد في اول يوم لقيه لقب صريع الغواني اثر انشاده اياه لاميته المشهورة التي مطلعها :

أديرا علي الكأس لا تشربا قبلي ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي

ثم يورد عنه بضع روايات ، منها رواية ينقلها عن التنوخي ويذكر فيها ان مسلماً بن الشعراء جميعاً في ثلاثة ابيات هي « امدح بيت ، وارثي بيت ، واهجى بيت » ويذكر الابيات ؛ ومنها رواية يقول فيها انه لما ظهر الشيب بالأمون كان يتمثل ببيت من شعر مسلم ، واخرى يذكر فيها ان ابا الحسن بن حدان سمع أبا تمام وهو يقول بخراسان : « أشعر الناس واسهبهم كلاماً بعد الطبقه الاولى بشار والسيد الحميري ، وابونواس ومسلم بن الوليد بعدهم » .

ويلاحظ ان البغدادي ، في احد اخباره ، يذكر المرزباني في اسناد يبدأ بعلي بن ايوب القمي وينتهي بأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد . ويلاحظ كذلك انه لم يأت بجديد ذي شأن بالنسبة للمراجع التي سبقته ووصلت اليها .

٦) معاهد التنصيص للعباسي (المتوفى ١٦٣ هـ) :

أفرد ترجمة لمسلم في حوالي ست صفحات (٣٦٥-٣٦٥-ط . مصر ١٢٧٤) واورد بعض اخباره واشعاره منتثرة ، في حوالي صفحتين . وقد اعتمد في ذلك اعتماداً شبه كلي على الاغاني ، او لعله استقى وصاحب الاغاني من مصدر واحد غير معروف لدينا . فمعظم الروايات التي اوردها تشبه نظيراتها في كتاب الاغاني لا من حيث المعنى فحسب ، بل ومن حيث اللفظ وسياق الترتيب ايضاً . وقد نجد في بعضها بعض الالفاظ المغيرة ، كما نجد فيها كلها اختزالاً للاسناد .

اما الكتب التي من النوع الثاني ، اي تلك التي وردت فيها نتف من اخباره او ابيات من شعره في معرض الحديث عن شاعر آخر او خليفة او امير ، فكثيرة ، منها ما هو في التاريخ ، ككتاب الوزراء والكتّاب للجيشياري ووفيات الاعيان لابن خلّكان^(١) ، ومنها ما هو في اللغة واصول البلاغة : ككتاب الصناعتين

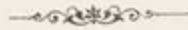
(١) حيث وردت اخبار عن مسلم في سيرة يزيد بن يزيد الشيباني .

للعسكري وسر الفصاحة للخفاجي ومعاهد التنصيص للعباسي ، ومنها ما هو في الادب ، ويشمل كتب الادب العامة : كالبيان والتبيين للجاحظ والعقد الفريد لابن عبد ربه وزهر الآداب للحصري ، وكتب النقد : كوساطة الجرجاني وموازفة الآمدي وموشح المرزباني ، ودواوين بعض الشعراء الآخرين واخبارهم : كديوان ابي نواس واخبار ابي تمام للصولي وسقط الزند للمعري .

ولا اخالي في حاجة لتعداد جميع هذه الكتب فانها ستذكر في المراجع ، غير انني أرى من الواجب ان اشير الى انها لم تضاف شيئاً كثيراً الى ما ورد في الكتب التي ترجمت لمسلم . ويبدو انها اعتمدت تلك الكتب في معظم ما روته من اخبار او اورده من شعر مما يتصل به .

واما القسم الثالث ، وهو الذي يشمل الكتابات الحديثة التي تناولت مسلماً بالدرس ، فسأضرب صفحاً عن البحث في مشتملاتها لانها تعتمد في مادتها الاصلية اعتماداً كلياً على المراجع القديمة ، غير انني سأشير اليها خلال البحث حينما تقتضي الضرورة اللازمة ذلك ، كما سأذكرها في كشاف المراجع .

ولا بد من ان اشير هنا الى ان هذه الدراسات الحديثة التي تشترك والمراجع القديمة في المادة الاصلية وتختلف عنها في منهاج البحث ، عجزت كما عجزت اصولها عن اعطاء صورة واضحة المعالم متكاملة الخطوط عن حياة مسلم . ولذا فلا تزال هناك مظان وفجوات لا مناص منها بالنسبة لما في ايدينا من مصادر ومراجع لدراسة الرجل .



القِسْمُ الْفُؤَادِي
بَيْتٌ فِي الْكُوفَةِ وَبَغْدَادَ



قضى مسلم معظم حياته في الكوفة وبغداد . اما الكوفة فكانت مسقط رأسه ومرتع صباه وشبابه ، ولذا كان من حقنا ان نسهب بعض الاسهاب في التحدث عنها وعن الحياة التي سادت فيها آنذاك لنتبين العوامل التي كانت تتنازع الشاعر في الوقت الذي كانت تبلور فيه شخصيته وتتكون لديه المثل التي اختارها لنفسه او فرضت عليه نفسها في الحياة .

واما بغداد فقد وفد اليها بعد ان اكتملت مقومات شخصيته او كادت . والواقع انه في الوقت الذي كان يعمل فيه على بناء هذه الشخصية كانت بغداد ايضاً تعمل على تكوين شخصيتها الخاصة بعد ان انشأها المنصور عام ١٤٥ هـ . ولما كان انتقاله الى هذه المدينة قد جاء اثر تبلور شخصيته كان اثرها فيها اضعف من اثرها في مجرى حياته العامة .

الكوفة :

كان قد مضى على تأسيس الكوفة^(١) حين ظهور مسلم حوالي قرن وربع كانت خلالها تنمو بسرعة غريبة وتجذب اليها عدداً متزايداً من الناس ، من عرب واعاجم . ولا ريب انه كان لموقعها الاثر الكبير في ذلك ، فهي تسيطر على الجسر الذي يصل الطريق التجاري الكبير الذي كان يربط اعالي آسيا بأقصى اليمن ، اما عن طريق نجد او عن طريق الاحساء ماراً بوادي الدويسر ونجران^(٢) . وهي تقع على حافة الصحراء العربية فتكون بذلك نقطة التقاء بين سكانها وسكان المناطق العامرة التي تقع على تخومها . ثم انها تتصل بشمال العراق وجنوبه عن طريق الفرات ، وتتصل بالغرب عن طريق موقع النجف ؛ وتقرب من الحيرة التي اخذت تتنازل عن اهميتها شيئاً فشيئاً لخليفتها الجديدة . اضافة الى ذلك جودة مناخها وخصوبة ارضها بالنسبة لكثير من الاماكن التي عرفها العرب بعد الفتوح : قال الكلبي^(٣) « قدم الحجاج بن يوسف على عبدالملك بن مروان ومعه اشرف العراقيين فلما دخلوا على عبدالملك تذاكروا امر الكوفة والبصرة ، فقال محمد بن عمير المطاردي : الكوفة سفلت عن الشام ووبأئها وارتفعت عن البصرة وحرها فهي مريئة مريئة ، اذا اتلنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على

١ () كان ذلك في خلافة عمر ، سنة ١٧ أو ١٨ أو ١٩ للهجرة - راجع معجم البلدان ج ٧ ص ٢٩٥

٢ () خطط الكوفة ص ٦

٣ () معجم البلدان ص ٢٩٨

مثل رضراض الكافور ، واذا هبت الجنوب جاءتنا ريح السواد وورده وباسمينه واطرنجة ، ماؤها عذب وعيشنا خصب .

وعلى الرغم من ان عدم الاستقرار الذي انتاب المدينة في فترات ، خلال النزاع بين العلويين والامويين والحوارج والزبيريين ، اعاق نموها بعض الشيء ، فانه لم يكن في الواقع ، ليحول دون هذا النمو ؛ وعرفت المدينة في اواخر حكم بني امية عهداً ناشطاً وحياة علمية وادبية خصبة ظهر اثرها في ما وصل الينا من نتاجها الضخم في كتب الادب المختلفة .

وحين قام العباسيون بدعوتهم عام ١٣٢ هـ احتلوا المدينة وجعلوها عاصمة لهم حوالي سبع عشرة سنة ، رغم ان خلفاءهم لم يكونوا يسكنون فيها في العادة ، بل في الهاشمية ^(١) احياناً وفي الانبار احياناً اخرى . ^(٢) وفي هذه الحقبة كانت المدينة في عصرها الذهبي ، وكانت الكوفة التي استقبلت مسلماً وليداً وصيباً .

وبعد اتخاذ بغداد عاصمة جديدة على يد الخليفة العباسي الثاني ابي جعفر المنصور حوالي سنة ١٤٩ هـ ، اخذت اهمية الكوفة تنحصر تدريجياً وان كانت قد احتفظت الى القرن الخامس بشهرتها العلمية التي حصل عليها سكانها في النصف الاول من القرن الثاني . ^(٣)

المجتمع الكوفي (١) عناصره وحاجاته

اخذت المدينة النامية تجذب اليها انظار الناس منذ تأسيسها ، فأخذوا يتوافدون عليها من شتى البلاد ، طلباً لرزق ، او رغبة في علم ، او نشداناً للذة ، او التماساً لحاجة ، وغدا سكانها نتيجة لذلك يتكونون من عنصرين اساسيين : العرب والاعاجم .

اما العرب فقد كانوا يمثلون الطبقة الارستقراطية الحاكمة ، وكانوا يعيشون في الغالب على الاموال التي تجبى من ابناء البلاد المحتلة ^(٤) وعلى ما كانوا يقطعون

(١) مدينة على الفرات ، شمالي الكوفة ، بناها المنصور في اوائل الدولة العباسية . راجع الفخري ص ١١٥ .

(٢) Encyclopaedia of Islam (kufa)

(٣) نفسه

(٤) Nicholson — A Literary History of the Arabs p. 189

من اراض^(١) وضياح^(٢) في سواد المدينة وبعيداً عنها. وكانوا كعادتهم يستنكفون عن العمل بأنفسهم في الزراعة والمهن الحرة ويتركون ذلك للموالي . والظاهر ان معظمهم كانوا يرتعون في مجبوحة من العيش ساعدت على سيادة حياة المرح وشيوع مجالس اللهو في المدينة ، كما ان معظمهم كانوا من اليانين^(٣) الذين منهم الانصار جماعة مسلم ، والذين امتازوا عن غيرهم بمقدرتهم على التصور والابتكار^(٤) . ويبدو ان جميع هؤلاء لم يقطنوا المدينة في بادئ الامر بل بقيت بعض قبائلهم بادية تحل في ظاهرها^(٥) وقدر لها ان تسهم اسهاماً قيمياً في الدور الذي لعبته المدينة في حقلي اللغة والرواية بصورة خاصة .

واما الاعاجم فكانوا اخلاطاً من الناس نزح معظمهم الى المدينة بعد تمصيرها وتكونت منهم طبقة الموالي التي كانت تشمل اكثر من نصف السكان^(٦) . وكان معظم النازحين من بلاد فارس ومن سكان العراق الاصليين ولا سيما سكان الحيرة^(٧) ، كما كان قسم منهم من سبايا الحروب او ممن احضره النخاسون لبيعه في كِنانة المدينة^(٨) . وعلى الرغم من ان معظم هؤلاء كانوا ينتمون لحضارات عريقة فقد عملوا في المهن التي كان العرب يترفعون عن العمل فيها ، فكان منهم الصيارفة والصياغون والبقالون والحزازون والقصارون والجزارون وغيرهم^(٩) . ويبدو انه كان بينهم في القرن الثاني جماعة من مهرة الصنائع والفنانين ، فقد جاء في الطبري^(١٠) ان المنصور احضر احد ابواب مدينته من الكوفة ، وذكر ماسينيون^(١١)

(١) خطط الكوفة ص ٢٠١٧

(٢) نفسه ص ٢١ ، مروج الذهب ج ٤ ص ٢٠٤

(٣) خطط الكوفة ص ١٥

(٤) نقشة ص ١٣

(٥) زيدان ج ٢ ص ١٨

(٦) (نقلاً عن : Wellhausen p. 79 Nicholson p. 219)

(٧) الموسوي ، نزهة الجليس ص ٦٩

(٨) الحصري ، الهداية ص ٤٥٣ (عن خطط الكوفة ص ٣١) . والكنانة ميدان كانت تبرك فيه الابل وتحط القوافل القادمة للمدينة والراحلة عنها . لذلك كانت ملتقى المسافرين واحد المراكز التي يجتمع فيها الناس ، ثم أصبحت فيما بعد اشبه بمريد البصرة

(٩) خطط الكوفة - ص ٢٦

(١٠) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٢١ (اخبار سنة ١٤٩)

(١١) خطط الكوفة ص ٢٦

نقل عن ب . بليوت (P. Pelliot) ان رسامين صينيين « كانا يقطنان بين سنة ٧٥١ و ٧٦٢ م ^(١) في (يا - كيو - لو) (= عاقولا) وهو الاسم السرياني للكوفة » .

وكان بين هؤلاء الاعاجم جماعة من النصارى واليهود ^(٢) اشتركوا في حياة المجتمع الكوفي واسهموا في تطوره المادي والفكري . ولا ريب في ان وجود هؤلاء الاعاجم قد ادى الى نمو طبقة العامة في المدينة ، كما ادى الى تلقيح الفكر العربي وبعث نهضة عامة في البلد .

ولئن اصاب بعض ابناء هذه الفئة بشيء من الحرج النفسي خلال الحركة العربية المقاومة للشعوبية فكثير ادعيائهم في القبائل العربيه نتيجة لذلك ، فان الكثيرين منهم كانوا يتمتعون بروح عالية لفضل علمهم وشعورهم بأثالة مجدهم :

قال ابو هشام الرفاعي : ^(٣) « سمعت رجلا من بني قفل من خيار بني تميم يقول لأبي حنيفة ما انت مولاي ، فقال انا والله لك اشرف منك لي . »

ومها يكن الامر ، فقد التقت في الكوفة بالتقاء هؤلاء الاعاجم والعرب ثقافات متنوعة : عربية وبابلية وفارسية وهندية ويونانية ^(٤) . وكان لا بد لهذه الثقافات المتجاورة من ان تتفاعل بعضها ببعض لتكون حصيلة واحدة متى امكن ، كما كان لا بد لاصحابها من تحدي العوامل التي من شأنها اعاقه تكوين مجتمع متآلف متناسق . وعلى ذلك ظهرت حاجة طبيعية الى التقارب بين عنصري المجتمع الرئيسيين والى تقوية اسس التفاهم المشترك بينهما . وغدا لزاما على المغلوب معرفة لغة الغالب والاطلاع على مثله في الحياة ، كما اصبح لزاما على الغالب التعرف بحياة المغلوب والاستفادة من خبرته في شتى ضروب المعرفة . والواقع ان اندماج الفريقين كان ضرورة اجتماعية تولدت عنها حاجات معينة تتصل اصول بعضها بالحياة النفسية لكل منها الى حد بعيد . فقد احس العرب ، امام هذه الاقوام التي كانت تفوقهم بثقافتها ، بشيء من الهزيمة المعنوية التي وجدت لها متنفسا في اتجاهين : اولهما التباهي بهذا التراث الديني واللغوي والادبي الذي خرجوا به من الجزيرة والعمل على انماء هذا التراث واطهاره بأجود

(١) تقابلها سنتا ١٣٣ ، ١٤٥٠ هـ على التوالي

(٢) خطط الكوفة ص ٢٥

(٣) تاريخ الطبري ص ٢٥١٠ (ذكر من هلك منهم سنة ١٥٠)

(٤) الجوالي ص ١٧١ - ٧٢

المظاهر، وثانيها الهروب من هذا الواقع الى حياة اللذائذ والترف . وشعر الفرس بمرارة الهزيمة المادية وما لازمها او نجم عنها من هزيمة معنوية ، واخذت نفوسهم ، عن وعي او عن غير وعي ، تتلمس التعويض عن هذه الهزيمة بنشدان التفوق على العرب واظهار هذا التفوق في مجالاته المتنوعة من ادارية وعلمية وادبية ، وكذلك بالهروب من واقعهم الاليم بزيادة التهاافت على اللذائذ وطلب المجون . ولئن كانت في انتصار بني العباس على الامويين بمساعدتهم ما انعش آمالهم وعزز مكانتهم ، فان هذا الانتصار في الحقيقة لم ينزع من نفوسهم مرارة الهزيمة الاولى التي كانت قد تربت فيها اثر الفتوح ، وظهر اثرها واضحا في ازدهار الحركة الشعبية .

(٢) مظاهر الحياة فيه :

ولم يكن بد للحياة الجديدة من ان تلاقي حاجات السكان جميعاً سواء كانت هذه الحاجات مادية ام فكرية ام روحية . ولذا تعددت مسالك الناس وتنوعت مظاهر الحياة حتى اخذ بعض السكان يعيرون على اهل « المدينة » ، عن حق او عن غير حق ، انصرافهم الى حياة الطرب وحسب ^(١) .

وما ان جاء القرن الثاني ، وهو القرن الذي سلخ فيه مسلم معظم حياته ، حتى ازدادت الحياة تنوعاً - على ما يظهر - واخذت المدينة تجمع بين الفقيه المحافظ والماجن الخليع ، الثري الموسر والفقير المدقع ، العابد المتعهد والزنديق الكافر . ومن الطبيعي ان تعمل حياة كهذه على اخلال التوازن في السلوك الانساني ، والى الميل بالكثيرين الى التطرف الى هذا الجانب او ذاك من جوانب الحياة . وسنرى فيما بعد اثر هذه الحياة في سلوك مسلم وفي تكوين بعض العناصر الرئيسية لشخصيته .

ولعل من الخير ان نعرض بإيجاز للونين هامين من الوان هذه الحياة التي سادت الكوفة في القرن الثاني ، وهما الحياة العقلية الرزينة ، وحياة المجون اللاهية :

الحياة العقلية :

تناولت هذه الحياة ، في ما تناولت ، العلوم الدينية ، واللغة والنحو ، والرواية ، والشعر .

(١) انظر الطبري ص ٢٥١٠

اما العلوم الدينية فقد كانت الكوفة مركزاً هاماً من مراكزها في القرن الثاني . ويعود ذلك الى كثرة من كانت قد نزح اليها من صحابة وتابعين منذ تأسيسها^(١) . فقد انشأ هؤلاء مدرسة دينية فيها تقوم على مدارسة القرآن الكريم وما يتصل به من تفسير وقراءات وحديث وفقه . وقد امتدت هذه المدرسة الى القرن الثاني وما بعده وانتمى اليها كثير من الرجال بينهم عدد كبير من الموالي .

واهم رجال هذه المدرسة الشعبي (+ ١٠٧ هـ) ، المحدث المشهور الذي يقال انه ادرك حوالي خمسمئة من الصحابة وانه « كان يعد عالم الكوفة بين التابعين »^(٢) وحماد بن ابي سليمان الاشعري (+ ١٢٠ هـ) الفقيه المرجى . وابو حنيفة (+ ١٥٠ هـ) الفقيه المشهور . وحمزة بن حبيب بن عمار الزيات (+ ١٥٨ هـ) « شيخ القراء واحد السبعة الائمة »^(٣) . والثوري (+ ١٦١ هـ) المحدث الفقيه . وشيبان بن عبد الرحمن مولى بني تميم (+ ١٦٤ او ١٧٠ هـ)^(٤) الفقيه . والكساني (+ ١٨٩ هـ) « احد القراء السبعة المشهورين »^(٥) وأبوبكر ابن عياش بن سالم الحياط (+ ١٩٣ هـ) الفقيه العالم .

وكان بعض هؤلاء يرحلون في طلب الحديث والفقه الى مختلف الامصار الاسلامية ، كما كان بعضهم يعقدون حلقات في مسجد الكوفة يعرضون فيها لقضايا الفقه ويفتون في المسائل التي تعرض عليهم . فقد كانت لمحمد بن ابي سليمان الاشعري مثلاً حلقة كبيرة في المسجد « يجلس اليه فيها المتعلمون يعلمهم ويسألونه ، ويأتي اليه اصحاب الحاجات في المسائل التي تعرض لهم فيستفتونه »^(٦) وكذلك كانت حلقة اخرى لتلميذه ابي حنيفة يعلم فيها ويفتي في القضايا التي تعرض عليه .

ولا بد انه اتاحت فرص كثيرة امام مسلم للاستماع الى ما كان يقال في هذه

(١) راجع طبقات ابن سعد (ج ٦ ص ١ - ٤٣) ، وتاريخ الكوفة للبراقى (ص ٣٨٤ - ٣٩٨)
لترى العدد الضخم من الصحابة والتابعين الذين نزلوا الكوفة

(٢) الرافعي ، تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٨٧

(٣) معجم الادباء ج ١٠ ص ٢٨٩ .

(٤) نفسه ج ١١ ص ٢٧٦

(٥) نفسه ج ١٣ ص ١٦٧

(٦) ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٨٢

الحلقات من فتاوى ويدور فيها من جدل .

واما **اللغة والنحو** فقد اهتم بهما الكوفيون اهتماما خاصا لسببين رئيسيين : اولهما الاستفادة منها في تفسير القرآن الكريم واستخلاص احكامه وضبط قراءته ، وثانيهما الاستعانة بهما على مقاومة اللحن الذي اخذ يتسرب الى اللغة بسبب الاعاجم . وظهر في المدينة في القرن الثاني عدد من اللغويين والنحويين ^(١) اهمهم الرؤاسي (+ ١٩٠ هـ) ، والمهراء (+ ١٨٧ هـ) ، والكسائي (+ ١٨٩ هـ) ، والفراء (+ ٢٠٧ هـ) ، والسيباني (+ ٢١٣) وغيرهم .

واود ان اقف قليلا عند الفراء من بين هؤلاء جميعا ، لا لسعة معرفته في اللغة والنحو ، ولا لتضلعه بالفقة ، ولا لحذقه في ايام العرب واشعارها ، بل لانه فوق ذلك - كما يقول الرواة - « ماهر في علم النجوم ، وخبير بالطب ومتكلم يميل الى الاعتزال » ولانه « كان يتفلسف في تصانيفه ، ويستعمل فيها الفاظ الفلاسفة » . ^(٢) فان صح قول الرواة هذا كانت له دلالتان على جانب كبير من الاهمية : اولاهما ان شيئا من علوم الاجانب اخذ يتسرب الى اوساط الكوفة في ذلك الوقت ، وثانيها ان الفلسفة وما لازمها من محاولة اخضاع الدين للعقل اخذت تجد طريقها الى الكوفة وتعمل في حياتها العقلية كما وجدت طريقها الى شقيقتها البصرة وعملت في حياتها العقلية ايضا .

وقد حذا بعض هؤلاء حذو اهل الحديث في الارتحال للتحصيل ، فارتحل بعضهم الى البصرة واخذوا عن علمائها كما ارتحلوا الى البادية واخذوا عن اهلها : فقد روي عن الكسائي مثلا انه ذهب الى البصرة واخذ عن الخليل بن احمد ، وانه خرج الى بوادي الحجاز ونجد وتهامة فرجع وقد انفذ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ . ^(٣)

وكان لبعض هؤلاء كتابيب في المدينة يعلمون فيها الصبية ^(٤) ، كما كان لبعضهم حلقات في المسجد يجتمع اليهم فيها طلبة العلم ورواد المعرفة ^(٥) .

(١) انظر الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ص ١٣٥ - ١٥٤

(٢) معجم الادباء ج ٧ ص ٢٧٦

(٣) نفسه ج ١٣ ص ١٦٩ ، ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٠٦

(٤) انظر معجم الادباء ج ١٣ ص ١٩٨

(٥) نفسه ص ١٧٠ ، طبقات النحويين واللغويين ص ١٤٥ - ٥٠

وتكونت من هؤلاء جميعاً مدرسة خاصة تقوم على القياس وتنافس مدرسة البصرة التي كانت تقوم على السماع ولا تجيز رأياً الا اذا ائيد بالشاهد واحتج له بكلام العرب^(١).

ويبدو ان اهل البصرة كانوا اكثر اعتداداً بأنفسهم من اهل الكوفة ، ولذا فقد كان الكوفي يأخذ عن البصري بينما البصري يتخرج عن ان يأخذ عن الكوفي ، حتى قالوا « ان ابا زيد^(٢) كان يروي عن علماء الكوفة ، ولا يعلم احد من علماء البصريين بالنحو واللغة اخذ عن اهل الكوفة الا ابا زيد ، فانه روى عن المفضل الضبي »^(٣).

واما الرواية فقد راج سوقها في المدينة في القرن الثاني فكثر فيها الرواة وتشعبت مناحيهم ، فمنهم من غلبت عليه رواية الحديث كمن سبق من المحدثين ، ومنهم من غلبت عليه رواية الاخبار والتواريخ كمحمد بن اسحق وابي مخنف لوط بن يحيى وعوانة بن الحكم وسيف بن عمر وزيايد البكائي ، ومنهم من غلبت عليه رواية الشعر والادب كالحماد بن^(٤) وحناد بن واصل ولقيط بن بكير المحاربي والهيثم بن عدي بن عبد الرحمن والمفضل الضبي والقاسم بن سلام وابن الاعرابي وابو عمرو الشيباني وغيرهم .

وكان هؤلاء الرواة يتصلون بالاعراب ويأخذون عنهم ثم يسهمون في حركة التدوين التي اخذت تنشط في المدينة في عهد مسلم .

واما الشعر فقد راج ايضاً، ووجد في المدينة في القرن الثاني كثير من الشعراء اهمهم : الكيث بن زيد ، ومطيع بن اياس ، ويحيى بن زياد ، ويوسف بن لقوة ، وابو العتاهية ، ومسلم بن الوليد ، ودعبل الخزاعي ، والمؤمل بن اميل ، وابو دلامة الاسدي ، وحماد عجرد ، وحماد الرواية ، وشريك بن عبد الله ، وكثير غيرهم .

وقد ذكر السيوطي ان « الشعر بالكوفة اكثر واجمع منه بالبصرة » ولكن اكثره مصنوع ومنسوب الى من لم يقله^(٥) : ولعل هذا يعكس لنا شيئاً عن

(١) انظر ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٩٤-٢٩٨ ، وتاريخ ادب العرب للرافعي ج ١ ص ٤٣٢-٣٤٠ (٢) الانصاري

(٣) الانصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين ص ١٧٥

(٤) حماد عجرد ، وحماد الرواية ، وحماد بن الزبرقان (انظر الشعر والشعراء ج ٢ ص ٧٥٤)

(٥) المزهر ج ٢ ص ٢٠٦

خلق بعض زواة الكوفة كالحمادين الذين لم يتورعوا عن انتحال كثير من الشعر ونسبته الى من لم يقله .

وقد اسهم شعراء الكوفة ، كما هو متوقع ، في حياة مدينتهم العامة ، واقحم الكثير منهم انفسهم في التيارات السياسية المختلفة التي كانت تعصف بالعراق في زمنهم ، فضلح بعضهم مع آل الزبير كالمغيرة بن عبدالله ، وانتصر بعضهم لآل البيت كالكيت ، ومدح بعضهم العباسيين كالمؤمل بن اميل ، ودافع بعضهم عن الطالبين كدعبل الخزاعي .

حياة المجون واللهو

الى جانب الوجه العلمي والادبي من حياة الكوفة كان هناك وجه آخر يقوم على المجون والعبث واللهو . فقد كان يعيش في هذه المدينة ، زيادة على سكانها العرب ، كما نعلم ، كثير من الاعاجم والموالي والحواري ، وكانت تتمثل في معظم هؤلاء المظاهر المادية للمدنية الفارسية ولذا فقد شاع بينهم العبث وانتشر المجون واللهو . وكان يجاريهم في ذلك طبقة ليست بالقليلة من ابناء العرب ممن اغرتهم هذه الحياة الحضرية الناعمة ولذت لهم .

ويبدو ان قرب الكوفة من الحيرة من جهة ، واتصالها بمكة والمدينة بالطريق الصحراوي من جهة اخرى ساعدا على شيوع هذا النمط من الحياة فيها ، فقد سبقتها هذه المدن الى ذلك واخذت تؤثر فيها من هذه الناحية . وعلى ذلك فقد غدت الكوفة منذ اواخر العصر الاموي الموطن الاول لهذا اللون من الحياة . فكانت تعج بمجالس الشراب والغناء واللهو وكان فيها من يمتحن اعداد هذه المجالس فيهيء فيها اسباب اللهو لمن يغشاها من الظرفاء وطلاب اللذة :

فقد روى صاحب الاغاني انه « كان في الكوفة صاحب قيان يقال له ابن رامين قدمها من الحجاز فكان من يسمع الغناء ويشرب النبيذ يأتونه ويقيمون عنده مثل يحيى بن زياد الحارثي وشراعة بن الزند ومطيع بن اياس وعبدالله بن العباس المقتون وعون العبادي الحيري ومحمد بن الاشعث الزهري المغني ... »

وكان لابن رامين جوار يقال له سلامة الزرقاء وسعدة وربيحة وكن من احسن الناس غناء^(١) .

(١) الاغاني ج ١٠ ص ١٢٨

وظهر في المدينة في اواخر القرن الاول الهجري ، وكذلك في القرن الثاني ، طائفة من الشعراء المجتّان عرفوا بالظرف والاستهتار . ومن بين هؤلاء : الاقيشر الأسدي وحامد عجرد ومطيع بن اياس وعلي بن الخليل ويحيى بن زياد وغيرهم . واخذ هؤلاء الشعراء يعقدون مجالس خاصة يشيع فيها اللهو وتسم بالمرح والظرف ، وغدت حياتهم تسيطر عليها روح اللطافة والتندر .

روى صاحب الاغانى ^(١) ان يحيى بن زياد الحارثي قال لمطيع بن اياس «انطلق بنا الى فلانة صديقتي فان بيني وبينها مغاضبة لتصلح بيننا وبئس المصلح انت . فدخلنا اليها فأقبلا يتعاتبان ومطيع ساكت حتى اذا اكثرت قال يحيى لمطيع ما يسكتك اسكت الله نامتك ، فقال لها مطيع :

انت معتلة عليه وما زلت مهيناً لنفسه في رضاك

فاعجب يحيى ما سمع وهش له مطيع

فدعيه وواصلني ابن اياس فجعلت نفسي الغداة فداك

فقام يحيى اليه بوسادة في البيت فما زال يجلد بها رأسه ويقول ألهذا جئت بك يا ابن الزانية ومطيع يغوث حتى مل يحيى والجارية تضحك منها ثم تركه وقد سدر .

ويستنتج من كل ما ذكر عن حياة الكوفة انه كان يتجاور فيها ابان نشأة شاعرنا فريقان من الناس : احدهما محافظ يأخذ بذبول الحياة القديمة ويتمثل في طبقة الفقهاء والعلماء والرواة ، والآخر مجدد يسعى وراء الحياة الحادثة ويتمثل في طائفة من الناس بينها جماعة ليست بالقليلة من رجال الشعر والادب . وكان من الطبيعي ان يضيق كل من هذين الفريقين ذرعاً بالآخر وان يشتد الصراع بينهما . وكان من الطبيعي ايضاً ان يظهر بين هذين الفريقين فريق ثالث يحاول جهده ان يلائم في حياته الخاصة بين القديم والجديد ، وان يسلك طريقاً وسطاً بين اصحابها : يدافع عنهم جميعاً ، ويعتذر عنهم جميعاً ، ويضيف الجيد والرديء لكل منهم . ^(٢)

(١) الاغانى ج ١٢ ص ٨٣

(٢) انظر تاريخ النقد الادبي عند العرب ص ١١٤ ، والجواري ص ١٩٣ .

بغداد : نشأتها وغوها

بنى المنصور مدينة بغداد واتخذها عاصمة للملكة لانه لم يرتح الى اقامته بجوار الكوفة بعد ان لمس تدمير العلويين لاستئثار العباسيين بالحكم دونهم ، وبعد ان خشي على جيشه من تحريض اهل الكوفة ، وهم شيعة العلويين ^(١) .

وقدر للمدينة الجديدة ان تزدهر فقد « تقاطر اليها الناس للارتزاق بالتجارة او الصناعة او الادب او الشعر او للاخذ بأسباب الملاهي فالتقى فيها العربي والفارسي والرومي والنبطي والتركي والصقلي والهندي والبربري والزنجي » ^(٢) .

وكان ابو جعفر ميالاً للعلم والادب ، وشاء ان يجعل من عاصمته مدينة تشع بأنوارها على جميع المسلمين فدعا اليها عدداً من العلماء الممتازين في القراءات والوعظ والنحو والحديث من مدينتي الكوفة والبصرة اللتين كانتا آنذاك من اهم مراكز العلوم الاسلامية . ^(٣)

وكان لرغبة من تبعه من الخلفاء ، ولا سيما الرشيد ، في العلم والادب واکرامهم للعلماء والادباء ما شجع هؤلاء على النزوح اليها « فلم يبق ذو قريحة او علم او ادب الا يمتد دار السلام ونال جائزة او هدية او راتباً » ^(٤)

ومن هنا اصبحت المدينة مركزاً سياسياً وعلمياً وادبياً تضاءلت امامه المدينة ودمشق والكوفة والبصرة وغدت مركز الثقل في الحياة العربية العامة .

بغداد مركز سياسة الدولة .

منذ ان انتقل المنصور الى بغداد اصبحت مقر الخلافة وعاصمة الدولة ، وغدا فيها كبار رجال السياسة من وزراء ورؤساء ودواوين وكتاب . وتوثقت الصلة بينها وبين اجزاء الدولة واخذ يرتادها اصحاب المصالح السياسية من كل صقع . وباعتبارها عاصمة للدولة لم تكن تستطيع ان تعيش بمعزل عن اية حركة سياسية او دينية او اجتماعية تظهر في اي جزء من اجزائها ، او اية حركة عسكرية تبدو قريباً من الثغور . ولذا لم تكن مهمة خلفائها ووزرائهم مهمة

١ (الجوالي - الشعر في بغداد ص ٢٠)

٢ (زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٧ - ١٨)

٣ (O'leary, How Greek Science passed to the Arabs p. 150)

٤ (زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٨)

يسيرة وهم المسؤولون عن سياسة بلاد واسعة الارحاء ، متباينة المذاهب ،
مختلفة السكان .

والواقع انه تعاقب على كرسي الخلافة في بغداد ، منذ عهد المنصور حتى
وفاة مسلم سنة ٢٠٨ هـ ، ستة خلفاء (١) لم يخل حكم اي منهم من اضطرابات ،
داخلية كانت تلك الاضطرابات ام خارجية .

ففي الحقل الداخلي حدثت حركات ثورية قام بها العلويون والحوارج وغلاة
الفرس (٢) . وكان الغرض من معظم هذه الحركات تهديد الحكم العباسي والقضاء
عليه . ولئن وقف الخلفاء موقفاً صارماً من جميع هذه الحركات فانهم في الوقت
نفسه لجأوا الى سياسة في الاسترضاء اعانهم عليها البرامكة اعانة فعالة (٣) .

ومن الجدير بالذكر ان شعر مسلم سجل لنا بعض احداث هذه الحركات
ولاسيا ما كان منها ذا صلة بممدوحيه .

واما في الحقل الخارجي فقد كان البيزنطيون لا ينون عن تهديد بلاد الخلافة
لاستعادة ما كان العرب قد اقتطعوه من مملكتهم . وتاريخ هذا التهديد قديم
يرجع الى زمن الامويين ، غير انه استمر في العهد العباسي فكان لحكم كل من
المنصور والمهدي والرشيد نصيب وافر منه . (٤)

١ . ابو جعفر عبد الله المنصور (ابن محمد) ١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م

٢ . ابو عبد الله محمد المهدي (ابن المنصور) ١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م

٣ . ابو محمد موسى الهادي (ابن المهدي) ١٦٩ - ١٧٠ هـ / ٧٨٥ - ٧٨٦ م

٤ . ابو جعفر هارون الرشيد (ابن المهدي) ١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م

٥ . ابو موسى محمد الامين (ابن الرشيد) ١٩٣ - ١٩٨ هـ / ٨٠٩ - ٨١٣ م

٦ . ابو جعفر عبد الله المأمون (ابن الرشيد) ١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م

من كتاب : E. de Zambaur Manuel de Genealogie et de Chronologie Pour l'Histoire
de l'Islam, pp. 4-5.

٢ (تجد اخبار ذلك منشورة في سير الخلفاء في الفخري لابن طباطبائي ، ومختصر تاريخ العرب
والتمدن الاسلامي لسيد امير علي .

٣ (Nicholson, A Literary History of the Arabs, p. 259.

٤ (انظر ذلك في :

حقي ، جرجي ، جبور - تاريخ العرب (مطول) ص ٣٦٣ و ٣٧١ - ٧٣ .

وقد جرد الرشيد بصورة خاصة سلسلة من الحملات على خصومه كللت جميعها بالنجاح . وكان من حسن الحظ ان تعاون الادب والتاريخ في تسجيل بعض هذه الحملات فظهرت في شعر مسلم ، ولا سيما في مدائحه للرشيد ويزيد بن مزيد .

حياتها الاجتماعية :

لم تكن حياة بغداد الاجتماعية ، بُعيد انشائها ، تختلف كثيراً عن حياة الكوفة ، فقد استمدت كل من الحياتين اسسها من عناصر متشابهة . زد على ذلك ان قسماً من سكان الكوفة انفسهم اسهموا في بناء مجتمع بغداد الجديد حين نزحوا اليها .

غير ان وجود الخليفة وحاشيته في بغداد نفسها واخذهم بمظاهر الحياة المدنية ساعد على انتشار هذه الحياة بين الناس بشكل اوسع مما عهدته الكوفة ، ولا سيما بعد ان اخذت مرافق الدولة تزداد ومواردها تتسع . وهكذا فلم يمض على تأسيس المدينة نصف قرن حتى اصبحت في عهد الرشيد ام المدائن الاسلامية المتحضرة و « منافسة بزنطة الوحيدة »^(١) في العالم المعروف آنذاك .

وكان سكان بغداد ، كما نعلم ، يتكونون من عرب واعاجم ، وقد كثر اختلاط العرب منهم بالاعاجم بالمعاشرة والمزاوجة الى حد لم يعد فيه للدم كبير قيمة في الاختلافات الطبقية في المجتمع . وعلى ذلك لم تعد الطبقة الارستقراطية مقصورة على ذوي الانساب الشريفة من العرب كما كان الامر في عهد بني امية ، بل اخذ يرتقي اليها رجال معظمهم من الموالي لهم من علمهم وذكائهم وحب الخلفاء لهم ما يؤهلهم لذلك . ولعل البرامكة افضل مثل يمكن ان يقدم على ذلك .

وكانت تشمل هذه الطبقة الخليفة واسرته وكبار موظفي الدولة واعضاء الاسرة الهاشمية . وكان رجالها يستأثرون بمعظم الثروة التي كانت تنثال على خزانة الدولة انشياًلاً . ولذا فقد توفرت لديهم وسائل العيش المترف فكثرت بذخهم^(٢) ،

(١) حتي ، جرجي ، جبوو - تاريخ العرب (مطول) ص ٣٧٤ .

(٢) في كتب الادب والتاريخ دلائل كثيرة على ذلك ، منها :

١ - اتحاد زبيدة زوج الرشيد الخفاف المرسعة بالجواهر (مروج الذهب ج ٨ ص ٢٩٨) .

٢ - ما فتر من لآلئ وبدا من ابتذال للذهب يوم عقد المأمون على بوران (لطائف المعارف ص ٥٧٣) .

٣ - حشو الامين لم ابي نواس بالدرحين استحسن مديحه له (اخبار ابي نواس لابي هفان ص ٧١) .

واخذوا يفتنون في حياتهم الخاصة افتناناً فبسوا بعضه من اكاسرة الفرس السابقين وارسقراطيينهم ، وابتكروا بعضه بوحى من وسائل الحضارة التي توفرت لهم . فكثرت اقتناء معظمهم للجواري والغلمان وانغمسوا في حياة الرذيلة واقاموا للهو مجالس خاصة تضمخوا فيها بالخلوق ولبسوا الحرير ^(١) وشربوا الخمر واستمعوا الى القيان ^(٢) . وانتقلت العدوى ، بصورة خاصة ، الى طبقة الادباء والشعراء الذين استعانوا بما كان يغدقه هؤلاء عليهم من مال ، على مثل هذه الحياة ، ففقدوا مجالس للشرب والغناء ، وتهافتوا على اللذة ، وقصدوا الحانات والمواخير ^(٣) ، وسعوا وراء الجواري والغلمان . ^(٤)

اما طبقة العامة التي كانت تشمل الفلاحين وصغار الصنائع والجنود والارقاء فقد اهملها المؤرخون على ما يظهر ، ولذا بتنا لا نعرف عنها الكثير . غير انه يؤخذ من بعض ما وصل الينا من شعر واخبار متفرقة ^(٥) انها لم تكن سعيدة الحال . قال ابو العتاهية ^(٦) يخاطب هارون الرشيد :

من مبلغ عني الاما	م نصائحاً متواليه
اني أرى الاسعار اسـ	عار الرعية ، غالية
وأرى المكاسب نزرة	وارى الضرورة فاشية
وارى الارامل واليتا	مى في البيوت الخالية
من للبطون الجائعا	ت وللحوم العارية ؟
يا ابن الخلائف لا فتد	ت ولا عدمت العاقبة
القيت اخبارا اليـ	ك عن الرعية شافية

وكان معظم ابناء هذه الطبقة من الموالي الذين كان لهم من كثرة عددهم ، وتفوقهم الثقافي ، وشعورهم المتزايد بالغبن ، ما جعلهم « فئة متدمرة تكون خطراً

(١) الجهنياري ص ٢١٢

(٢) اخبار هذه المجالس منشورة في كتب الادب كالاغاني ، والعقد الفريد (ج ٦) ، ونهاية الارب (ج ٤) وغيرها .

(٣) انظر اخبار ابي نواس لابي هفان المهزومي ص ٣٦ ، ٥٠ .

(٤) نفسه ص ٦٩٠٦٧٠٥٠

(٥) انظر رسالة الصحابة لابن المقفع عن اخبار الجنود بصورة خاصة .

(٦) ديوان ابي العتاهية ، ط . الآباء اليسوعيين ، ص ٣٠٣ - ٤

على التشكيلات السياسية والاجتماعية السائدة آنذاك» . (١) ولقد عبر هذا التذمر عن نفسه في الحركات الشيعية التي اسهموا فيها في عهد مسلم . (٢)

اما المرأة فعلى الرغم من ان مستواها الثقافي قد ارتفع بصورة عامة فاصبح بين النساء متعلقات وشواعر - على ما نرى في كتب التاريخ والادب - فان قيمتها في المجتمع قد تدنت الى درجة كبيرة لكثرة عدد الجوارى وسهولة الوصول اليهن . وعلى ذلك فقد شاع التسري وانتشر العبث الماجن وتدنت المقاييس التي ينظر بها الرجل الى المرأة وانعكست تلك المقاييس على الكثير مما خلف العصر من ادب .

حياتها العقلية :

كانت في بغداد في عهد مسلم بواكير يقظة فكرية نجمت عن اتصال العرب بالاعاجم الذين كانوا اعلى منهم كعباً في ميدان الحضارة . فقد كان هؤلاء - واكثرهم من الفرس والسيريان - ينتمون الى حضارات عريقة ، كما كانوا يعرفون علوم اليونان والهنود وفلسفتهم قبل ان يجد العرب طريقهم اليها . وكان سبيلهم الى هذه المعرفة مدرسة جنديسابور والرها وحران وغيرها من المدارس التي كانت تعمل على نشر الثقافة اليونانية والهندية بصورة خاصة . (٣)

وعلى ذلك فقد عرف العرب الفلسفة اليونانية عن طريق هؤلاء قبل ان تترجم كتبها الى لغتهم واستعملوها في محاولة لتطبيق العقل على الدين ، فظهرت المعتزلة ونشأ علم الكلام من ناحية ، وكثرت البدع الدينية من ناحية اخرى . ومن المعروف ان اول ما حدث ذلك في البصرة لكثرة من كان فيها من فرس وهنود ، ولكن تراث البصرة ما لبث ان انتقل الى بغداد اثر تأسيسها كثرات شقيقتها الكوفة .

ولعل من اهم البدع التي انتشرت على اثر دخول الاعاجم الحياة الاسلامية الزندقة . ولغة زنديق كانت تطلق في الاصل على من يؤمن بالمانوية ويثبت اصلين ازليين للعالم ، هما النور والظلمة . ثم اتسع مدلولها اتساعاً كبيراً حتى اصبحت

(١) برنارد لويس ، العرب في التاريخ ص ٩٨ .

(٢) نفسه .

(٣) راجع تاريخ الفلسفة العربية ج ٢ ص ٧-١٢ ، واصول الفلسفة العربية ص ١٠٥-١١٥ .

تطلق على كل صاحب بدعة ، او ملحد ، او متحرر . وانتهى بها الامر الى ان تطلق على من كان مذهبه مخالفاً لمذهب اهل السنة ، او حتى من كان يحيا حياة المجون من الشعراء والكتاب ومن اليهم^(١) .

ويبدو ان بواكير هذا التطور الفكري لم تكن كافية لسد الفراغ الذي شعر به العرب في حياتهم الفكرية على اثر المشكلات الفقهية والاجتماعية الكثيرة التي جابهتهم ابان الحكم . وعلاوة على ذلك فان تقدمهم في اسباب الحضارة المادية التي قبسوها عن الفرس فرض عليهم نشدان المزيد من التقدم الفكري لمجاراة هذه الحضارة ، فالترف المادي ، في العادة ، لا بد من ان يتبعه ترف فكري يتجلى في نشدان المعرفة وفلسفة الافكار^(٢) .

وعلى ذلك اقبل العرب على الترجمة ولا سيما في عهدي المنصور والمأمون ، فترجم في عهد الاول كتب ارسطوطاليس في المنطق من اليونانية ، وكتاب كلية ودمنة في الادب من الفارسية ، وكتاب السند هند في الفلك من الهندية^(٣) . وترجم في عهد الثاني كتب في الطب لجالينوس وابقراط وكتاب السياسة لافلاطون^(٤) ، والمقولات والطبيعيات والحلقيات لارسطو^(٥) . وكثير غيرها ، وكلها ترجمت اما عن اليونانية او عن السريانية^(٦) .

وليس من شأننا هنا ان نتوسع في سرد حركة الترجمة وآثارها^(٧) فسلم لم يحن ثمارها بقدر ما جنى ثمار بواكير اليقظة الفكرية التي ادت اليها .

ومها يكن الامر ، فقد شملت هذه اليقظة ، في ما شملته ، حياتي المدينة العلمية والادبية ، ولذا كان لا بد لنا من التعرض لهاتين الحياتين لفهم التيارات الفكرية المختلفة التي كانت تحيط بمسلم ، والتي كان لا بد لها من ان تؤثر في اتجاهاته الفكرية ومن ثم في شعره :

(١) من تاريخ الاحاد في الاسلام ص ٢٤ .

(٢) انظر اصول الفلسفة العربية ص ١٣٢

(٣) عصر المأمون ج ١ ص ١٦١

(٤) الفهرست ص ٢٤٦

(٥) الفهرست ص ٢٤٨ ، وطبقات الاطباء ص ٢٨-٣٦

(٦) طبقات الاطباء ص ٢٩

(٧) للتوسع في ذلك يرجع الى طبقات الاطباء ، واخبار الحكماء ، وتاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٦٧-١٣٨ ، وانتقال علوم الاغريق الى العرب (ترجمة بيثون والتمالي)

ص ٢٠٦-٢٣٢

حياتها العلمية :

زيادة على العلوم الدخيلة التي بدأت تجد سبيلها الى الاوساط البغدادية عن طريق الاتصال بالاعاجم والترجمة ، راجت في بغداد ، كما راجت قبلاً في الكوفة والبصرة ، سوق العلوم الدينية والعلوم اللسانية .

اما العلوم الدينية فقد غرس نواتها فيها من وفد عليها من رجال الدين من محدّثين وقرّاء وفقهاء ، وبرزهم من وفد من الكوفة كأسحق بن مرار الشيباني المحدث^(١) ، وشيبان بن عبد الرحمن القاري المحدث^(٢) وابو حنيفة الفقيه^(٣) . وقد استمر هؤلاء وغيرهم في العمل الذي بدأوا به قبل وفودهم الى العاصمة ، وأسس الاخير منهم مدرسة في الفقه تقوم على الرأي وتبلي الى حد كبير الحاجات الملحة لمجتمع تعددت مشاكله وتنوعت لتعدد عناصره وتنوعها . وقدر لاحد افراد هذه المدرسة ، ابي يوسف يعقوب بن ابراهيم ، ان يسهم في محاولة لاصلاح نظام الدولة المالي بوضعه كتاب الخراج في عهد الرشيد .

واما العلوم اللسانية فكان النشاط فيها امتداداً وتطوراً للنشاط اللغوي والنحوي في الكوفة والبصرة ، فقد وفد على المدينة كثير من علماء المدينتين لما احسوا من عطف الخلفاء على العلماء وتقريبهم لهم ، بل ودعوتهم لبعضهم للكتابة لهم ، او الاشتراك في مجالسهم ، او تأديب اولادهم . وقد جاء بعض هؤلاء من البصرة كالاصمعي وسيبويه ، وجاء معظمهم من الكوفة كالفضل الضبي والكسائي والفرّاء وابي عبيد القاسم بن سلام . وقد اسهم جل هؤلاء في المناظرات اللغوية والنحوية التي كانت تدور في مساجد المدينة ومجالس خلفائها^(٤) .

ولم تصل الينا رواية تشعرنا باتصال مسلم بأحد من علماء اللغة والدين او حضوره لأي من مجالسهم في بغداد . ولعله يصح الافتراض انه حين قدم اليها كانت قد تركزت ميوله واتجهت اتجاها ادبياً خالصاً . غير انه يبدو لنا من مسلكه الشعري ، مع ذلك ، الى اي حد كان يخشى هؤلاء الذين يمثلون طبقة المحافظين فيحاول رغم ابداعه ، الاكثار من الغريب في الغالب ، والبعد عن

١ (معجم الادباء ج ٦ ص ٧٨)

٢ (نفسه ج ١١ ص ٢٧٦)

٣ (ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٧٧ ، واللباب ص ٣٢٥)

٤ (انظر السيوطي ، الاشباه والنظائر ج ٣ ص ١٥)

التطرف في حيدته عن عمود الشعر .

حياتها الادبية

نشطت الحياة الادبية في بغداد في القرن الثاني على اثر ما كان يفد عليها من الشعراء نتيجة لتشجيع الخلفاء والامراء ورجال الدولة . فقد كان معظم هؤلاء يكرمون الشعراء ويبدلون لهم العطايا بسخاء . فالرشيد اعطى الفضل بن يحيى خاتماً قيمته الف وستمئة دينار مكافأة على احسن بيت قالته العرب في الذئب^(١) ، والامين حشاً في ابي نواس بالدرد حين استحسن مديحه له^(٢) ، والمأمون ولّى ابن الجهم البرمكي عدة كور لابيات من الشعر انشده اياها^(٣) ، والفضل بن سهل ولّى مسلماً بريد جرجان لرضاه عن شعره^(٤) ، والفضل بن يحيى البرمكي نثر عطائه بين الشعراء حتى قال احدهم فيه :

ما لَقِينَا مِنْ جُودِ فَضْلِ بْنِ يَحْيَى تَرَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ شِعْرَاءَ
وحتى قال آخر :

عَلِمَ الْمُفَحِّمِينَ أَنْ يَنْطِقُوا الْأَشْعَارَ مِنْهُ وَالْبَاخِلِينَ السَّخَاءَ^(٥)
ولعل من اكثر هؤلاء تشجيعاً للشعراء الرشيد الذي قيل انه لم يجتمع بباب احد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع ببابه من فحولة الشعراء « كأبي نواس وابي العتاهية والعتابي والنمري ومسلم بن الوليد وابي الشيص وابن ابي حفصة ومحمد بن منذر »^(٦)
واغلب الظن ان هذا التشجيع لم يكن ، في الغالب ، في سبيل حب الادب الخالص بقدر ما كان في سبيل الدعاوة السياسية . ولتبيان ذلك لا بد من تفهم العوامل السياسية التي سادت مستهل العصر العباسي وكان لها اثر بارز في الادب .
لعل اهم هذه العوامل عاملان : الاول ، عدم اشراك العباسيين للعلويين في الحكم رغم مناصرتهم لهم على الامويين ، والثاني ، اشراكهم للفرس فيه ، في اوائل عهد الدولة على الاقل . وقد نجم عن العامل الاول ان ثارت حفيظة

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٤٦٢

(٢) اخبار ابي نواس لابي هفان ص ٧١

(٣) الاغانى ج ١٣ ص ١٦

(٤) الفخري ص ١٦٣

(٥) الجهنياري ص ١٩٥

(٦) معجم الادباء ج ٢ ص ٣٢٦

العلويين واشتد النزاع بينهم وبين العباسيين . وكان لذلك اثره في النتاج الادبي ، فقد ضلع فريق كبير من الشعراء ، عن عقيدة او ممالاة او اصطناع ^(١) ، مع ذوي السلطة ، واخذوا ينظمون القصائد يمدحون بها الخلفاء ويذكرون حقهم في الخلافة ، ولذا حظوا بتشجيعهم ليساعدوهم على تجنيد الرأي العام لمصلحتهم . واشهر هؤلاء ابو دلامة ومروان بن ابى حفصة وابو العتاهية . وضلع فريق آخر مع العلويين وعكفوا على مدح علي وبيان حقه وحق آله في الخلافة وكذلك على هجاء خلفاء بني العباس ونقض حقهم فيها . ومن اشهر هؤلاء دعبل الخزاعي الذي « لم يسلم منه احد من الخلفاء » ^(٢) ، والسيد الحميري الذي استنفذ شعره في مدح علي وهجاء كل من قام حاجزاً بينه وبين خلافة الرسول . ^(٣) وقد تشدد الخلفاء ، قبل المأمون ، مع رجال الفريق الثاني تشدداً ادى ببعضهم الى الرياء والمراوغة ، فمنصور النمري مثلاً كان يتظاهر بالميل الى العباسيين بينما كان يبطن الولاء للعلويين ^(٤) ، وابان اللاحقي اضطر الى نظم قصيدة لا تتفق وهواه ليتمكن من الدخول على الرشيد . ^(٥)

ويبدو ان مسلماً لم يسلم من اثر هذا النزاع ، فعلى الرغم من انه مدح خلفاء بقي العباس فقد اتهم بالتشيع وتعرض للقتل في احد مجالس الرشيد كما سيحي . ونجم عن العامل الثاني ، وهو اشراك العباسيين للفرس بالحكم ، ان دخل الاعاجم الحياة العامة من بابها الواسع فزاد اسهامهم في اشاعة اسباب الحضارة بين العرب ، وان قويت الحركة الشعبية التي كان لها تأثير كبير على الشعر ، لا من حيث تطرق اغراضها الى معانيه فحسب ، بل ومن حيث تحدي التقاليد الفنية فيه ايضاً . وما مهاجمة بشار وابي نواس للاعراب في شعرهما ^(٦) ، ولا

(١) انظر الاغاني ج ٦ ص ٢١٣

(٢) الاغاني ج ١٨ ص ٢٩ .

(٣) نفسه ج ٧ ص ٢

(٤) نفسه ج ٢٠ ص ٧٥ .

(٥) نفسه

(٦) يقول بشار :

احين كيت بعد العربي خزاً
تفاخر يا ابن راعية وراع
وكنت اذا ظمئت الى قراح
تريد بخطبة كسر الموالي

ويقول ابو نواس :

ولا تأخذ عن الاعراب لهواً
ذر الالبان يشربها ائاس
بارض نبتها عشب وطلح

وناديت الكرام على العقار
بني الاحرار حسبك من خمار
شركت الكلب في ولغ الاطار
وينيك المكارم صيد فار

ولا عيشاً فعيشهم جديب
رقيق العيش عندهم غريب
واكثر صيدها ضبع وذيب

ثورة الاخير منها على استهلال القصاصد بذكر الاطلال والديار الدارسة (١) الا
اثر من آثار هذه الشعبية الى حد بعيد .

ومها يكن الامر فقد ادى هذان العاملان السياسيان معاً الى وجود قوتين
في البلاد تتمثل الاولى في الخلفاء والثانية في البرامكة ، كما ادت الحروب
الخارجية مع الروم وغيرهم الى نمو قوة ثلاثة هي قوة القواد والامراء الذين
يديرونها . (٢) وعلى ذلك اصبحت هناك ثلاث قوى تتمتع كل منها بنفوذ كافٍ
وتحظى بمال وفير يكفي لجذب الشعراء نحوها . واخذ يظهر على المسرح نتيجة
لذلك ثلاث فرق من الشعراء المتكسبين ، احداها تكاد تختص بمدح الخلفاء
كبشار بن برد و مروان بن ابي حفصة وسلم الخاسر وابي نواس ومنصور النمري
وابي العتاهية ، والاخرى تكاد تختص بمدح البرامكة كأبان بن عبد الحميد
اللاحقي وابن منذر والرقاشي واشجع السلمي ، والثالثة يغلب عليها مدح
الامراء والقواد كالعكوك ومطيع بن إياس ومحمد بن أمية وابي الشيص . ولعل
من الغريب ان يتمكن مسلم من مدح رجال ينتمون الى هذه القوى الثلاث دون
ان يثير عليه حفيظة احد ، وقد يكون سبب ذلك حذره الشديد الذي حداه
الى الاحجام عن التعريض بخصوم من يمدحهم من هؤلاء خلال مدحه .

ولم تكن العوامل السياسية العوامل الهامة الوحيدة التي اثرت في حياة
بغداد الادبية . فقد كان الى جانبها عوامل اخرى بارزة اهمها ما يتصل بحياة
المدينة الاجتماعية ، وبحياتها العقلية .

فأما من الناحية الاجتماعية فقد ادى تطور المصالح المشتركة بين الافراد الى
تطور في المفاهيم اضعف العصبية القبلية وعزز شخصية الفرد . اذ كان لسكنى
قبائل مختلفة في مدينة واحدة وارتباط افراد هذه القبائل بمصالح مشتركة ما
قرب بينها وجعل ميولها العصبية تتجه اتجاهاً جديداً ظهر اثره في التنافس
الثقافي بين المدرس ، ولا سيما بين الكوفة والبصرة ، وبغداد والمدينة . ولقد
(١) يقول ابو نواس :

ولا شجاني لها شخص ولا طلل	ما لي بدار خلت من اهلها شغل
للأهل عنها وللجيران منتقل	ولا رسوم ولا ابكي لمنزلة

ويقول ايضاً :

وتبلى عهد جدتها الخطوب	دع الاطلال تسفيها الجنوب
تحت بها النجبية والتجيب	وغل لراكب الوجناء ارضاً

(٢) واهم هؤلاء معن بن زائدة ، ويزيد بن مزيد ممدوح مسلم ، وجعفر بن المنصور (انظر الجوارى
ص ٨٥ وزيدان ج ٢ ص ٥٧) .

نجم عن هذا التنافس المدني غزارة في الانتاج في ميادين الادب واللغة والفقه ،
كما نجم عن تعزيز شخصية الفرد ميل الى الخلق والابتكار فيه .

وكان لغلبة الاعاجم على الحياة العربية ما ساعد على شيوع الحضارة وانتشار
حياة الترف وما يلزمها عادة من ميل للتأنق والغناء واللهو . وكان لذلك اثره
الكبير في الادب ولا سيما الشعر ، فقد دخلته المعاني الحضرية الرقيقة وميل به
نحو التأنق والزخرف واصيبت موسيقاه بتurf شديد استطاعت ان تنهض عن
طريقه بقم فنية جديدة لا عهد له بها من قبل ^(١) ، فشاعت فيه الاوزان الخفيفة
والجزوءات ، واستحدثت اوزان جديدة كالمقتضب والمضارع والمتدارك ^(٢) ،
ونماذج جديدة كالمسمط والمزدوج ^(٣) ، ليلائم الغناء الذي دخلته الحان فارسية
ورومية جديدة ^(٤) واصبح من مقتضيات العصر .

ولسنا بحاجة الى تبيان اثر كل هذا في مسلم فسنعرض لذلك خلال الحديث عن
شعره ، وانما يكفي ان نشير هنا الى ان اصطناع البديع ، وهو ابرز ما تميز به ،
كان استجابة منه ومن لفّ لفّه من شعراء العصر لحياة الرفاه التي اخذت تسود
اوساط الشعراء واوساط الذين كانوا يتصلون بهم ويمدحونهم .

وساعدت كثرة الاموال والجواري على تفشي المجون والاكثار من مجالس
الشراب والعبث . وكان للشعراء من هذه المجالس حظ كبير ، فكثيرا ما كانوا
يجمعون في بيوتهم الخاصة ^(٥) او بيوت المغنيات ^(٦) او المنازه ^(٧) او الحانات ^(٨) ،
يشربون ويعبثون ويتناشدون الشعر ويتبادلون الطرائف . وقد اشترك مسلم في
كثير من هذه المجالس في بغداد ، كما اشترك في امثالها في الكوفة ، فانعكست

١ (انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٦٦-٨٣)

٢ (الفصول والغايات لابي العلاء ص ١٣٢)

٣ (نقد النثر لقدامة بن جعفر ص ٦٤)

٤ (الاغاني ج ٥ ص ٥٧)

٥ (كما اجتمع دعبل واخوه رزين ومسلم وابو الشيص في بيت ابي نواس (دي خويه ص ٢٧٠)
نقلا عن مخطوطة غوطا للاغاني)

٦ (كما اجتمع ابو نواس والفضل الرقاشي والحسين بن الضحاك الخليلع وعمرؤ الوراق ومحمّد بن
رزين والحسين الحياط في منزل عنان (الحسن والاضداد ص ١٥٣-١٥٦)

٧ (كاجتماع ابي نواس والعباس بن الاحنف والحسين بن الضحاك الخليلع ومسلم في متنزه لهم
(العمدة ج ٢ ص ٨٧ ، وغرر الحصاص ص ١٧٤)

٨ (كاجتماع ابي نواس ويوسف ابن الداية عند بعض الخمارين (اخبار ابي نواس لابي هفان ص ٦٨)

على بعض شعره ومهدت له السبيل للاجتماع بصفوة شعراء عصره ، كأبي نواس ودعبل والعباس بن الاحنف ، واتاحت له الفرص للتأثر بهم والتأثير فيهم .

وازاء حركة المجون هذه ، التي تزعمها ابو نواس ، قامت حركة معاكسة رئسها ابو العتاهية تدعو الناس الى الزهد في الحياة الدنيا والسعي وراء الآخرة . ولعل في الحركتين تعبيراً عن ميول طبقة ساخطة على الحكم والاضاع العامة اتخذ بعض افرادها من الامعان في اللهو والعبث وسيلة لهذا التعبير واتخذ بعضهم الآخر من التمسك بذبول الآخرة تعويضاً عما فقدوه في حياتهم الدنيا . ولا ندري ، فلعل مسلماً كان من بين هؤلاء الساخطين ، ولعل سخطة وجد لنفسه متنفساً في مجونه حتى اذا ما وهب وظيفة عالية في جرحان طابت نفسه وترك المجون وقاب ، على ما يقول الرواة .^(١)

اما من الناحية العقلية فقد كان لاسهام الموالي في الحياة الادبية من جهة ، ولاتصال العرب بثقافة هؤلاء من جهة اخرى ما نهض بالمستوى الفكري للنتاج الادبي بصورة عامة وادى الى اغناء هذا النتاج .

زد على ذلك ان التيارات الفكرية المتنوعة التي نجمت عن دخول شعوب مختلفة حظيرة الحياة العربية الاسلامية انعكست على الادب فغدا ميدانا لعقائد هذه الشعوب ولعقائد العرب الذين تأثروا بها . وبذلك وجدت بعض العقائد كالجزيرية^(٢) والثنوية^(٣) والمرجئة^(٤) طريقاً الى الادب واتخذت منه ، في بعض المواقف ، سلاحاً للدفاع عن نفسها .

ولقد علمنا في ما سلف عن وجود طائفة من علماء اللغة والدين في المدينة اسهمت في حياتها العقلية . ومن الجدير بالذكر ان كان لهذه الطائفة اثر كبير في الحياة الادبية ، اذ كاد افرادها يستأثرون بحركة النقد الادبي التي كانت لها شأن كبير في توجيه الشعر في ذلك الوقت . ولما كان مجد هؤلاء يقوم على القديم فقد حملوا لواء المحافظة وتصدوا لكل حركة ترمي الى تجديد الشعر والمواءمة بينه وبين الحياة الجديدة . وقد عزز من مركزهم وقوى اثرهم ، قريتهم من مجالس الخلفاء واتخاذ هؤلاء منهم مستشارين لانفسهم ومؤدبين لولدتهم .

(١) مخطوطة دار الكتب للاغاني (عن الدهان ص ٣٧٤)

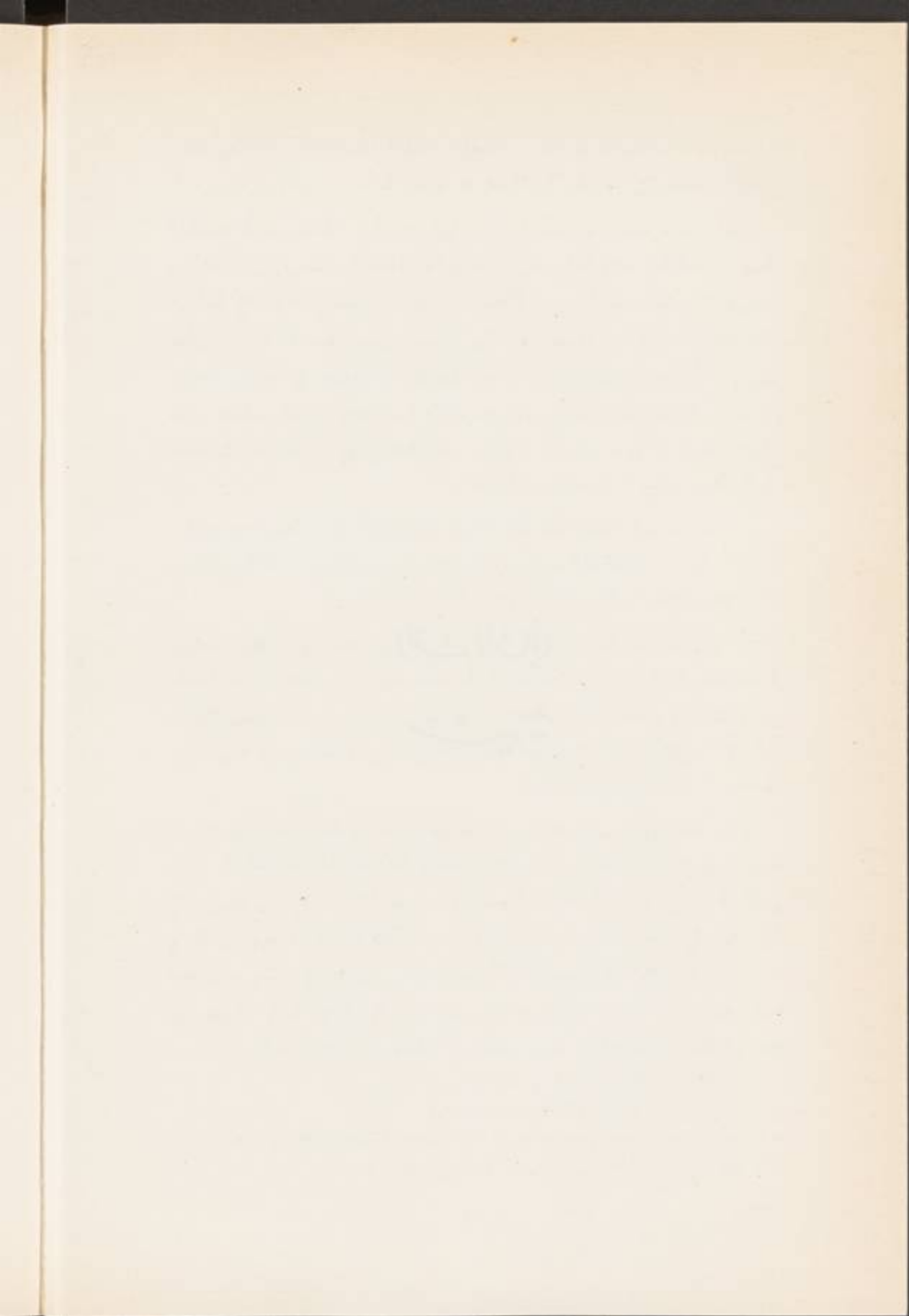
(٢) انظر قول بشار في الجبر (الاغاني ج ٣ ص ٦٢)

(٣) انظر شعر حماد عجرد في صديقه حبيب الذي كان يدين بالثنوية (الاغاني ج ٣ ص ٧٤)

(٤) انظر شعر ابي زكار الاعشى المرجىء (الاغاني ج ٦ ص ٢١٢-١٣)

القسم الثاني

سيرته



نزل الكوفة اثر الفتوح جماعة من ابنساء القبائل العربية بينهم طائفة من الانصار (١) . ولسنا نعرف تماماً المكان الذي حلّوا فيه من المدينة ، ولكننا نعلم ان قسماً منهم كان من الصحابة (٢) الذين كانوا قد لازموا الرسول في « المدينة » وتعهدوا الدين الجديد في اوائل نشأته ورغبوا في ان تكون حياتهم الجديدة في الكوفة امتداداً لحياتهم الماضية .

الى هؤلاء الانصار ينتسب مسلم ، غير ان موقعه بالضبط منهم لا يزال مجهولاً : أكان ابنهم كما تقول بعض المراجع ، ام مولى لهم كما تقول اخرى ؟ ! ولهذا فاننا نجد انفسنا محمولين على البحث في هذا الامر في الصفحات التالية بشيء من الاسهاب ، لا لأن قضية النسب قضية هامة في حد ذاتها ، بل لأنها كثيراً ما تترك في الشاعر اثرأ نفسياً عميقاً تنعكس ظلاله في شعره وسلوكه .

(١) البراقبي ص ١١١ .

(٢) راجع طبقات ابن سعد ص ١ - ٤٣ .

نسبه

لقد تحدّرت إلينا روايتان متناقضتان عن نسب مسلم : الأولى ذكرها ابن قتيبة ، وتقول ان مسلماً هو « من أبناء الانصار » ^(١) وانه بيّن في شعره بيته منهم بقوله ^(٢) :

تقسّم في مالك ^(٣) آل مالك وفي اسم ^(٤) الاثرين آل رزين

والثانية ذكرها الاصبهاني ، وتقول ان ابا مسلم ، واسمه الوليد ، هو « مولى الانصار ثم مولى ابي امامة اسعد ^(٥) بن زرارة الخزرجي » . ^(٦)

ويبدو ان ما وصل إلينا من روايات تالية يعتمد اصحابها فيها احدى هاتين الروايتين او الاخرى : فالحصري ^(٧) (+ ٤٥٣ هـ) والمعري ^(٨) (+ ٤٤٩ هـ) يعتمدان الرواية الاولى . والمرزباني ^(٩) ، والخطيب البغدادي ^(١٠) ، والبكري ^(١١) (+ ٤٨٧ هـ) ، وابن تغري بردي ^(١٢) (+ ٨٧٤ هـ) ، والعباسي ^(١٣) يعتمدون الرواية الثانية .

نحن اذن امام رأيين متضارين في نسب مسلم ، لا سبيل الى التوفيق بينهما .

(١) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٨٠٨ .

(٢) نفسه .

(٣) لعلم مالك بن النجار الخزرجي الذي ذكره ابن حزم الاندلسي في جبهة انساب العرب ص ٣٢٧ .

(٤) لعلم اسم بن كعب بن الحارث الذي ذكره ابن حزم الاندلسي في جبهة انساب العرب ص ٣٥٥ .
(٥) هو اسعد بن زرارة بن عدس الخزرجي الانصاري . ويكنى ابا امامة . وهو من اول الانصار اسلاماً . وكان من اصحاب الرسول ، ونقيباً لبني النجار . توفي بالذبح في شوال من السنة الاولى للهجرة .. ترى سيرته في اسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الاثير ج ١ ص ٧١ ، وفي اعيان الشيعة للسيد محمد الامين ج ١١ ص ١٩٦ .

(٦) دي خويه ص ٢٢٨ (عن مخطوطة ميونيخ للاغاني)

(٧) زهر الآداب وثمر الالباب ج ٤ ص ٣٢ .

(٨) سقط الزند ج ٤ ص ١٤٩١ .

(٩) معجم الشعراء ص ٣٧٢ .

(١٠) تاريخ بغداد - ج ١٣ ص ٩٦ .

(١١) سمط الآل - ص ٤٢٧ حيث يذكر مع شيء من التصحيف ان « مسلم بن الوليد مولى ابي قحافة اسعد بن زرارة الخزرجي »

(١٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٨٦ .

(١٣) معاهد التنصيص ص ٣٦٠ .

فما مصدر هذا التضارب؟ وهل من سبيل الى القطع في احد وجهيه؟ وما موقف
الادباء المحدثين الذين درسوا مسلماً منه؟ ... كل هذه اسئلة تتبادر الى الذهن مع
غيرها عندما يستعرض المرء حياة مسلم ويرغب في ان يخرج منها بصورة واضحة
تعينه على دراسته .

وقبل الاجابة عن هذه الاسئلة لا بد لنا من تسليط بعض الاضواء على هذه
القضية لعلها تكشف بعض نواحي الغموض فيها . وفي سبيل هذه الغاية سنعرض
ما يلي :

١- اخبار الرواة في هذا الصدد

٢- اقوال ابن قنبر الشاعر

٣- اقوال مسلم

(١) اخبار الرواة :

(أ) روى ابو العباس المبرّد عن يعتمد عليه في اشعار المحدثين - على حد
قوله - « ان مسلماً كان يمدح من دون الخليفة ولا يطمح فيه ، فكان يقول ارى
نفسي تذوب حسرات من انه يحوي جوائز الخلفاء من لا يوازي في ادب ولا
يماثلني في نسب ولا يصلح ان يكون شعره خادماً لشعري »^(١)

(ب) ظهر (مسلم) ذات يوم فلقبي منصور بن يزيد الحميري بباب الرشيد
فسلم عليه فتحفى به منصور واكرمه ثم دعاه الى ان يقوم بشأنه عند الرشيد
فسأله عن احواله فأخبره بما يصنع لكونه كالياس من قرب الخليفة او ان يعدّ
في مادحيه وان يحري عليه ارزاقه فانه جعل تسليّة ذلك باللهو والشراب
ومحادثة الاخوان . فقال له الحميري : اني سأأتى لوصولك الى الخليفة بعد ان اقرر
عنده من وصفك وقريب نسبك وما يجب لسلفك وتقدمك في الصناعة ما يكون
كافياً عن شعرك ومغنياً عن ذكر فضائلك ... فتقدّم الحميري (من الخليفة)
فقال : يا امير المؤمنين خلّفت بالباب آنفاً رجلاً من اخوالك الانصار متقدماً في
شعره وادبه وظرفه ... الخ »^(٢)

ولعلنا لا نستطيع الاستفادة كثيراً من الرواية الاولى ، ففيها - ان صحّت -

(١) الشيزرى ، جهرة الاسلام - مخطوطة ليدن رقم ٤٨٠ ط ص ٣٨ (عن الدهان ص ٢٩)

(٢) دي خويه ص ٢٧٣ (نقلاً عن جهرة الاسلام للشيزرى ، مخطوطة ليدن)

لا يفعل مسلم شيئاً أكثر من ان يرفع من نسبه بالنسبة لنسب من « يحوي جوائز الخلفاء » ؛ ولا ريب في ان هذا الرفع لا يعني كثيراً ان كان مسلم يقصد بمن « يحوي جوائز الخلفاء » معاصره وزميله ابا نواس الخوزي الدعي بين القبائل ، ومن لف لفه .

اما الرواية الثانية فيفهم منها ان مسلماً كان على الأرجح من الانصار ؛ ولئن صح ان يقال ان الحميري ربما ذكر ذلك في صدد تزيينه مسلماً للخليفة ، صح كذلك ان يقال انه يخشى عقاب الخليفة ان هو لم يصدق الخبر ولا سيما وقد نسب مسلماً الى خوولته .

(٢) اقوال ابن قنبر :

لقد هاجى مسلم آتات حياته شاعراً بصرياً يدعى الحكم بن قنبر ^(١) . وتفصيل ذلك ^(٢) ان الطرمّاح بن حكيم كان قد هجا بني تميم قوم ابن قنبر ورد عليه الفرزدق ؛ غير ان ابن قنبر لم يكتف بذلك بل رد على الطرمّاح بعد موته وهجا الازد وطية . فغضب مسلم من مناقضة ابن قنبر لرجل ميت واثارته الشر بذكر القبائل ^(٣) ، ونظم قصيدة سينية ^(٤) يرد فيها عليه ويفخر بنفسه .

وبعد ان مكث ابن قنبر حيناً لا يحيب مسلماً طلباً للكفاف ^(٥) ، هجا مسلم قريشاً وفخر بالانصار في قصيدة رائية رد عليها ابن قنبر بقصيدة طويلة يحرض فيها الخليفة عليه لتفضيله الانصار على قريش قبيلة النبي . ويقول في هذه القصيدة ^(٦) :

ألا امثلُ أمير المؤمنين بمسلم	وأشف به الاحشاء من كل مجرم
ولا ترجعن عن قتله باستتابة	فما هو عن شتم الرسول بمحرم
ولا عن مساواة له ولقومه	قريشاً بأصداً لعادي وجرم
ويَفخرُ بالانصار جهلاً على الذي	بنصرته فازوا بحظٍّ ومغنم

...

(١) هو الحكم بن قنبر المازني ، مازن بني عمرو بن تميم . وهو شاعر ظريف من شعراء الدولة الهاشمية ، وردت ترجمته في الاغانى ج ١٣ ص ٩ .

(٢) دي خويه ص ٢٥٥ (نقلًا عن مخطوط ميونيخ للاغانى)

(٣) دي خويه ص ٢٥٧ (نقلًا عن مخطوطة ميونيخ للاغانى)

(٤) قصيدة رقم ١٥ من الديوان - دي خويه ص ١٠٦ ، الدهان ص ١٠٣

(٥) دي خويه ص ٢٥٧ (نقلًا عن مخطوطة ميونيخ للاغانى)

(٦) نفسه ص ٢٥٨ .

وما كانت الانصار قبل اعتصامها
ولا بالألى يعلون اقدار قورهم
ولكنهم بالله عاذوا ونصرهم
فعرّوا وقد كانوا فطيون فيهم
يسومهم الفطيون ما لا يسامه
وان قريشاً بالمأثر فضلت
فما بال هذا العليج ضلّ ضلاله
يسامي قريشاً مسلم وهم هم
إذا قام فيه غيرهم لم يكن لهم
جعاسيس أشباه القروذ لو أنهم
وما مسلم من هؤلاء ولا ألى
تولى زماناً غيرهم ثمت ادعى
فإن يك منهم فالنضير ولقهم
وإن تدعنه الانصار مولى أسمعهم
عقاباً لهم في افكهم وادعائهم

بنصر قريش في المحل المعظم
صداء وخولان ولحم وسليهم
قريشاً ومن يستعصم الله يعصم
من الدل في باب من العز مبهم
كريم ومن لا ينكر الظلم يظلم
على الخلق طراً من فصيح وأعجم
يمد إليهم كف أجذم أعسم
بمولى يماني وببيت مهدم
مقام به من لؤم مبني ومدغم
يباعون ما ابتيعوا جميعاً بدرهم
ولكنه من نسل عليج ملكهم
إليهم فلم يكرم ولما يكرم
مواليه لا من يدعي بالتزعّم
بقافية تستكره الجلد بالدم
لأقلف منقوش الذراع موشم

...

قريش خيار الله والله خصهم
ومن تدعى منه الولاء مؤخر

بذلك فاقعس أيها العليج وارغم
إذا قيل للجاري إلى المجد أقدم

فمسلم اذن ، في اعتبار ابن قنبر ، ابن لمولى يماني - والانصار يمينون كما هو
معروف - لا بل هو دون ذلك ، انه عليج من نسل عليج تولى زماناً غير الانصار ثم
ادعى اليهم ، انه مولى آل النضير اليهود لا مولى الانصار ، فان يدعه الانصار
مولى لهم فسيهجوهم هجاءً مقدعاً «عقاباً لهم في افكهم وادعائهم» لهذا «الأقلف
الموشم» ، على حد قوله .

ومن الواضح ان الطريقة التي يعرض فيها ابن قنبر لنسب مسلم ، منها كانت
هذا النسب ، تحمل وراءها حقداً شديداً اضاع على ابن قنبر اتزانة فراح يتخبط
بين ولاء مسلم للانصار وولائه لبني النضير .

ولكن ماذا كان موقف مسلم من هذا التهجم المرير ؟ لقد خشي ان يطلع الخليفة على هجائه لقريش ، آل النبي ، وان يأخذ بتحريض ابن قنبر له في قصيدته فيقتله ، ولذا لم يكن له بد « من الانتقاء منها ونسبتها الى ابن قنبر والادعاء عليه انه الصقها به ونسبها اليه ليعرضه للسلطان . » (١) خاف الخليفة اذن ورد على ابن قنبر بقصيدة (٢) تنصل فيها من هجائه لقريش واقر لها بالسبق بين القبائل ، واتهم ابن قنبر بأنه نخل هذه القصيدة عامداً ليوقع به ، وهجا تيمماً . ولكن الغريب انه لم يتعرض في هذا الرد لما كان ابن قنبر قد اثاره من قضية نسبه ، فهل قصد الى التفاضل ام ان خوفه من الخليفة لهجائه قريشاً ملك عليه لبه فشغله عن طرق هذا الباب ؟

ولعل هذا الموقف الضعيف يقفه مسلم هو الذي اغرى ابن قنبر بالتادي في هجائه فهجاه ثلاث مرات وامسك مسلم . قال في المرة الاولى : (٣)

‘قُلْ لِعَبْدِ النَّضِيرِ مُسْلِمٍ الْوَعْدِ الدَّيْنِ اللَّيْمِ سِنْخِ النَّصَابِ
إِخْسَ يَا كَلْبُ إِذْ نَبَحْتَ فَانِي لَسْتُ مِنْ يُجِيبُ نَبْحَ الْكَلَابِ
أَفَارِضِي وَمَنْصِبِي مَنْصِبُ الْعِزِّ وَبَيْتِي فِي ذُرْوَةِ الْأَحْسَابِ
أَنْ أُحِطَ الرِّفِيعَ مِنْ سَمَكِ بَيْتِي بِمَهَاجَاةٍ أَوْشَبِ الْأَوْشَابِ
مَنْ إِذَا سِيلَ مَنْ أَبُوهُ بَدَا مِنْهُ حَيَاءٌ يَحْمِيهِ رَجْعُ الْجَوَابِ
وَإِذَا قِيلَ حِينَ يُقْبَلُ مَنْ أَنْسَبَتْ وَمَنْ تَعْتَزِيهِ فِي الْأَنْسَابِ
‘قُلْتَ هَاجِي ابْنَ قَنْبَرٍ قَتَبَ رِبْلَتَ بَذِكْرِي فُخْرَ أَلْدَى النَّشَابِ
وقال في الثانية : (٤)

لَسْتُ أَنْفِيكَ إِنْ سِوَايَ نَفَاكَ عَنْ أَيْبِكَ الَّذِي لَهُ مُنْمَاكَ
وَمَاذَا أَنْفِيكَ يَا ابْنَ الْوَلِيدِ مِنْ أَبِي إِنْ ذَكَرْتَهُ أَخْزَاكَ
وَلَوْ إِنِّي طَلَبْتُ أَلَمَ مِنْهُ لَمْ أَجِدْهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ ذَاكَ
لَوْ سِوَاهُ أَبُوكَ كَانَتْ جَعَلْنَا هُ إِذَا النَّاسُ طَاوَعُونَا أَبَاكَ
حَاكَ دَهْرًا بَغِيرَ حَذَقٍ لِبُرْدٍ وَتَحَوَّكَ الْأَشْعَارُ أَنْتَ كَذَاكَ

(١) دي خويه ص ٢٦٠ (نقل عن مخطوطة ميونيخ للاغاني)

(٢) نفسه ص ٢٦٠

(٣) دي خويه ص ٢٦١ (نقل عن مخطوطة ميونيخ للاغاني)

(٤) نفسه ص ٢٦١

وقال في الثالثة : (١)

فَخَرَّ الْعَبْدُ عَبْدُ قِنْ (٢) الْيَهُودِ بِضَعِيفٍ مِنْ فَخْرِهِ مَرْدُودٍ
فَاخَرُ الْغُرِّ مِنْ قُرَيْشٍ بَاخُوا نِ خَنْزِيرٍ يَثْرِبُ وَالْقُرُودِ
يَتَوَلَّى بَنِي النَّضِيرِ وَيَدْعُو بِهِمُ الْفَخْرَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ
وَبَنِي الْاَوْسِ وَالْخَزَارِجِ فِي الذُّ لٌ عَلَى سَالِفِ الزَّمَانِ التَّلِيدِ
إِذْ رَضُوا بِاقْتِضَاضِ فِطْيُونٍ مِنْهُمْ كُلُّ بِكْرٍ رَّبًّا الرُّوَادِفِ رُودِ
وَبَنُو عَمَّهَا شُودٌ لِمَا يَفْعَلُ فِطْيَ ——— وَنُ قُبْحُوا مِنْ شُودِ
خَلْفَ بَابِ الْفِطْيُونِ وَالْبَعْلُ فِيهِمْ لَا يَذِي غَيْرَةً وَلَا بِنَجِيدِ
فَإِذَا مَا قَضَى الْيَهُودِيُّ مِنْهَا وَطَرَأُ قُنْعُوا بِخِزْيِ جَدِيدِ

وفي هذه المقطوعات الثلاث يذكر ابن قنبر :

- ١ - ان مسلماً عبد لبني النضير اليهود او عبد لقننهم .
 - ٢ - انه مولى لبني النضير وبني الاوس والخزرج - ولعله يقصد بالتوالي .
 - ٣ - ان هؤلاء مغموز في شرفهم .
 - ٤ - انه ابن لاب وضع يتهرب من ذكره .
- وهنا ، كما في قصائد ابن قنبر السالفة ، نلاحظ شدة انفعال ابن قنبر وعظم حقه واضطراب تهمة .
- وقد نجم عن هذه المهاجاة بين مسلم وابن قنبر روايتان على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لنسب مسلم :
- الاولى تقول : (٣)

« اخبرني الحسن بن علي قال حدثني محمد بن القاسم بن مهرويه قال حدثني علي ابن عبيد الكوفي قال حدثني علي بن عمرو بن الانصاري قال جاء رجل من الانصار ثم من الخزرج الى مسلم بن الوليد فقال له ويلك مالنا ولك قد فضحتنا واخزيتنا تعرضت لابن قنبر فهاجيت به حتى اذا امكنته من اعراضنا انخزلت عنه

(١) دي خويه ص ٢٦٢ (نقلاً عن مخطوطة ميونيخ للاغاني)

(٢) القن عبد مئلك هو وابواه .

(٣) دي خويه ص ٢٥٣ (نقلاً عن مخطوطة ميونيخ للاغاني)

وارعيت له لومنا فلا انت سكت ووسعك ما وسع غيرك ولا انت لما انتصرت انتصفت فقال له مسلم : فما اصنع فانا اصبر عليه فان كف والا تحملت عليه باخوانه فان كف والا وكلته الى بغيه ولنا شيخ يصوم الدهر ويقوم الليل فان اقام على ما هو عليه سألته ان يسهر له ليلة يدعو الله عليه فيها فانها تهلكه فقال له الانصاري سخنت عينك بهذا تنتصف ممن هجاك ثم قال له :

قد لاذ من خوف ابن قنبر مسلم
ورأيت شر وعيدِه ان يشتكي
تكلتك أمك قد هتكت حريمنا
عممت خزر جنا ومعشر أو سنا
فعليك من مولى وناصر أسرة
بدعاء والدِه مع الأسحار
ما قد عراه الى اخ أو جار
وفضحت اسرتنا بني النجار
خزيًا جنيت به على الانصار
وعشيرة غضب الاله الباري

قال فكاد مسلم ان يموت غماً وبكى وقال له انت شر علي من ابن قنبر.. الخ.

والثانية تقول : (١١)

« فلما افحش (ابن قنبر) في هذه القصيدة (١٢) وفي عدة قصائد قالها ومسلم ممسك عنه لا يجيبه بشيء مشى اليه قوم من مشايخ الانصار واستعانوا بمشيخة من قراء تميم وذوي الفضل والعلم منهم فمشوا معهم اليه فقالوا له الا تستحي من ان تهجو من لا يحبك ، انت بدأت الرجل فأجابك ثم عدت فكف وتجاوزت ذلك الى ذكر اعراض الانصار التي كان رسول الله ﷺ يحميها ويذب عنها ويصونها لغير حال احلت لك ذلك منهم فما زالوا به يعظونه ويقولون له كل قول حتى امسك عن المناقضة لمسلم فانقطعت . »

والذي يعنيننا من امر هاتين الروايتين اهتمام الانصار بأمر المناقضات بين الرجلين . ففي الرواية الاولى يلوم رجل منهم مسلماً على كفه من مهاجمة ابن قنبر بعد ان باداه بذلك ومكّن له من اعراض الانصار . وفي الرواية الثانية يستعين بعض مشايخهم ببعض مشايخ تميم وعلمائهم ويذهبون الى ابن قنبر ليرجوه الكف عن مناقضة مسلم .

وليس في مثل هذا المسلك من قبل الانصار ما يثير الدهشة ، فمن الطبيعي ان يثوروا لهجاء ابن قنبر لهم وان يتلمسوا شتى الوسائل للرد على هذا الهجاء او

(١) دي خريه ص ٢٦٢ (نقل عن مخطوطة ميونخ للاغاني ج ٥)

(٢) الرائية التي مطلعها : فخر العبد عبد قن اليهود بضعيف من فخره مردود

إيقافه . ولكن الذي يثير الدهشة حقاً هذه الأبيات الشعرية التي لحقت بالرواية الأولى والتي يعنف فيها انصاري مسلماً ويذكر أنه مولى للانصار . والواقع أنني لا اطمئن إلى تفاصيل هذه الرواية ، والراجح عندي أن لها أصلاً استغله أحد أعداء مسلم ، ولعله ابن قنبر ، لفصله عن الانصار وإثبات ولائه فيهم . ولعله ليس عبثاً أن نسبت القصة إلى انصاري خزرجي وأسندت روايتها إلى انصاري ثم إلى كوفي . ومما يؤيد ذلك ورود هذه الحادثة ذاتها على شكل آخر يرويها صاحب الأغاني كما يلي: ^(١) « ونسخت هذا الخبر من كتاب جدي يحيى بن محمد بن ثوبة بخطه قال حدثني الحسن بن سعيد قال حدثني منصور بن جهور قال لما هجا ابن قنبر مسلم ابن الوليد أمسك عنه مسلم بعد أن أشلى عليه لسانه قال فجاءه ابن عم له فقال له يا هذا الرجل أنك عند الناس فوق ابن قنبر في عمود الشعر وقد بعث عليك لسانه ثم أمسكت عنه فاما أن قارعتة أو سألته فقال له مسلم أن لنا شيخاً وله مسجد يتعبد فيه وله بين ذلك دعوات يدعو بهن ونحن نسأله أن يجعله من بعض دعواته فأثماً نكفاه فأطرق الرجل ساعة ثم قال :

عَلِبَ ابْنُ قَنْبَرٍ وَاللَّيْمُ مُغْلَبٌ لَمَّا اتَّقَيْتَ هِجَاءَهُ رِدْعَاءِ
مَا زَالَ يَقْدِفُ بِالْهَجَاءِ وَلَكَذَعِهِ حَتَّى اتَّقَوْهُ بِدَعْوَةِ الْآبَاءِ
قال فقال له مسلم والله ما كان ابن قنبر يبلغ مني هذا كله فأمسك لسانك عني وتعرف خبره بعد هذا ... الخ »

ومما هو جدير بالذكر أن صاحب الأغاني يروي هذا النص الأخير للحادثة بعد روايته للنص الأول لها مباشرة ليبريء ذمته . ولعل هذه الرغبة في تبرئة الذمة نفسها تشعرنا بعدم اطمئنان الأصبهاني إلى النص الأول اطمئناناً كافياً .

٣ . أقوال مسلم :

لم يصلنا من أقوال مسلم في نسبه غير أبيات قليلة ، ولا أدري أذلك لقلة ما نظم في هذا الباب أم لكثرة ما فقد من شعره . وفي الديوان الذي بين أيدينا ثلاث مواطن يذكر فيها نسبه :

الأول : في القصيدة الخامسة عشرة التي يرد فيها على هجاء ابن قنبر فيقول ^(٢) :

(١) دي خويه ص ٢٥٤ (نقل عن ج ٥ من مخطوطة ميونيخ للأغاني)

(٢) نفسه ص ١١١

إِنَّ كُنْتُ^(١) نَازِلَةَ الْيَفَاعِ فَجَنَّبِي
 وَتَجَنَّبِي الْخُمْرَاءَ^(٢) إِنَّ سَيُوفَهُمْ
 رَفَعَتْ بَنُو النَّجَارِ بَيْتِي فِيهِمْ
 هَلْ طِيءَ الْأَجْيَالِ شَاكِرَةٌ أَمْرِي
 وَحَمِي^(٣) أبا نَفَرٍ^(٤) عَظَامَ حَقِيرَةٍ
 كَفَأَتْ نَعْمَتَهَا بِفَضْلِ بِلَائِهَا
 وَإِذَا افْتَخَرْتُ عَدَدْتُ سَعْيَ مَأْثَرِ
 فَأَعْقِلْ لِسَانَكَ عَنْ شَتَائِمِ عِرْضِنَا
 أَخْلَقْتَ فَخْرَكَ مِنْ أَيْكَ فَجَنَّبَنِي
 دَارَ الرَّبَابِ وَخَزَرْجِي أَوْ أَوْسِي
 حُدْتُ^(٥) وَإِنْ قَنَاتَهُمْ لَمْ تَقْصُرْ
 ثُمَّ انْتَمَيْتُ فَأَفْسَحُوا فِي الْمَجْلِسِ
 ذَادَ الْقَوَافِي عَنْ حِمَاهَا الْأَقْعَسِ
 دَرَسَتْ وَبَاقِي عَزَّهَا لَمْ يَدْرُسْ
 ثُمَّ انْفَرَدْتُ بِمَنْصِبٍ لَمْ يَدْنَسْ
 قَصَرْتُ عَلَى الْإِغْضَاءِ طَرْفَ الْأَشْوَسِ
 لَا يَعْلَقَنَّكَ خَادِرٌ^(٦) مِنْ مَأْنَسٍ^(٧)
 بِأَبٍ جَدِيدٍ بَعْدَ طَوْلٍ تَلْمُسِ

وهنا نرى الشاعر ينسب نفسه الى بني النجار من الانصار ، غير انه يلاحظ ان هذا النسب قد ورد على شيء من الغموض في البيت الثالث وان هذا الغموض قد امتد في البيت السابع بحيث لم يخبرنا الشاعر ان كان افتخاره هو بعده لمآثره الشخصية ام بعده لمآثر اجداده. ولئن كان مفسر الديوان يزيل هذا الغموض من اذهاننا بنسبة الشاعر الى الانصار ونسبة السعي الى اجداده ، فمن الواضح ان تفسيره هذا لا ينفي وجود الغموض في النص .

والثاني : في قصيدة يهجو فيها قريشاً ويفخر بالانصار فيقول^(٨) :

فَاخْرَجْنَا لَمَّا بَسَطْنَا لَهَا الْفَخْرَ — رَ قَرِيشٌ وَفَخْرُهَا مُسْتَعَارُ
 ذَكَرْتُ عِزَّهَا وَمَا كَانَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَسْتَجِيرَنَا مُسْتَجَارُ
 إِنَّمَا كَانَ عِزُّهَا فِي جِبَالِ تَرْتَقِيهَا لَمَّا تَرَقَّى الْوَبَارُ
 أَيْهَا الْفَاخِرُونَ بِالْعِزِّ وَالْعِزُّ لِقَوْمٍ سِوَاهُمْ وَالْفَخَارُ
 أَخْبَرُونَا مِنَ الْاعْزُ الْأَمْنَصُو رُ حَقَّ اعْتَلَى أَمْرُ الْأَنْصَارُ

(١) يخاطب سحابة .

(٢) لعلها الخُمْرَاءُ (راجع هامش ص ١١٢ من دي خويه) ، والخُمْرَاءُ ، الاعاجم والموالي

(٣) في الاغاني أحمي

(٤) كنية الطرماح

(٥) اسد

(٦) اسم موضع

(٧) دي خويه ص ٢٥٨ (نقلاً عن مخطوطة ميونخ للاغاني) ، الدهان ص ٣٨٨ (عن مخطوطة

دار الكتب للاغاني)

فلنا العزُّ قبلَ عزِّ قريشٍ وقريشٌ تلكَ الدهورَ تجارٌ
ويتضح من هذه القصيدة ان مسلماً يفخر بالانصار ويعتبر نفسه منهم ، في
غير غموض ولا لبس .

والثالث : في القصيدة التاسعة من الديوان حيث يقول :^(١)

سَعَتُ ألسُنُ الواشينَ فيما يَعِيبُنِي وهل كنتُ إلا ماجداً عابهُ وُغدُ
وكم عائبٍ لي ودَّ أُنِي ولدتهُ ولو كَرَّمَتُ أعراقهُ وزكا لأصلُ
وأني قَصِي الرِّحْمَ مَجْدِي لِغَيْرِهِ فعابَ وما آلى وَمِنْ دُونِهِ سَدَلُ

وهنا يشعر المرء وهو يقرأ هذه الابيات بأمرين على الأقل : الاول ان هنالك
هالة من الغموض تحيط بالنص ، هالة كثيفة لا يقوى المفسر والقارىء معاً على
تخطيها . والثاني ان من خلال هذا الغموض يبدو ميل للحيد عن الافصاح عن
نسب الشاعر . ولا ندري ان كان مسلم يزيل هذا الغموض فيما بعد ويفصح عن
نسبه في ما سقط من الابيات مما يلي هذه .

...

ولعلنا نستطيع الآن ان نضع اصبعنا على مصدر الخلاف في نسب مسلم بعد
ان استمعنا الى الروايات التي وصلت اليها في ذلك . فقد ادعى ابن قنبر بأن
خصمه مسلماً هو من الموالي ورد مسلم بانه نجاري أنصاري ، ثم جاء الرواة وسلكوا
سبيلين مختلفين لا سبيل الى التوفيق بينها ، وكان ابرز الروايات في هذا الصدد
رواية الاصبهاني التي تقول بولائه ورواية ابن قتيبة التي تذكر انه من ابناء الانصار .

وقد بحث عن مسلم حتى الآن نفر قليل من الادباء المحدثين والمستشرقين ولم
يقطعوا برأي جازم موحد في هذا الامر ، فدي خويه الذي كان اول من نشر
ديوان مسلم عام ١٨٧٥ يتغاضى عن هذه القضية تغاضياً كلياً في المقدمة اللاتينية
التي كتبها لهذا الديوان ، وكذلك يفعل بروكلمان في كتابه عن تاريخ الادب
العربي^(٢) وذيله . اما كراتشكوفسكي الذي كتب عنه في الموسوعة الاسلامية^(٣)
فيكتفي بان يذكر ان والد مسلم كان مولى للانصار دون ان يذكر وجهة النظر

(١) الديوان . نشر دي خويه . ص ٧٧

(٢) Brockelmann-Geschichte Der Arabischen Litteratur, 1943 P. 76 & Supplement Vol. I, p. 118.

(٣) Encyclopaedia of Islam (Muslim ibnu'l-Walid)

الثانية ودون ان يذكر من الحجج ما اعتمد عليه في تقرير وجهة نظره ، وعلوان يرجح انه كان من موالي الانصار لا من ابنائهم^(١) ؛ وسلطان يعتمد قول ابن قنبر بأن مسلماً علج من نسل علج ويرى في ذلك ما يدل على انه كان فارسي الاصل^(٢) ؛ والدكتور الدهان الذي نشر طبعة جديدة لديوان مسلم يكتفي بذكر وجهتي النظر تينك دون ان يدلي برأيه فيها^(٣) .

ويخيل اليّ ان هناك امرين يجعلان القطع بحكم في هذه القضية صعباً :
الاول ان مسلماً قضى السنوات الاخيرة من حياته يعمل في جرجان بعيداً عن العراق ، حيث توفي عام ٢٠٨ للهجرة . وفي هذه الحقبة الاخيرة من حياته كان خصومه في البصرة وبغداد ، وربما في الكوفة ، في مأمن منه يستطيعون تزويد الرواة بما يطيب لهم ان يزودهم به من اخباره دون ان يروا في ذلك حرجاً ، ودون ان يشعروا بأن مسلماً البعيد عنهم يستطيع ان يكيل لهم الصاع صاعين . . فليس بغريب اذن ان يتمكن هؤلاء الخصوم من ان يفتشوا عليه حينذاك ويروجوا لولائه فيختلط الامر على الرواة ، او على بعضهم على الاقل .

والثاني ان عصر مسلم هو عصر اختلطت فيه الانساب وكثر الادعاء . والسبب في ذلك الحرج الذي اخذ يشعر به الموالي على اثر اشتداد الحركة المناوئة للشعبوية ، ذلك الحرج الذي كان له اثر مربك عند اولئك الموالي الذين كانوا يطمحون في ان ينالوا حظوة عند خليفة او امير او يطمعون في ان يروا شعرهم يسير على السنة العرب ، بصورة خاصة .

وكتب الادب مليئة باخبار هؤلاء الادعاء ، فقد روي انه^(٤) « كان لعلي بن الحليل الكوفي^(٥) صديق من الدهاقين^(٦) يعاشره ويبره فغاب عنه مدة طويلة وعاد الى الكوفة وقد اصاب مآلاً ورفعة وقويت آحواله فادعى انه من بني تميم فجاءه علي بن الحليل فلم يأذن له ولقيه فلم يسلم عليه فقال يهجو :

يَروحُ بنسبةِ المولى وَيُصْبِحُ يدَّعي العَرَبَا

(١) علوان ، حسن - صريع الغواني مسلم بن الوليد ص ١٤ .

(٢) سلطان ، محمد جميل - صريع الغواني - دراسة اخباره واشعاره ص ١٣ .

(٣) الدهان ، الدكتور سامي - شرح ديوان صريع الغواني ص م ١١ .

(٤) الاغاني ط . بولاق ج ١٣ ص ١٨ .

(٥) وكان مولى لمعن بن زائدة الشيباني .

(٦) جمع دققين وهو رئيس اقليم او تاجر .

فلا هذا ولا هذا لك يُدركه إذا طلبا

...

جَحَدَتْ اَبَاكَ نِسْبَتَهُ وأرجو ان تقيّد أبا

وروي ان القاسم بن يوسف كان يدّعي انه من بني عجل المقيمين بسواد الكوفة وهو مولى لهم .^(١) « وكان اسحق بن مرار الشيباني مولى لبني شيبان وليس منهم »^(٢) . حتى أبو نواس الشديد التعصب لفارسيته « انتسب مضرباً ، ثم هجا مضر ، وانتسب يمانياً من قبيلة حكم من سعد العشيرة ، واقتخر باليمن ، ثم اعترف انه من مواليتهم »^(٣) .

ومها يكن الامر ، فلئن كان من المتعذر الآن القطع برأي حاسم في قضية نسب مسلم فان مجال الترجيح فيها لا يزال قائماً . وعلى ذلك فأنني ارى ان من الممكن ترجيح انصاريته على ولائه^(٤) للأسباب التالية :

١ . ان ما جاء عن ولائه في شعر ابن قنبر لا يمكن ان يعتمد عليه من الناحية العلمية لانه جاء في معرض هجاء حاقد . اصف الى ذلك ان سيرة ابن قنبر لا تشجعنا على اعتماد اقواله ، وهو الذي يقول :

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذِمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ^(٥)

٢ . ان رواية الاصبغاني التي تقول : « ... أبوه الوليد مولى الانصار ثم مولى أبي أمامة اسعد بن زرارة الخزرجي » لا يمكن اعتمادها ايضاً ، وذلك للسببين التاليين :

أ - ورود خطأ فيها ، إذ تذكر كتب السير ان اسعد بن زرارة الخزرجي توفي في السنة الاولى للهجرة .^(٦) ولدينا من الدلائل ما يمكن معه حصر ولادة

(١) ياقوت ، معجم الادباء ج ٥ ص ١٦١ .

(٢) نفسه ج ٦ ص ٧٨ .

(٣) احمد امين ورفاقه - المفصل في الادب العربي ج ١ ص ١٧٩ .

(٤) المولى هو المسلم من غير العرب ، اذا انتسب الى رجل عربي او قبيلة عربية كان له على من ينتسب اليه حق الحماية وعليه حق المناصرة .

(٥) الاغانى ج ١٣ ص ١١

(٦) راجع ابن الاثير - اسد الغابة في معرفة الصحابة ج ١ ص ٧١ ، وعسن الامين - اعيان

الشيعة ج ١١ ص ١٩٦ .

مسلم بين سنتي ١٣٠ ، ١٥٠ للهجرة على ابعد تقدير .^(١) ويؤخذ من حديث مناقضات مسلم مع ابن قنبر ان والد مسلم كان حياً يتجهد في مسجده خلال تلك المناقضات او خلال جزء منها على الاقل . فلو فرضنا ان عمر مسلم كان حوالي العشرين آنذاك لقرتب على ذلك ان يكون والده قد عمر من ١٥٠ الى ١٧٠ سنة تقريباً حتى يصح افتراض ولائه لاسعد بن زرارة . ومن الواضح ان ذلك بعيد الاحتمال ، ويترتب عليه انتفاء الشق الثاني من رواية الاصبهاني . واثن كان انتفاء هذا الشق لا يحتم بالطبع انتفاء الشق الاول من الرواية فانه لا ريب يضعفه باعتبار ان الشقين جاءا متلازمين متضافرين .

ب - بعد عهد صاحبه عن عهد مسلم بالنسبة لابن قتيبة : فقد توفي مسلم سنة ٢٠٨ هـ وتوفي الاصبهاني سنة ٣٥٦ هـ ، اي بعد ذلك بمئة وثمان واربعين سنة قضى خلالها جيلان من الناس . ويعني هذا ان اخبار الاصبهاني عن نسب مسلم جاءت اما رواية عن طريق آخرين لم يعرفوا مسلماً ولم يعاصروه ، او كتابة عن طريق كتاب الف في هذه الحقبة ولا نعرف مدى تحري صاحبه للحقيقة . وفي كلا الحالتين تكون اخباره اقرب الى الشك من اخبار اديب آخر عاصر معظم معاصري مسلم وعرف بالصدق وعدم الاغراض كابن قتيبة مثلاً .

٣ . ولد ابن قتيبة الذي يقول بأنصارية مسلم سنة ٢١٣ هـ اي بعد وفاة مسلم بخمس سنين فقط ، ولذا فقد عاصر أناساً عاصروا مسلماً وعرفوه معرفة حقيقية ، وتوفرت لديه الظروف التي تمكّنه من الاطلاع على حقيقة الأمر . ولدينا من الدلائل ما يثبت انه اتصل بدعبل واستمع اليه^(٢) ، ودعبل ، كما هو معلوم ، تلميذ مسلم وصديقه ومن اكثر الناس معرفة به . ومن المعروف ان دعبل زار مسلماً في جرجان في اواخر حياته ناشداً رفده ، الا ان مسلماً لم يلتفت اليه فارتد غاضباً الى بغداد . ولو كان مسلم مولى حقاً لكان من الراجح ان يستغل دعبل الناقم ذلك فيروج له في شعره او يحدث به ابن قتيبة ولا سيما انه لا يعرف التوقر ولا يتورع عن هجاء اقرب الناس اليه . وليس في سيرة دعبل ولا في ما

(١) راجع : ١ . المقدمة اللاتينية لدي خويه ص ٥ .

٢ . مقدمة الدهان ص م ١٤ .

٣ . علوان - صريع الغواني ص ٢٧

٤ . بحثنا عن مولده « ص ٦١ »

(٢) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٨٢٧ .

رواه ابن قتيبة ما يشعر بذلك .

٤ . عرف عن ابن قتيبة الدقة في طلب الحقائق شأن علماء الحديث . ولقد شهد له بذلك ابن خلكان اذ قال عنه انه « كان فاضلاً ثقة » (١) .

ولا يعني هذا بالطبع الخط من قيمة روايات صاحب الاغانى بصورة عامة ، فابن خلكان نفسه يمتدحه ويقول عنه انه « كان عالماً بأيام الناس والانساب والسير » (٢) ، ولكن الذي اخشاه هو ان يكون قد اعتمد في روايته هذه على اغاني اسحق بن ابراهيم الموصلي وورّاقه (٣) وهي من المراجع التي اخذ عنها في اغانيه (٤) ، والمعروف ان والد اسحق كان مولى لبني تميم (٥) قوم ابن قنبر الذين هجّاهم مسلم ، والمعروف كذلك ان كتاب اسحق « فيه تسمية القوم ونسبهم وبلادهم ، واسبابهم وازمنتهم ، وما اختلفوا فيه من غنائهم ، وبعض احاديثهم ، واحاديث قيان (٦) الحجاز والكوفة » (٧) . . .

٥ . هجا مسلم العباس بن الاحنف فقال :

بنو حنيفة لا يَرْضَى الدَّعِيُّ بِهِمْ فَاَتَرُكَ حَنِيفَةً وَاَطْلُبُ غَيْرَهَا نَسَبًا
واذهبْ الى عَرَبٍ تَرْضَى بِنَسَبِهِمْ إِنِّي أَرَى لَكَ وَجْهًا يُشَبِّهُ الْعَرَبَا

ولو كان مسلم مولى حقاً لكان من الأرجح ان لا يتعرض لقضية النسب في الهجاء وهو البادىء به ، ولكن من المستبعد ان يتهم على العباس بقوله : « اني أرى لك وجهاً يشبه العربا . »

٦ . يذكر الحصري بشكل واضح لا يقبل التأويل ان مسلماً كان « انصارياً صريحاً » (٨) . وعلى الرغم من اننا لا نود ان نبالغ في اهمية هذا القول لتأخر

(١) وفيات الاعيان . ط . مصر ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٢) نفسه .

(٣) ياقوت ، معجم الادباء - ط . مصر ج ٦ ص ٥٧ .

(٤) خلف الله - صاحب الاغانى ص ٥٥ - ٦١ .

(٥) الاغانى ج ٥ ص ٣ .

(٦) في نسخة اكسفورد قتيان .

(٧) ياقوت ، معجم الادباء ط . مصر ج ٦ ص ٤٩ .

(٨) زهر الآداب وثمر الالباب ج ٤ ص ١٣٢ .

صاحبه ^(١) نسبياً ، ولما ثبت لنا من امكانية اعتياده على ابن قتيبة في هذا الصدد او اشتراكه واياه في المصدر لتشابه في نصوصها اللاحقة ، فانه يصح ان يتخذ منه بيّنة تتداعى والبيّنات الاخرى .

وقد يقال ان اكثر الادباء القدامى الذين ذكروا نسب مسلم قالوا بولائه بشكل واضح لا يقبل التأويل ايضاً . غير ان الواقع هو ان الكثرة لا قيمة لها في مجال الحكم العلمي ، فقديماً كان اكثر الناس - ان لم يكن كلهم - يقولون باستحالة تجزئة الذرة وكانوا جميعاً مخطئين . هذا فضلاً عن ان مقارنة نصوص هؤلاء الادباء بنص الاغانى يثبت انهم استقوا مادتهم في هذا الامر إما من الاغانى او من مصدر آخر أخذ عنه صاحب الاغانى .

والنتيجة ان قضية الترجيح في نسب مسلم ستبقى قائمة الى ان تتوفر لنا أدلة جديدة تمكننا من الحكم القاطع في أمره .



(٢) توفي الحصري سنة ١٤٥٣ هـ .

أسرته

ليس في ما تحدّر الينا من روايات عن مسلم ، ولا في ما وصل الينا من شعره ، ما يعطينا صورة واضحة عن أسرته . فليس هناك نص مثلاً يشير الى والدته او الى أعمامه وخؤولته . وليس هناك نص أيضاً يشير الى علاقات هذه الأسرة بغيرها من الأسر بحيث نستطيع أن نستنتج منه مركز الأسرة وكيانها في المجتمع الكوفي . وكل ما وصل الينا عن هذه الأسرة لا يعطينا سوى صورة ناقصة هي على جانب كبير من الاضطراب والغموض .

فوالده ، الوليد ، كان من الانصار في رواية ، او من مواليهم في رواية اخرى . ولئن استطعنا ان نرجّح احدى الروایتين على الاخرى كما سبق ، فاننا لا نستطيع في الواقع ان نخرج برأي قاطع في هذه القضية .

ويذكر ابن قنبر في قصيدة له يهجو بها مسلماً ان الوليد هذا كان حائكاً^(١) . ومن الواضح اننا لا نستطيع ان نطمئن الى هذه الرواية لانها جاءت في معرض الهجاء أولاً ، ولان الغرض من ايرادها قد يكون رغبة ابن قنبر في اثبات ولاء مسلم في الانصار ، اذ المعروف ان العرب كانوا يستنكفون لذلك العهد من العمل في المهن الحرة ومنها الحياكة .

ويبدو ان الوليد كان ورعاً يتعهد في المسجد وهو شيخ ، ويبدو كذلك ان مسلماً كان يحبه ويعتبره مثلاً للصلاح والتقوى ، فقد روي انه شاء ان يستعين بدعواته في سبيل التخلص من هجاء خصمه ابن قنبر .^(٢)

ويذكر الجاحظ^(٣) وابن رشيق^(٤) انه كان لمسلم اخ^(٥) ضرير اسمه سليمان . وقد روي عن سليمان هذا انه كان يختلف الى بشار ويتأثر به ولذا فقد غدا مغموراً في مذهبه ودينه ، كما روي عنه انه كان ينظم الشعر وانه كان منقطعاً

(١) مخطوطة ميونيخ للاغاني (دي خويه ص ٢٦٢) .

(٢) الاغاني ج ١٣ ص ٩ .

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٣١ ، ٣٢ ، والحيوان ج ٤ ص ١٩٥ .

(٤) المعمد ج ٢ ص ٢٩١ .

(٥) في نكت الهميان ص ١٦٠ يذكر انه ابن مسلم . وفي معجم الادباء (ط . دار المأمون) ج ١١ ص ٢٥٥ يقول انه ابن مسلم ايضاً ويذكر ملازمته لبشار ويروي بعض شعره ويقول انه كان متبهاً بدينه وانه مات سنة ١٧٩ هـ .

واخاه مسلماً الى يزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد ثم الفضل بن سهل
بعد ذلك . (١)

ويفترض الدكتور الدهان في مقدمته (٢) لديوان مسلم ان يكون سليمان هذا
اكبر سناً من اخيه باعتبار انه توفي قبله . وقد يكون هذا صحيحاً على الرغم من
ان الدليل الذي اورده لا يمكن الاعتماد عليه في وضع افتراض كهذا .

وسواء أكان أكبر من مسلم أم أصغر منه ، فان انقطاعها معاً لمدح بعض
الاعلام يدل على تقارب في السن بينهما في الغالب . ولعل هذا التقارب يتيح لنا
الافتراض بأن سليمان هذا كان ذا اثر في اشاعة جو شعري في البيت استفاد منه
مسلم ابان نشأته ، ولعله كان ايضاً الواسطة التي انتقل عن طريقها اثر بشار
الى اخيه .



(١) دي خويه ص ٢٢٩ (عن مخطوطة ميونيخ للاغاني)

(٢) الدهان ص ١٢٠ .

مولده

ولد مسلم في الكوفة في سنة اغفلتها كتب التراجم ولا سبيل الى معرفتها الآن على وجه التحقيق . غير انه تحدت الينا رواية يمكن عن طريقها تقدير هذه السنة بوجه تقريبي . فقد ذكر صاحب العقد^(١) ، رواية عن العتي ، ان الرشيد طلب من مسلم ان يسمعه قصيدة رواها له وهو صغير . فان صحت الرواية كان من الممكن الافتراض ان مسلماً لا بد ان يكون اكبر سناً من الرشيد بما لا يقل عن خمس سنوات الى عشر حتى يصبح من الممكن ان يروي الرشيد شعره وهو صغير . ولما كان الرشيد قد ولد سنة ١٤٨ هـ كان من الممكن الافتراض ان مسلماً ولد حوالي سنة ١٣٨ - ١٤٣ هـ^(٢) على اقل تقدير .

ولعل هذا التقدير ليس بعيداً عن الصواب اذ انه لا يتعارض مع تفسير بعض الروايات التي وصلت الينا عنه : فقد روي انه « كان قد خرج من الشباب ونزقه ولم يكن في عداد من اضطرب حياءً وله فهم وتجربة وتميز ومعرفة » حين اتصل بالرشيد لأول مرة^(٣) . ومن المعلوم ان الرشيد تولى الخلافة سنة ١٧٠ هـ ، وان مسلماً كان يتحرق في بادئ الامر للدخول عليه^(٤) الى ان ادخله منصور بن يزيد الحميري^(٥) . فلو فرضنا انه تمكن من الدخول عليه حوالي سنة ١٧٢ هـ لكان عمره آنذاك يتراوح بين ٢٩ ، ٣٤ سنة ، وهو عمر يمكن ان تنطبق على صاحبه الصفات المذكورة آنفاً .

(١) ابن عبد ربه ج ٢ ص ١٨٢ .

(٢) يقدر دي خويه ان سنة ولادته هي بين ١٣٠ - ١٤٠ هـ (المقدمة اللاتينية للديوان) ويقدرها علوان بسنة ١٣٨ هـ (علوان ص ٢٨) . ويذكر الدهان ان الباحثين من العرب رأوا انه ولد بين (سنة ١٤٠ - ١٥٠ هـ) ولكنه يفترض انه ولد حوالي سنة ١٤٠ هـ (الدهان ص ١٤٠) .

(٣) دي خويه ص ٢٧٥ (عن مخطوطة ليدن لجمهرة الاسلام للشيزري) .

(٤) نفسه ص ٢٧٣ .

(٥) نفسه ص ٢٧٤ .

نشأته وثقافته

على الرغم من انه لم يصلنا شيء عن نشأة شاعرنا سوى ما ذكره صاحب الاغاني من انه نشأ في الكوفة ^(١) ، وانه نشأ فقيراً ^(٢) ، فاننا لا نتوقع ان تكون هذه النشأة مغايرة لما يمكن ان تفرضه بيئة الكوفة على ابنائها في ذلك العهد . فلا بد انه كان كغيره من الناس يطوف منذ صغره شوارع المدينة فيرى فيها نماذج متغايرة من البشر : هذا فقيه يعن في التزمّت والحرص ، وذلك ماجن يسرف في تلمس وسائل اللهو والمرح ، وآخر بين بين يأخذ من حياة الوقار بقسط ويأخذ من حياة المجون بقسط آخر ثم يزواج بين القسطين ليحيا حياة اعتدال ، لا يميل فيها نحو هذا الجانب او ذاك . يرى ذلك فتساور نفسه نوازع متضاربة ليس لأي منها ان تستقر في نفسه قبل ان تتاح لها فرص للتمكن من هذه النفس .

ولا بد انه كان يتردد ايضاً على كناسة المدينة فيرى مع غيره من الصبية الرجال وهم يزعمون رواحلهم استعداداً للسفر او ينيخونها اثر سفرات طويلة مضنية ، ويصغي وائرابه بشغف الى من يتحدث من هؤلاء عن مشاق السفر واهواله او احوال البلاد المختلفة التي يقصدون اليها او يفدون منها . ولعله كان يحسن الاصغاء حين كان يرى في الكناسة شاعراً ينشد شعراً ^(٣) ، بعد ان جعل الكوفيون من هذا المكان « مربداً » لمدينتهم .

ونرجح ان يكون والده قد ارسله في هذه المرحلة من حياته الى احد كتاتيب المدينة ، شأن الكثيرين من اهل عصره ، فتلقى هناك دروسه الاولى في علوم اللغة والدين . ومن الطبيعي ان هذا الوالد التقويّ الورع كان يشجعه بعد ذلك على أمّ مسجد المدينة الكبير حيث يرجح ان تكون قد اتاحت له فرص للالتحاق ببعض حلقاته والاسماع الى ما كان يقال في هذه الحلقات من امور لغوية ودينية وما كان يتلى فيها من شعر . ويبدو انه كان كثير الميل الى الاسماع الى رواة الشعر وهم يروون شعر الفحول من الشعراء كأمريء القيس

(١) مخطوطة ميونخ للاغاني (دي خويه ص ٢٢٨) .

(٢) جاء في اخبار دعبل (الاغاني ج ١٨ ص ٣٦) انه « كان ينام هو ومسلم بن الوليد في ازار واحد لا يملكان غيره » .

(٣) راجع معجم الادباء ج ٧ ص ١٠٠ .

والنابغة والاعشى وزهير وذو الرمة وعمر والاختل والفردق والحطيئة وغيرهم ، ولا بد أنه روى الكثير مما سمع من شعر قبل ان ينظم ، فرواية الشعر - ولا سيما القديم منه - كانت ضرورة لازمة لمن يريد ان يمارسه ، كما كانت جزءاً أساسياً من ثقافة الشاعر في ذلك العهد .

واغلب الظن انه بدأ حياته الشعرية في اوائل شبابه فأخذ يقلد غيره من الشعراء ويقرزم شعراً ضعيفاً حرص على ان لا يصل اليها ، فهو في وصية له لتلميذه دعبل يقول (١) : « اياك ان يكون اول ما يظهر لك ساقطاً فتعرف به ، ثم لو قلت كل شيء حسن كان الاول اشهر عنك وكنت ابدأ لا تزال تعير به » .

واغلب الظن ايضاً ان دور الرواية والتقليد الذي مر به شاعرنا ، والذي يمر به جل الشعراء في العادة ، هو الذي مهد للجانب التقليدي القديم الذي نراه في شعره .

ولسنا نعلم على وجه التحقيق المسلك الذي سلكه مسلم وهو شاب يافع في مدينة شاع فيها الفسق والمجون والانحراف الجنسي ، غير ان ما نعلمه هو انه لم تصل اليها روايات عن انغماسه في حمأة هذا التيار انغماس غيره من شعراء عصره الماجنين . ولسنا ميالين الى تنزيهه في هذا الباب كما فعل الدكتور الدهان (٢) ، بل اننا نكاد نرجح مما نستنتجه من روايات وصلت اليها عن حياته في ما تلا هذه الحقة انه لم يكن منزهاً فيها ، وانه لا بد ان اسام سرح اللهو ونهز مع الغواة ، وان كان ذلك في شيء من التحرج وعدم الاسراف في الغالب . ولعل تقوى والده (٣) ، وحرصه على ان لا يسيء الى سمعة هذا الوالد الذي عرف بحبه له ، عملاً على كبح جماحه فمال الى التحرج والاعتدال .

ورغم هذا الرأي ، فالواقع ان فترة الشباب المبكر لا تزال فترة غامضة في حياة مسلم شأنها في حياة جل الشعراء الآخرين . ومن يدري فلعله قضى شطراً منها في البادية لاستكمال ثقافته اللغوية على عادة بعضهم في ذلك الوقت ، اذ الواقع ان من يقرأ شعر مسلم يلحظ اثر البادية فيه يسير جنباً الى جنب مع اثر الحاضرة ،

(١) مخطوطة ميونخ للاغاني (دي خويه ص ٢٤٥)

(٢) راجع الدهان ص (١٤ م)

(٣) الاغاني ج ١٣ ص ٩

فمئاته اللغوية ، وما فيه من مُثُل بدوية في الحياة والجمال ، وما يحويه من تشابه
وصور منتزعة من حياة البادية — كل ذلك يصعب تفسيره الا على اساس احد
الافتراضين التاليين او كليهما : الاول تأثره العميق بشعر الشعراء القدامى الذين
كان للصحراء وحياتها اثر كبير في شعرهم ، والثاني تأثره بحياة البادية عن كتب
في هذه المرحلة ذاتها من حياته .

وفي الوقت الذي لا يمكننا ان نقطع فيه برأي حاسم في هذه القضية ، فأننا
لا نستطيع الا ان نتساءل اين كان مسلم حين كان اخوه سليمان يتصل ببشار
ويأخذ عنه فتنتقل اخباره الى الرواة وينقلونها لنا ، ويسكتون عن مسلم ؟
واين كان كذلك حين وفد والبة وابو نواس على الكوفة واتصلا بأدبائها ^(١) ، ولم
ينقل لنا الرواة انها اتصلا بمسلم ؟ أكان في المدينة مهمل الذكر آنذاك ، ام كان
خارجها يستكمل مواهبه ويعدّ نفسه لمستقبل زاهر ؟!

ومها يكن الامر فقد استطاع مسلم ان يزود نفسه ، في مراحل حياته
الاولى ، بثقافة لغوية وشعرية وفكرية حسنة انعكست في شعره فيما بعد . ولعل
من حسن حظه ان كانت نشأته في الكوفة التي كانت في عهده مدرسة بأسرها
يتلقى فيها الناس ضروب العلم — عن قصد وعن غير قصد — في المسجد الجامع
حيث حلقات العلماء والادباء ، وفي البيوتات والبساتين حيث معظم مجالس
الشعراء ، وفي الاسواق والشوارع حيث كان متاح للمرء دائماً الاتصال بالعرب
والاستفادة من تراثهم اللغوي بصورة خاصة ، والاتصال بالاعاجم والاخذ من
مظاهر حياتهم الحضارية العريقة وتراثهم الفكري الأثيل . وليس من شك في
ان شاعرنا استفاد جهده من جل ما زودته به بيئته ، وانعكس ذلك في شعره .
ويخيل اليّ ان ميله للبديع وعنايته بالزخرف بصورة عامة إن هو الا مظهر
حضاري يتصل اتصالاً وثيقاً بهذه الحياة العامة التي كانت تسود الكوفة نتيجة
لاتصال العرب بهؤلاء الاعاجم ، وان ذكره لأله الحلم في بعض شعره إنما هو انعكاس
لأثر أجنبي قد يتصل باليونانية أو بالثنوية الفارسية ^(٢) ، كما ان تباهيه بوجود

(١) الفصل في تاريخ الادب العربي ج ١ ص ١٧٩ .

(٢) قال في قصيدة ضاع بعضها :

وقد سمعت على الاكرام فانطلقني
ولا عصيت اله الحلم عن خرق

ما كل عاذلة تصغي لها اذني
فما شكوت الهوى جهلاً بلذته

بيت في شعره اخذ معناه من التوراة^(١) يشير الى اتصاله ببعض اصحاب التوراة من سكان المدينة .

ولعلي استطيع ان اذهب الى ابعد من ذلك فأفترض ان اثر هذه البيئة قد يكون تجاوز هذا وان مسلماً ربما عرف الفارسية — او مبادئها على الاقل — منذ نشأته الاولى^(٢) ، ثم اتاحت له فرصة فيما بعد لاتقانها حين ارسل موظفاً الى خراسان .



(١) قيل لمسلم بن الوليد : اي شعرك احب اليك ؟ قال : ان في شعري بيتاً اخذت معناه من التوراة ، وهو قولي :

دلت على عيبها الدنيا وصدقها
ما استرجع الدهر مما كان اعطاني
(الدهان ص ٣٧٣ عن مخطوطة دار الكتب للاغاني ج ١٧ ص ٤٧ و)

(٢) مما يقوي هذا الافتراض :

(أ) كثرة العناصر الفارسية في المدينة آنذاك .

(ب) إرساله موظفاً إلى خراسان الفارسية فيما بعد .

سَمِيَّتُهُ وَشَخْصِيَّتُهُ

لم يصل إلينا وصف لسمت مسلم في غير رواية واحدة ، على ما علم ، ذكرها صاحب المجهرة وأشار فيها إلى أن مسلماً كان حلواً^(١) ، حتى بعد أن كان قد « خرج من الشباب ونزقه » - على حد قول صاحب الرواية .

غير أن مسلماً أورد بيتاً من الشعر أن كان جاداً فيه فانما ينم عن أنه كان بديناً ايضاً ، في وقت شبابه على الأقل . قال :

أَحَبُّ قَلْبِي وَمَا دَرَى جَسَدِي وَلَوْ دَرَى لَمْ يُقِمْ بِهِ السَّمَنُ
واقول أن كان جاداً لأن الفن الأدبي لا يعرف الجد أحياناً كثيرة ، فها هو بشار والمتنبي مثلاً يطرقان معنى مشابهاً دون أن يشعرا بأنها يقصدان إلى الجد ، فيقول الأول منها :

إِنَّ فِي بُرْدِي جَسَماً نَاحِلاً لَوْ تَوَكَّاتٍ عَلَيْهِ لَانْهَدَمَ
ويقول الثاني :

كَفَى يَحْسِي 'نَحْوَلَا أَنِّي رَجُلٌ' لَوْلَا 'مَخَاطَبَتِي إِيَّاكَ' لَمْ تَرَنِي
أما شخصيته ، فن السهل استنتاج كثير من مقوماتها من خلال أخباره وشعره . والبك أهم ما قامت عليه تلك الشخصية :

(١) الفطنة :

وتجلى فطنة مسلم في ثلاثة مظاهر على الأقل : أولها المقدرة التي أظهرها في ابتكار المعاني الجديدة وتقصيصها وتحوير المعاني القديمة والتوسع فيها في شعره ، وثانيها بعض الروايات التي انحدرت إلينا في وصفه ، وثالثها المهارة التي أظهرها في التخلص من بعض المواقف الحرجة في حياته .

أما المظهر الأول فستحدث عنه بأسهاب عند البحث في شعره .

وأما المظهر الثاني فقد روي عن الحميري أن مسلماً كان ذا « فهم وتجربة وتميز ومعرفة »^(٢) .

وأما الثالث فيكفي أن نسرد لك حادثتين فقط لتبين هذه الصفة فيه :

(١) جهرة الاسلام - مخطوطة ليدن (الدهان ص ٤٣٠) .

(٢) نفسه (الدهان ص ٤٣٠) .

— « كان هارون الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم ، وكان مسلم بن الوليد ، صريع الغواني ، قد رمي عنده بالتشيع فأمر بطلبه فهرب عنه ثم وجد هو وأنس ابن أبي شيخ عند قينة ببغداد . فلما أتى بها قيل له يا أمير المؤمنين قد أتى بالرجلين ، قال أي الرجلين ؟ قيل أنس بن أبي شيخ ومسلم بن الوليد ، فقال الحمد لله الذي اظفرني بها ، يا غلام احضرهما . فلما دخلا عليه نظر الى مسلم بن الوليد وقد تغير لونه فرق له وقال لهما يا مسلم انت القاتل :

أَنسَ الهوى بَنِي عليٍّ في الحشا وأراه يطمحُ عن بني العباس
قال : بل انا الذي يقول يا أمير المؤمنين :

أَنسَ الهوى ببني العمومة في الحشا مُستَوْحِشاً من سائرِ الأَناسِ
واذا تَكاملتِ الفضائلُ كنتُمُ أولى بذلكَ يا بني العباسِ

قال : فعجب هارون من سرعة بديته «^(١) .

وعلى الرغم من اننا لا نستطيع ان نتأكد من ان مسلماً قال البيتين الاخيرين على البديهة او انه اعدهما سابقاً ليخلص نفسه من ورطة متوقعة ، فان كلاً من الافتراضين يصح ان يتخذ دليلاً على فطنته وذكائه .

— « خرج دعبل الى خراسان لما بلغه حظوة مسلم بن الوليد عند الفضل بن سهل فصار الى مرو ، وكتب الى الفضل بن سهل :

لا تَعْبَأْنِ بِابْنِ الوليدِ فإنه يَرميكَ بَعْدَ ثلاثةِ بَملالٍ
إنَّ المَولودَ وإنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ كانتْ مَوَدَّتُهُ كَفيَ ظِلَالٍ

قال : فدفع الفضل الى مسلم الرقعة وقال : انظر يا أبا الوليد الى رقعة دعبل فيك ، فلما قرأها قال له : هل عرفت لقب دعبل وهو غلام أمرد وهو يفسق به ؟ قال : لا ، قال : كان يلقب بيماس ، ثم كتب اليه :

مَيَّاسُ قُلْ لي أينَ انتَ مِنَ الوَرَى لا انتَ معلومٌ ولا مجهولٌ
أما الهجاءُ فَدَقَّ عِرْضُكَ دُونَهُ والمدحُ عَنكَ كما عَلمتَ جليلٌ
فاذهبِ فانتَ طليقٌ عِرْضِكَ إِنَّهُ عِرْضُ عَزَّزَتْ بِهِ وَأنتَ ذليلٌ^(٢)

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ١٨٠ ، ودي خويه ص ٣٠١

(٢) مخطوطة دار الكتب للاغاني (الدهان ص ٣٧٤)

(٢) التروّي وإعمال الفكر :

ذكر ابن رشيقي ^(١) ان مسلماً « كان صاحب روية وفكرة لا يبتدئه ولا يرتجل ». ولئن كان يقصد بقوله هذا مسلكه الشعري في الغالب فاني احسب ان هذا المسلك لم يكن الا انعكاساً لطبيعة تميل الى الروية وتكره ارتجال الامور . والواقع ان هذه الطبيعة تكاد تكون عامة بين اصحاب مدرسة البديع التي ينتمي اليها مسلم ، فالعناية بصوغ العبارة وتنسيقها ان هو في الحقيقة الا مظهر لنفس تؤثر التروّي وترتاح الى التفكير الهادئ الرزين .

وما وصية مسلم لتلميذه دعبيل بأن يتحاشى اظهار شعره للناس الا بعد نضجه واكتماله ^(٢) غير تعبير عما تكنه نفسه من ايثار للتروّي والتريث .

وقد يقال ان هناك مواقف في حياة مسلم ارتجل فيها شعراً يتم ارتجاله عن سرعة بديهية ، غير ان هذه المواقف قليلة على كل حال ، وتتناول حالات نفسية خاصة . ولو آمنّا بصحة الروايات التي وردت فيها لامكن الاستنتاج ان بديهية مسلم لم تكن تسعفه الا حيث كان يثيرها سيف مسلط ^(٣) او امل قريب ^(٤) او نشوة ارتياح ^(٥) .

(٣) رقة العاطفة :

كان مسلم ، على ما يبدو ، رقيق العاطفة ، سريع التأثر ، ومن ثم كانت شدة استخذه للغواني وتدلّه في حبهن . وديوانه مليء بما يشعر بذلك ، قال :

أما التّحيبُ فاني سوفَ أنتحِبُ
على الأحبّةِ إن سَطّوا وان قَرُبوا

وقال ايضاً :

لَمّا نظرتُ الى بُعدِ المزارِ
قَعَدْتُ أبكي على نفسي وأنتحِبُ

وقال :

نُقَاتِلُ اِبْطَالَ الوغى قَنَبِيدُهُمْ
وليست سيوفُ الهندِ تُفني سيوفنا

ويقتلنا في السلمِ لحظُ الكواعبِ
ولكن سِهَامُ فَوَقْتُ بالحواجبِ

(١) العمدة ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) مخطوطة دار الكتب للاغاني (الدهان ص ٣٧٧)

(٣) راجع قصته مع الرشيد حين اتهم بالتشيع (ص ٦٧ من هذا الكتاب)

(٤) راجع قصته مع عائشة بنت المهدي حين طلبت من الشعراء اجازة بيت شعر مقابل مئة دينار (العقد الفرید ج ٥ ص ٣٨٣)

(٥) راجع قصته ووصيف محمد بن منصور حين قدم اليه خراً في كأس مذهبة (العقد ج ٦ ص ٤٣٨)

ورقة عواطف مسلم تجلت في مواقف كثيرة أهمها :

أ) طلاقه لزوجته : اذا ما ان طلقها حتى نظم قصيدة تفيض بالعاطفة يأسف فيها لهذا الطلاق ويحاول ان يعزوه الى القدر فيقول :

اجارتنا ما في فراقك راحة^(١) ولكن مضي قول فانت به بسل^(٢)
فبيني فقد فارقت غير ذميمة قضاء دعانا للقطيعة لا الحثل^(٣)
أما واغتيال الدهر خلة بيننا لقد غال إلها ساكناً بهم الدهر^(٤)
فما بي الى مستطرف العيش وحشة وان كنت لا مال لدي ولا أهل^(٥)
بنا لا بك الأمر الذي تكرهينه اتى الحلم بالعتبي وقد سبق الجهل^(٦)

وفي هذه القصيدة يظهر شدة حرقة على ولده منها ويذكر ان لولاه مات حبه لها ولتزوج بعدها فيقول :

لعمري ابنها لولا احراق الحشى له^(٧) لمات الجوى أو لاستفيد بها مثل^(٨)
ب) وفاة زوجته الثانية : فما ان ماتت حتى «جزع عليها جزعاً شديداً وتنسك مدة طويلة ، وعزم على ملازمة ذلك ، فاقسم عليه بعض اخوانه ذات يوم ان يزوره ففعل ، فأكلوا وقدموا الشراب فامتنع منه واباه ، وانشأ يقول :

بكاء وكأس كيف يتفقان^(٩) سبيلهما في القلب مختلفان^(١٠)
دعاني وإفراط البكاء فإنني أرى اليوم فيه غير ما تريان^(١١)
غدت والثرى أولى بها من وليها إلى منزل ناء لعينك دار^(١٢)
فلا حزن حتى تذر ف العين ماءها وتعرف الاحشاء للخفقان^(١٣)
وكيف بدفع اليأس للوجد بعدها وسهاهما في القلب يعتلجان^(١٤)
والمقطوعة ، كما نرى ، كلها حرقه وتوجع ورقة عاطفة .

ورقة عاطفة مسلم هي التي جعلت منه شخصاً ألوفاً اذا فارق عهداً حن اليه :

أمنقض عنه حزن ما يفارقه^(١٥) أقام بين الحشا والسقم والكد^(١٦)
أم ليس ناسي أيام له سلفت^(١٧) جرت عليه بلذات فلم تعد^(١٨)

(١) بل : حرام

(٢) الاغاني - مخطوطة ميونخ (دي خويه ص ٢٥٢) . ولعل « والوجد » تستقيم اكثر من « للوجد »

واذا غادر بلدًا تشوق الى اهله :

يا ساكنَ الكوفةِ اللاهي بِلذَّتِهِ ما مالَ بي عن حبيبٍ غيرِكَ الطربُ
واذا نزع عن بلاده الى بلاد الغربِ فهناك تنقد عاطفته ويورى حنينه فلا يجد
من نفسه ما يساعده على اخماد ذلك سوى محاولة تعزية هذه النفس بما تقيم فيه من
نعم وما تتقلب فيه من جاه وعز . قال :

لا يَمْنَعَنَّكَ خَفْضُ العيشِ في دَعَا نزعُ نفسٍ الى اهلٍ واوطانِ
تلقى بكلِ بلادٍ ان حلتَ بها أهلاً بأهلٍ وجيراناً يجيرانِ
واذا نأى عنه صديق او ولي نعمة تأثر لنأيه : قال في وداع اسماعيل البرمكي :
وإني واسماعيل يومَ وداعِهِ لك الغمدِ يومَ الروعِ فارقه النّصلُ
وإنّي في مالي وأهلي كأنني لنأيِكَ لا مالٌ لَدَيَّ ولا أهلُ
وقال ايضاً :

أهلَ الصّفاءِ نأيتُم بعدَ قُرْبِكُم فما انتفعتُ بعيشٍ بعدَكم صافي
وقد قصدتُ نَدَى مَنْ لا يوافِقُنِي فكانَ سهمي عنه الطائشَ الطّافي
وقد يقال ان تأثره لنأي هؤلاء كان مصدره المادة . وقد يكون هذا صحيحاً
الى حد ، غير انه لو كانت المادة هي العامل الوحيد الذي يحرك نفسه ويشير
عاطفته لكان الاجدر ان يقترن نشدانها بقصائد استقبال لا قصائد وداع .

(٤) الميل للهوى واللهو :

وهذه الصفة تبرز لنا واضحة في ديوانه ، فهو لا يني يردد فيه هذا الميل فيقول :
ما مَرَّ بي شيءٌ أشدُّ مِنْ الهوى سُبْحَانَ مَنْ خلقَ الهوى وتعالى
ويقول في موطن آخر :

لم أصحُ مِنْ لَذَّةٍ لالا ولا طربِ وكيف يصحوقرينُ اللهو واللعبِ
نفسِي تنازِعُنِي اللذاتُ دائِبةٌ وإِنما اللهو واللذاتُ مِنْ أُرْبِي
كم ليلَةٍ بَتُّ مسروراً ومُغْتَبِطاً جَذْلانَ مُنْغَمِساً في اللهو والطربِ
ويقول في موطن ثالث :

ألمَ تَرَ أَنِي بأَرْضِ الشَّامِ أَطَعْتُ الهوى وشربتُ العُقارا

شربتُ ونادَمني شادنُ صغيرُ وإنِّي أحبُّ الصغارا
وَصِرْفِ رُصَافِيَّةٍ قَهْوَةٍ تَمِيتُ اَلْهُمُومَ وَتُبْدي السَّرارا
كَمِيتِ رَحِيقَ إِذَا صُفِّقَتْ أَطارتُ على حافَتَيْها السَّرارا
لَقَدْ كِدْتُ مِنْ حَبِّ خَمْرِ الْبَلِيخِ^(١) أَنْ أَجْعَلَ الشَّامَ أَهْلاً وَدَارا

وقد تناول هو مسلم ميدانين هما الحمرة والنساء ، وقد جمع بينها بقوله :
هل العيشُ إلا أنْ أروحَ مع الصِّبا وأغدو صريعَ الرِّاحِ والأعْيُنِ النَّجْلِ
وقوله :

وما العيشُ إلا أنْ أبیتَ مُوسِداً صريعَ مُدامٍ كَفَّ أحوَرَ أَكْحَلِ
أحب مسلم الحمرة ووصفها في شعره وصف خبير بها وظهر شغفه بشربها
مقتولة حيناً :

صفراءُ من حَلَبِ الكُرومِ كَسَوَتْها بِيضاءَ من صَوْبِ الغيومِ البُجَسِ
مُزَجَّتْ وَلَوِ ذَها الحِجابُ فَحَاكها فَكَأَنَّ حَلِيَّتَها جَنِيَّ النُّرجَسِ
وغير مقتولة حيناً آخر :

إِذَا شَتَّنا أَنْ تَسْقِياني مُدَامَةً فَلَا تَقْتُلِها كُلُّ مَيِّتٍ مُحَرَّمُ
خَلَطْنا دَمًا مِنْ كَرَمَةٍ بِدَمائِنَا فَأَظْهَرَ فِي الْأَلوانِ مِثْلَ الدَّمِ الدَّمُ
واحِب النساء وتغزل بهن وارسل لبعضهن الرسل وكتب الكتب^(٢) . قال
في إحدى قصائده :

أَجْرَرْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصِّبا غَزَلَ وَشَمَّرْتُ هَمَمَ الْعُذالِ فِي الْعَذَلِ
هَاجَ الْبِكاةُ عَلَى الْعَيْنِ الطَّمُوحِ هَوَى مُفَرَّقٌ بَيْنَ تَوَدِيعٍ وَمُحْتَمَلِ
كَيْفَ السُّلُوْءُ لِقَلْبٍ راحَ مُخْتَبِلاً يَهْذِي بِصاحبِ قَلْبٍ غَيْرِ مُخْتَبَلِ
وقال في قصيدة أخرى :

وَفِي الْفُؤادِ نارُ لَيْسَ لَها خَمُودُ
كَشَبُها نيرانُ مِنْ اَلْهُوى وَوُودُ

(١) نهر بالركة.

(٢) مخطوطة ميونيخ للأغاني (دي خويه ص ٢٢٩)

إذا أقول يوماً
يا عاذلي كفا
أكثرتها تفنيدى (١)
قد أقصدت (٢) فؤادي
بهنائة (٣) لعوب
هجرانها قريب
كلامها خلوب
وطرفها مريض

قد أطفيت تزيده
فإنني معمود
لو ينفع التفنيد
خمصانة (٤) خريد (٥)
غرثي (٦) الوشاح رود
ووصلها بعيد
إلى الصبا يقود
ولحظها صيود الخ

وقال في الثالثة :

كتاب فتى أخى كلف طروب
صبت إليك من حزن وشوق
وقد كانت تجيب إذا كتبنا

إلى خودي (٧) متعمية لعوب
وقد يصبو الحب إلى الحبيب
فيا سقياً ورعياً للحبيب

وترى مسلماً المولع بالحمر والنساء يجمع بين اثرهما في نفسه أحياناً فيقول :

أريقاً من رضاء بك أم رحيقاً
ولللصبيان أسماء ولكن

رشت فلست من سكري مفيقاً
جهلت فإن في الأسماء ريقاً

٥) اضطراب النفس :

ولمسلم نفس مضطربة قلقه . ولعل اضطراب الكوفة وقلقها منذ نشأتها انعكس عليه كما انعكس على غيره من سكانها . وكتب التاريخ تحدثنا عن تقلب الكوفيين واضطراب أمورهم بصورة عامة (٨) .

ولعل من أهم مظاهر الاضطراب النفسي عند مسلم هذا التناقض الذي كثيراً

(١) لومي وتضعيف رأبي

(٢) أقصده السهم : أصابه فقتله

(٣) ضامرة البطن

(٤) حبيبة

(٥) امرأة طيبة ، لبنة في عملها ومنطقها

(٦) جائعة . وغرثي الوشاح كناية عن دقة خصرها

(٧) خود : امرأة شابة .

(٨) راجع البراقى - تاريخ الكوفة ص ٨٩ و ٢٥٠ و Encyclopaedia of Islam (Kufa)

ما نلسه في مسلكه وشعره ، فبينما يبدي في شعره مثلاً تعطشاً شديداً لشرب
الخمر نراه في الواقع لا يسرف في شربها ، وبينما نراه « لا يتبتل » في سلوته - على
حد قوله - نراه يرمي زميله ابانؤاس بالفجور . فيها هو يقول :

« ملت ابانؤاس ابن هانيء على تماديه في الشرب وانهاكه في الغي فأنشدني بديهة :

فأولُ شُربِكْ طرحُ الإزارِ وثانيهِ مِنْ بَعْدِ طرحِ الأزارِ
وما هَناكَ المَلاهي بِمثلِ إِماتَةٍ بِمَجدٍ واحِياءِ عارِ
وما جاءَ دهرُ بِلذاتِهِ على مِنْ يَضِنُّ بِخلعِ العِذارِ

فوليت عنه وقلت جواب حاضر من شيخ فاجر» (١)

ومن الواضح ان مثل هذا التناقض قد يكون اثرأ من آثار التقليد الفني عند
الشاعر أحياناً ، غير ان من الصعب ان نفترض انه يمكن ان يكون كذلك دائماً
عند مسلم وهو الذي قد يظهر تناقضاً في شعوره الشخصي في القصيدة الواحدة ،
ففي لاميته التي يظهر فيها ولعه الشديد بزوجه الطالق - على ما جاء معنا في
السابق - يبدي سلوة اياها وعدم تشوقه لها حين يقول :

فلا شوقَ إنَّ اليأسَ أعقبَ سلوةً سِواءَ نوى مَنْ لا يُراجِعُ والشَّكْلُ
وحين يقول :

سلوتُ وإن قال العواذِلُ لا يسلو وأقسمتُ لا يرقى إلى سمعي العَدْلُ

٦ الاسراف :

وكان مسلم مسرفاً متلاًفاً فكان يتساجل في الانفاق هو وابونؤاس وعباس
بين الاحنف (٢) . وكان اذا كسب مالاً جمع جمعاً من أصحابه فلم يخرج من
بيته اكلاً وشرباً ولعباً ولهوأ ، حتى يبقى مما كسب قوت شهر فيظهر فعرف بذلك
فكان ظهوره ظهور خلت (٣) . ومن السهل تقدير مدى اسراف مسلم ان علمنا
الاموال الطائلة التي ظفر بها من ممدوحيه ومما قلد من اعمال . فقد ذكر العباسي (٤)
ان مسلماً كان « منقطعاً الى البرامكة ثم اتصل بعد ذلك بالفضل بن سهل وقرب

(١) الحب والحبوب والمشعوم والمشروب للسري الرفاء - مخطوطة ليدن (دي خويه ص ٢٨٩)

(٢) ابن رشيقي ، العمدة ج ٢ ص ١٧٧

(٣) جهرة الاسلام - مخطوطة ليدن (الدهان ص ٤٢٩)

(٤) معاهد التنصيص ص ٣٦٠

من قبله وحظي عنده حتى قلده اعمالا يخرج ان اكتسب منها الف الف درهم .
فلما حصل المال عنده لزم منزله ، وكان كريماً سمحاً فأتلف جميع ما اكتسب .
ثم صار الى الفضل بن سهل بعد ذلك مستجدياً فقال له : « ألم اغنك » فقال :
« وما غناني في الف الف والف الف الف ولا هي قدرك ولا قدري فقال له الفضل
ان بيوت الاموال لا تقوم على هذا الفعل ثم قلده الضياع باصبهان وضم اليه رجلاً
يأخذ مرافق العمل ويطلق له منها شيئاً يحتاج اليه بقدر نفقته ويبتاع له بالباقي
ضياعاً فاكتسب ايضاً الف الف ابتيع له بها ضياع . فلما قتل الفضل بن سهل لزم
منزله ولم يمدح احداً حتى مات » .

وذكر صاحب الاغانى^(١) رواية اخرى قال فيها : « دخل مسلم بن الوليد
على الفضل بن سهل فانشده قوله فيه :

لو نَطَقَ الناسُ أو أَتَنَوْا بعِلمِهِم وَنَبَأَتْ عن معالي دهرِكَ الكتبُ
لم يَبْلَغُوا منك ادنى ما تَمَتُّ بِهِ اذا تَفَاخَرَتِ الاملاكُ وانتسبوا
فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة بألف درهم .

ناهيك بالاموال الطائلة التي اغدقها عليه ممدوحوه الآخرون ، ولا سيما يزيد بن
مزيد ، فكان نصيبها الاتلاف والصرف على الاصدقاء ومجالس اللهو .

والواقع ان حياة شاعرنا كانت رغم هذه الاموال الطائلة تتراوح بين العسر
واليسر ، فكثيراً ما اعسر نتيجة لاسرافه العظيم فاضطر الى بيع متاع او
رهن ثوب :

فقد روى صاحب الاغانى انه اضطرب يوماً الى بيع خفيه حين قدم عليه صديق
من الكوفة ، وهو ببغداد ، ولم يكن عنده درهم ينفقه عليه — على حد قوله^(٢) . كما
روى انه دفع منديله الى صديقه دعبل ليبيعه حين جاءه وجارية ليؤم بها منزله
فصادفه على عسرة^(٣) . وروى ايضاً انه كان قد رهن طيلسانه حين ارسل اليه
يزيد بن مزيد خمسمائة درهم من الرقة ، من مكافأة على مديح^(٤) .

(١) الاغانى — مخطوطة ميونخ (دي خويه ص ٢٤٩)

(٢) نفسه (دي خويه ص ٢٣٣)

(٣) مخطوطة دار الكتب للاغانى — (الدهان ص ٣٧٥ - ٣٧٦)

(٤) مخطوطة ميونخ للاغانى (دي خويه ص ٢٣٦)

(٧) التواضع :

وكان كذلك متواضعاً غير مدّعٍ ، فقد روى دعبل بن علي قال ^(١) « قلت لابي نواس كيف رأيت مسلماً فقال : هو اشعر الناس بعدي ، وسألت مسلماً عنه فقلت كيف رأيت ابا نواس فقال : هو اشعر الناس وانا بعده » .

وروى المرزباني ^(٢) عن ابي عبد الله الحكيمي انه قال : « حدثني ميمون ابن هارون عن الحسين ابن بنت مسلم بن الوليد الانصاري قال : حدثني ابي قال : كنا عند مسلم في المسجد وهو يملي عليّ وعلى عدة معي القصيدة الدالية :

لا تَدْعُ بي الشوقَ إني غيرُ مَعْمودٍ

اذ اقبل ابو نواس فاستشرف له القوم ، فدنا فلم ، فرفعه مسلم في المجلس فلم يفعل ابو نواس ، وقطع مسلم الاملاء ، ثم اقبل عليه ينشده من شعره وابو نواس يأبى ذلك ، ثم سأله ابو نواس ان يبتدىء القصيدة من اولها ففعل ... »

(٨) ضعف الثقة بالنفس :

يبدو ان مسلماً كان ضعيف الثقة بالنفس . ويمكن ان نقبين ذلك مما يلي :

١ - لا يكاد يمدح احداً من الخلفاء او الوزراء دون ان يمدح من دونه مرتبة ممن يمكن ان يتوصل عن طريقه اليه . فهو لا يمدح الرشيد مثلاً دون ان يمدح حاجبه منصور بن يزيد ، واحد كتابه عيسى بن يزدا نيروز بل وابن كاتب زوجته ام جعفر ، يعقوب بن سعدان . ولا يمدح البرامكة دون ان يمدح كاتبهم محمد بن منصور . وقد يقال انه استطاع ان يظفر بالمال من معظم تلك الشخصيات الثانوية ، فلم لا يقال اذن انه مدحها لذواتها . غير انه يجاب عن هذا بأنه كان من الممكن ان يظفر من اسياذ هذه الشخصيات بما لو اوفر لو اتصل بهم مباشرة منذ البدء وقصر جهوده عليهم .

٢ - تقديمه لابي نواس على نفسه في المجالس والانشاد على الرغم من انها متقاربان في السن ، ومن ان ابا نواس لا يعلو مسلماً مرتبة من حيث النسب على الاقل . وقد يقال ان هذا من قبيل التأدب ، ولكن التأدب ذاته قد يكون صفة سلبية حين يشعر المرء بأنه لا يستطيع الا ان يكون متأدباً ، كما يكون

(١) مخطوطة ميونيخ للاغاني (دي خويه ص ٢٤٧) .

(٢) الموشح ص ٢٨٩ .

صفة ايجابية حين يكون من طبيعة المرء التأدب . وليس من السهل التوفيق بين
مسلك مسلم العام في حياته الخاصة وبين امكانية افتراض كون التأدب صفة
ايجابية عنده .

٣ - تحاشيه الهجاء ، لا رغبة منه في المسالبة على ما يظهر ، بل لضعف في ثقته
بنفسه في الغالب . ودليلنا على ذلك انه كثيراً ما كان يتحاشى الرد على ابن قنبر
في المهاجاة التي حصلت بينهما ، على الرغم من انه يرى ان الهجاء الموجه آخذ
بضبع الشاعر من المديح المضرع^(١) . ولقد رأينا انه حين عوير في ذلك احوال
الامر الى دعوات والده في المسجد^(٢) .



(١) الاغاني ، مخطوطة ميونيخ - (دي خويه ص ٢٥٠)

(٢) الاغاني ج ١٣ ص ٩

زواجه وإعقابه

تزوج مسلم مرتين ، على ما نعلم . اما زوجته الاولى فكل ما نعرف عنها هو انه طلقها وهو كهل بعد ان اولدها ولدًا^(١) ، ولا نعرف سبباً لهذا الطلاق . واما زوجته الثانية فقد ذكر الرواة انها كانت من اهله ، وانها كانت تكفيه امره وتسره^(٢) . ويخيل اليّ انه لا يسعنا الا ان نقف حيارى من تفسير كلمة اهله هنا ، فقد استعملها العرب للدلالة على اشياء كثيرة ابرزها العائلة والقبيلة والجماعة والاقارب^(٣) .

ومها يكن الامر ، فالظاهر انه كان يحب هذه الزوجة حباً جماً ، فما ان ماتت حتى «جزع عليها جزعاً شديداً وتنسك مدة طويلة وعزم على ملازمة ذلك فأقسم عليه بعض اخوانه ان يزوره ففعل فاكلوا وقدموا الشراب فامتنع منه مسلم واباه وانشأ يقول :

بكاء وكأسٌ كيف يتفّقانِ سبيلاهُمَا في القلبِ مختلفانِ^(٤)

ولا ندرى اتزوج مسلم مرة اخرى بعد وفاة زوجته هذه ام لا ، فلا ديوانه ولا ما وصل الينا عنه من روايات يخبرنا بذلك .

وعلى اي حال ، فقد أثر زواج مسلم فأعقب ولدين وابنة على الاقل . اما الولدان فهما مخلد وخارجة . ومخلد هذا هو الذي كتّاه به دعبل حين كتب اليه وهو في جرجان^(٥) :

ابا مخلدٍ كنا عقيدي مودةٍ هوانا وقلباننا جميعاً معاً

واما خارجة فقد روي عنه انه كان شاعراً ، مدح احمد بن نصر الكاتب

(١) راجع القصيدة التاسعة في الديوان حيث يقول في البيت الرابع عشر :

لعمري ابنها لولا احتراق الحشاه لمات الجوى او لاستفيد بها مثل

(٢) مخطوطة ميونيخ للاغاني (دي خويه ص ٢٥٢)

(٣) راجع لسان العرب مادة «أهل»

(٤) راجع باقي الابيات في ص ٦٩ من هذا الكتاب ، ص ٣٨٣ من الدهان .

(٥) مخطوطة ميونيخ للاغاني (دي خويه ص ٢٤٥) . ويذكر الدكتور الدهان عمداً عوضاً

عن مخلد ، ولعله تصحيف «الدهان ص. م ٢٠»

ورثى اياه حين مات^(١). ويبدو انه لم يصل اليها من رثائه لايه سوى من بيتين الشعر هما^(٢) :

تَقَطَّعَتِ الاشعارُ مِنْ بَعْدِ مُسْلِمٍ وَصَارَتْ دَعَاوِيهَا إِلَى كُلِّ مُعْجَمٍ
إِذَا مَرَضَتْ أَشْعَارُ قَوْمٍ فَإِنَّهُ يَجِيئُكَ مِنْهَا بِالصَّحِيحِ الْمُسْلَمِ
ويذكر حسن علوان ولدين لمسلم هما مخلد والوليد دون ان يتعرض لذكر
خارجة^(٣).

ويعتمد في ذكره للوليد على رواية تقول بان الفضل بن يحيى كان يكني مسلماً
بابي الوليد . غير انه يجب ان لا يغرب عن الناحية ننظر في هذه الرواية ان
العرب قد تكني بأسماء الآباء كما تكني بأسماء الابناء ، ومن المعلوم ان الوليد كان
اسم والد مسلم .

اما ابنة مسلم فلم يصل اليها اسمها ، وكل ما نعرف عنها هو انها تزوجت
وأعقبت ولداً اسمه الحسين، وان الحسين هذا روى عن ابيه بعض اخبار مسلم.^(٤)



(١) الاوراق الصولي ج ١ ص ٢٥٣

(٢) نفسه

(٣) علوان ص ١٥-١٦

(٤) الموشح ص ٢٨٩ .

لقبه

يلقب مسلم بصريع الغواني ، وكان هذا اللقب يطلق على القطامي قبله ^(١) الا انه غلب على مسلم فعرف به .

ويبدو ان الرشيد كان اول من اسبغ عليه هذا اللقب فقد روي انه « لما وصل الى الرشيد في اول يوم لقيه انشده قصيدته التي يصف فيها الخمر ، واوها :

أديرا عليَّ الرَّاحَ لا تشربا قبلي ولا تَطْلُبَا من عندِ قاتلتي ذحلي
فاستحسن ما حكاه من وصف الشراب واللهو والغزل وسماء يومئذ صريع الغواني
بآخر بيت فيها وهو :

هل العيشُ إلَّا ان تروحَ معَ الصِّبَا وَتغدو صريعَ الكأسِ والأعينِ الشُّجْلِ ^(٢)
وعلى الرغم من ان تلقيب شاعر بلفظ يرد في شعره ليس بدعة في تاريخ الادب العربي ^(٣) ، فقد سأل احدهم مسلماً لم يدعى صريع الغواني فقال ^(٤) :

إِنَّ وَرَدَ الحُدُودِ والأعينِ الشُّجْلِ وما في الشُّغُورِ من أَقْحُوتِ
واسودادِ الصُّدُغينِ في واضحِ الحُجْدِ وما في الصدورِ من رُمانِ
تَرَكَتْني لدى الغواني صريعاً فلهذا أُدعى صريعَ الغواني
وسواء أكان شعره هو الذي أدّى الى هذا اللقب أم مسلكه الشخصي فالظاهر
انه قد راقه في اوائل حياته ، ولعله عمل على توجيهه - على الاقل في ما نظم من
شعر فيما بعد - فكثرت في ديوانه الابيات التي يظهر فيها تدهله بالنساء وتعلقه
بهن . قال :

(١) الاغانى ج ٢٠ ص ١١٩ . وخزانة الادب ج ٢ ص ١٥٢ .
(٢) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٩٦ ، ص ٨٣ من هذا الكتاب . ويراجع بخصوص هذا اللقب ايضاً :
لطائف المعارف ص ٢٣ ، وتلبيس ابليس ص ٢٧٣ ، وطبقات ابن المعتز ص ٧٣ ، والاغانى
ج ١٥ ص ١٠٩ ، وسقط الزند ج ٣ ص ١١٤٢ ، وجمهرة الاسلام (مخطوطة ليدن)
ص ٣٨ ظ (الدهان ص ٤٣٠)

(٣) فقد لقب شاس بن نهار « المعزَّق » لقوله لعمرو بن هند :
فان كنتُ ما كولاً فكُن انت آكلي والا فأدر كني ولما امزق
ولقب ربيعة بن عمرو الدارمي « مسكيناً » لقوله :
انا مسكين لمن ابصرني ولمن حاورني جد نظيق
انظر مواسم الادب وآثار المعجم والعرب ج ١ ص ١٣ .
(٤) لطائف المعارف ص ٢٣ ، تلبيس ابليس ص ٢٧٣ .

لَوْ وَزَنَ الْعَاشِقُونَ حُبَّهُمْ لَكَانَ حُبِّي بِحُبِّهِمْ يَزَنُ
لَا عَيْبَ إِنْ كُنْتَ مَا جِنَا عَزَلَ فَقَبْلِي الْأَوَّلُونَ قَدْ مَجَنُوا

...

خَلِيلِي لَسْتُ أَرَى الْحَبَّ عَارَا فَلَا تَعْدُلَانِي خَلَعْتُ الْعِذَارَا
وَكَيْفَ تَصْبِرُ مَنْ قَلْبُهُ يَكَادُ مِنَ الْحَبِّ أَنْ يُسْتَطَارَا
لَقَدْ تَرَكَ الْوَجْدُ نَفْسِي بِهَا تَمُوتُ مِرَاراً وَتَحْيَا مِرَارَا
إِذَا قُلْتُ أَسْلُو دَعَايَ الْهَوَى فَأَلْهَبَ فِي الْقَلْبِ لِلشَّوْقِ نَارَا

...

مَا لَذَّةُ الدُّنْيَا إِذَا مَا لَمْ تَكُنْ فِيمَا فَتَى كَأْسٍ صَرِيحَ حَبَائِبِ

...

سَأَجِيبُ دَاعِيَ الْحَبِّ مِنْقَاداً لَهُ إِنْ كَانَ مِنْ أَحَبِّتٍ غَيْرِ مَجَاوِرِي
ولقد اثار هذا اللقب حفيظة بعض خصومه من الشعراء على ما يظهر فاتخذوا
منه وسيلة للتندر به ، فقد روى الجاحظ ^(١) ان ابن ابي كريمة انشد لبعضهم
يهجو صريع الغواني مساماً بقوله :

فَمَا رِيحُ السَّدَابِ أَشَدَّ بُغْضًا إِلَى الْحَيَاتِ مِنْكَ إِلَى الْغَوَانِي

وروي عن محمد بن المهتأ انه قال: ^(٢) « كان العباس بن الاحنف مع اخوان
له على شراب فذكروا مسلم بن الوليد فقال بعضهم صريع الغواني ، فقال العباس
ذاك ينبغي ان يسمى صريع الغيلان لا صريع الغواني » .

وقد كان يصل اليه بعض هذا التندر فيوري نار غضبه وقد يضطره الى
هجو المتندرين به كما فعل مع العباس بن الاحنف ^(٣) .

ويبدو ان شاعرنا اصبح كارهاً لهذا اللقب حين امتد به العمر وغدا اللقب محرّجاً
له . فقد روي عن الحسين بن دعلج انه قال ^(٤) : « قال ابي لمسلم : ما معنى قولك :
لَا تَدْعُ بِي الشَّوْقَ إِنِّي غَيْرُ مَعْمُودٍ »

قال لا تدعني صريع الغواني فلست كذلك وكان يلقب هذا اللقب وكان
له كارهاً » .

(١) كتاب الحيوان ط . هارون ١٩٤٧ ج ٣ ص ٥٩٩

(٢) مخطوطة ميونخ للاغاني (دي خويه ص ٢٤٩)

(٣) نفسه ص ٢٤٩

(٤) نفسه ص ٢٤١

صلته بخلفاء عصره وأعلامه

اتصل مسلم بكثير من سُرّة عصره ومدحهم ، وكان بين هؤلاء من هو خليفة ، وبينهم من هو وزير أو أمير ، وبينهم من لا خطر له في التاريخ الرسمي ، وبينهم من لا تزال نجله لورود اسمه ناقصاً .

وتصدر الاسماء التالية مدائح مسلم في الديوان وذيله : يزيد بن مزيد الشيباني ، سهل ؟ ، هارون الرشيد ، يعقوب بن سعدان ^(١) ، جعفر بن يحيى بن برمك ، داود ابن يزيد بن حاتم بن خالد بن المهلب ^(٢) ، زيد بن مسلم الحنفي من وائل ^(٣) ، هاشم ابن عم يزيد من قصي ، محمد بن هارون الامين ، منصور بن يزيد ^(٤) ، محمد بن منصور بن زياد ^(٥) ، الحسن بن عمران بن عمر الطائي ^(٦) ، الفضل بن جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ، مسلمة ؟ ، ابو الفضل ^(٧) ، الفضل بن سهل ، يحيى بن خالد (البرمكي) .

غير ان اهم هؤلاء بالنسبة لاتصال مسلم بهم واختصاصه بمدحهم في وقت من اوقات حياته : يزيد بن مزيد ، والبرامكة ، والفضل بن سهل .

وقد يتساءل المرء عن السبب الذي جعل مسلماً يختص هؤلاء دون الخلفاء ، ولا سيما وقد دلف الينا انه كان يتحرق شوقاً الى الدخول على الخلفاء ونيل جوائزهم ^(٨) ، كما دلف الينا ان بعضهم على الاقل كان يستلطف شعره ويطريه ^(٩) . وجواب هذا التساؤل قد يمكن في عدة اسباب ربما كان اهمها تشييع مسلم ،

- ١ (لعله ابن سعدان كاتب ام جعفر (زبيدة) زوج الرشيد .
- ٢ من ابناء المهلب بن ابي صفرة ، وهو امير من الشجعان العقلاء ، ولي افریقیة (١٧٠ - ١٧٢ هـ) ثم مصر (١٧٣ - ١٧٥ هـ) فأحسن تدبيرهما . ثم ولاه الرشيد السند سنة ١٨٤ هـ فانتقلت له امورها وتوفي فيها سنة ٢٠٥ هـ (الاعلام ١١/٣ ، النجوم الزاهرة ٣/٢ ، ١١٦٠٧٥)
- ٣ يبدو انه ممن لا خطر لهم ، وينتسب الى قبيلة حنيفة (الباب ج ١ ص ٣٢٥) .
- ٤ كان والياً على الحراج زمن الرشيد ، وهو الذي ادخل الشاعر عليه (مخطوطة جهرة الاسلام - الدهان ، حاشية ص ٢٢٢) .
- ٥ كاتب البرامكة وخليفة الفضل بن جعفر البرمكي بباب الرشيد (الجهشاري ص ١٩٠ ، ٢٦٦)
- ٦ لعله الحسن بن عمران ابن اخي سفيان بن سعيد الثوري الذي يذكره الطبري في الجزء الثالث ص ٢٥٢٢ .

- ٧ لعله جعفر بن يحيى (الجهشاري ص ٣٣٣) او محمد بن منصور بن زياد (الدهان ص ٢٣٠)
- ٨ جهرة الاسلام - مخطوطة ليدن (دي خويه ص ٢٧٣)
- ٩ راجع وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٨٤ والاغانى مخطوطة ميونيخ ج ٥ (دي خويه ص ٢٣١)

وكفاية ممدوحيه من دون الخلفاء له .

وقد عرف مسلم كيف يختار هؤلاء الممدوحين ، فقد كانوا يشغلون مراكز حساسة في الدولة ويتمتعون بنفوذ قوي عند الخليفة . فيزيد بن مزيد كان قائداً مرموقاً عند المهدي والرشد كما كان والياً على ارمينية وأذربيجان^(١) ، وهما من بلاد الشغور ، في عهد الأخير منها . والبرامكة كانوا يتحكمون بالرشد ويتصرفون بشؤونهم ، والفضل بن سهل كان يسيطر على امور المأمون ويستأثر بمشورته^(٢) .

زد على ذلك ان كلاً من هؤلاء كان جواداً كريماً ، لا يلبث مسلم ان يمدحه حتى يغدق عليه العطاء ويكفيه وعياله مؤنة العيش . واي شيء كان يطمع فيه الشاعر في ذلك الوقت اكثر من هذا ، اللهم الا اذا كان طموحاً فرنا الى منصب في الدولة يدر عليه المال ويوفر له المكانة والجاه .

واغلب الظن ان شاعرنا كان من هذا النوع ، ولذا كان حريصاً على ان لا يسقط الخلفاء من قائمة ممدوحيه - رغم عدم اختصاصه بهم - وعلى ان يعمل على استرضائهم والتقرب اليهم بوزرائهم وحجائهم . ليس هذا فحسب بل انه كان يضمن احياناً مدحه لغير الخلفاء ابياتاً في مديح الخلفاء ايضاً .

ولا ريب في ان خطته هذه آتت اكلها في النهاية ، فبالاضافة الى ما اغدق عليه من مال اوكل اليه - بأمر المأمون وفضل وزيره الفضل بن سهل - منصب في خراسان كفاه الحاجة ووفر عليه الزلفى والملق ، كما سنرى .

اما اهم الصفات التي مدح بها ممدوحيه فتكاد تكون متشابهة : الغاية في الجود ، والفروسية ، وكرم الاصل ، ونفاذ الرأي ، وهي لعمرى الصفات التي يتكون منها المثل الاعلى للرجل عند العرب .

ولا بد لي هنا من سرد شيء عن علاقات مسلم بصفوة ممدوحيه ، فهذه العلاقات في الواقع تمثل بعض الجانب الختير من حياته :

مسلم والخلفاء : وفد مسلم من الكوفة الى بغداد ، موطن الخلفاء ورجال الحكم ،

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٧٠ ، ٥٠٣ ، ٥١٩ ، ٦٣٨ ، وابن خلكان ج ٥ ص ٣٧٠ - ٣٧٢ .

والبلاذري ص ٢١٠ ، ٤٠٢ .

(٢) راجع الجهني ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

ليدي بدلوه بين دلاء الشعراء الآخرين . وعلى الرغم من ان سنة وفوده لم تنقل الينا ، فان من المرجح ان تكون بين سنة ١٧٠ هـ ، وهي السنة التي تولى فيها الرشيد اول خليفة مدحه ، وسنة ١٨٣ هـ ، وهي السنة التي ترك فيها يزيد بن يزيد بمدوحه الرئيسي بغداد الى ارمينية .^(١) واغلب الظن ان كان قدومه في سنة متأخرة من هذه الحقبة ، فدأخه ليزيد ، وهو من اقدم من اختص بمدحه^(٢) ، تذكر في ما تذكره ثورة الوليد بن طريف الخارجي التي حدثت سنة ١٧٩ هـ ،^(٣) كما تذكر احداها^(٤) زيادة عن ذلك خبر هياج عصبي ثار في الشام لعله الهياج الذي يذكره الطبري^(٥) في حوادث سنة ١٨٠ هـ .

ومهما يكن الامر ، فقد لمع نجم مسلم في عهد خلفاء ثلاث: الرشيد ، والامين ، والمأمون . وعلى الرغم من انه لم يختص بأي من هؤلاء كما ذكر ، فانه مدح الرشيد والامين واستطاع ان يثير اعجاب المأمون .

صلته بالرشيد : يؤخذ مما ذكره دي خويه في مقدمته اللاتينية للدويان ان هناك اختلافاً في ما اورده الرواة عن دخول مسلم على الرشيد للمرة الاولى . فقد روى المبرّد^(٦) ان منصور بن يزيد الحميري ادخله عليه في يوم كان فيه الخليفة لِقِسَ النفس مهموماً ، فما ان انشده قصيدته :

أديراً عليّ الرّاحَ لا تشرباً قبلي ولا تَطْلُباً مِن عِنْدِ قَاتِلِي ذَخْلِي
حتى سرّى عنه وسمّاه بآخر بيت منها . وذكر ابن عبد ربه^(٧) رواية عن العتبي انه دخل عليه متهماً بالشيعة هو وأنس بن ابي شيخ وانه كاد ان يقتله لولا ان شفع له شعره وذكاؤه .

واغلب الظن عندي ان الامر قد التبس على دي خويه ، فليس في الرواية الثانية ما يشير الى انها تمثل اول دخول لمسلم على الرشيد . ولعل مصدر هذا

- (١) ابن خلكان ج ٥ ص ٣٧٠ ، والطبري ج ٣ ص ٦٤٨ .
- (٢) الاغانى ، مخطوطة ميونخ ج ٥ (دي خويه ص ٢٢٩)
- (٣) ابن خلكان ج ٥ ص ٣٧٢ .
- (٤) القصيدة السادسة في الديوان (البيت ٣٦) .
- (٥) الطبري ج ٣ ص ٦٣٩ ، وكذلك الجهنياري ص ٢٠٨ .
- (٦) جهرة الاسلام مخطوطة ليدن (دي خويه ص ٢٧٣) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي . ج ١٣ ص ٩٦ ، و ص ٧٩ من هذا الكتاب
- (٧) المقد الفريد ج ٢ ص ١٨٠ ، و ص ٦٧ من هذا الكتاب .

الالتباس عنده قرنه بين ما ذكرته هذه الرواية ايضاً من انشاد مسلم لقصيدة :
اديرا عليّ الراح لا تشربا قبلي ولا تطلبا من عند قاتلي ذحلي
وبين ما ذكره الرواة من ان الرشيد لقّب مسلماً صريع الغواني بآخر بيت
من هذه القصيدة في اول مقابلة جرت بينها^(١).

ولما لم يكن في الرواية الثانية ما يشير الى هذا التلقيب من قريب او بعيد ،
وكان هناك ما يشير الى ذلك في الرواية الاولى ، كانت الرواية الاولى اخلق بأن
تقترن باول مقابلة جرت بينها من الثانية . اصف الى ذلك ان الثانية تشير الى
قتل الرشيد لأنس بن ابي شيخ . وأنس هذا كان كاتباً للبرامكة قتله الرشيد - على
ما يذكر الجهشيارى^(٢) - عام ١٨٧ هـ مع جعفر البرمكي . وعلى ذلك فلو قرنا
هذه الرواية بالمقابلة الاولى لتعذر علينا تعليل التودّد الذي يظهره مسلم للعباسة
اخت الرشيد في احدى قصائده فيه^(٣) بعد ان قتل جعفر لصلته بها على اوثق
الروايات^(٤).

واذن فأنا ميّال الى تصديق الروايتين ، جملة لا تفصيلاً على الاقل ، وانا ميّال
كذلك الى ان اقرن الاولى منها باول اجتماع حدث بين مسلم والرشيد ، والى
ان اقرن الثانية بحملة التطهير التي قام بها الرشيد ضد من يعتقد بأنهم خصومه ،
ابان نكبة البرامكة .

ومها يمكن من امر هذه المقابلة ، فان مسلماً عرض فيها على الخليفة فناً لا
مديحاً . ويبدو ان الخليفة احب هذا الفن واعجب به^(٥) .

ومن الجدير بالذكر ان بعض رجال الخليفة كانوا يساعدون مسلماً في الدخول
عليه ويزينون له شعره احياناً . والظاهر ان ذلك شجعه فأخذ يحضر بعض
مجالس الخليفة ويمدحه^(٦) ، وقد مدحه بأربع قصائد :

(١) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٩٦ .

(٢) الوزراء والكتّاب ص ٢٣٩ .

(٣) القصيدة السابعة والخمسون في الديوان (الدهان ص ٢٧٩)

Nicholson's 'A Literary History of the Arabs' p. 261

(٤) نقل عن : Muller, Der Islam, Vol. I, p. 481 seg.

(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ .

(٦) الغيث المنسجم ج ٢ ص ٦ ، ونزهة الجليس ج ١ ص ١٥١ .

الاولى اربعون بيتاً ، ومطلعها :

خيالٌ من النَّاتِي الهوى المُتَبَعْدِ سَرَى فَسَرَى عَنْهُ عَزِيمُ التَّجَلُّدِ
والثانية سبعة وعشرون بيتاً ، ومطلعها :

قَدِ اطْلَعْتَ عَلَى سِرِّي وَإِعْلَانِي فَاذْهَبْ لَشَأْنِكَ لَيْسَ الْجَهْلُ مِنْ شَانِي
والثالثة خمسة عشر بيتاً ، ومطلعها :

عَاوِدْ عَزَاءَكَ لَا يَعْصِفُ بِكَ الذِّكْرُ مَاذَا الَّذِي بَعْدَ شَيْبِ الرَّأْسِ تَنْتَظِرُ
والرابعة اثنا عشر بيتاً ومطلعها :

هَاتِ اسْقِنِي طَالَ بِي الْحَبْسُ مِنْ قَهْوَةٍ بِائِعُهَا وَكَسْ
ولن اتعرض لفن مسلم الشعري في هذه القصائد الآن فهناك موطن آخر
لذلك ، وانما اود ان اشير الى نقطتين :

الاولى : ان القصيدتين الاوليين ، على الاقل ، لم تصلنا كاملتين ، فقد عبثت
بها يد الزمن فاقتطعت شيئاً من ابياتها . ويستدل على ذلك بعودة ضمير في البيت
التاسع والثلاثين من القصيدة الاولى على رجل لا ذكر له في ما سبقه من الابيات ،
وخلو القصيدة الثانية من اي بيت مديح ، بحيث لو لم يشر الشاعر في البيت
العشرين منها الى ان نياقه قد حملته الى الامام ، اي الرشيد ، لأشكل علينا
امرها وجعلنا فيمن قيلت اذ انها خالية من تصدير باسم الممدوح .

والثانية : ان القصيدة الرابعة تختلف عن اخواتها في انها اقرب منها الى
الالفه وابتعد عن الكلفة . ولعلها قيلت بعد اخواتها ، بعد ان توثقت صلة الشاعر
بالبرامكة فزادت من جرأته على الرشيد ودالته عليه ، وشجعتة على ان يسهب
في القصيدة في مدح اخته العباسية اثيرة جعفر البرمكي وحيبيته .

ولم يغب عن بال مسلم وهو يمدح ممدوحيه الآخرين ، ولا سيما يزيد بن يزيد ،
ان يذكر الرشيد وينوّه بفضله فقد قال في قصيدة يمدح بها يزيد ، وهو من بني
مطر^(١) :

سَلِّ الْخَلِيفَةُ سَيْفًا مِنْ بَنِي مَطَرٍ أَقَامَ قَائِمُهُ مَنْ كَانَ ذَا مَيْلٍ
كَمْ صَائِلٍ مِنْ ذُرَا تَهْمِيدٍ مَمْلُوكَةٍ لَوْلَا يَزِيدُ بَنِي شَيْبَانَ لَمْ يَصُلِّ
نَابُ الْإِمَامِ الَّذِي يَفْتَرُّ عَنْهُ إِذَا مَا افْتَرَّتِ الْحَرْبُ عَنْ أَنْبِيَائِهَا الْعُصُلِ
(١) القصيدة الاولى في الديوان .

وقال في قصيدة أخرى (١) مماثلة :

لولا يزيدُ وإيَّامُ له سَلَفَتْ عاشَ الوليدُ مع الغاوينَ أَعواما
سَلَّ الخليفةُ سيفاً من بني مطرٍ يَمْضِي فيخترقُ الأجسادَ والهاما
كالدهرِ لا ينثني تَحْتَنَ يَسْمُ بهم قد أَوْسَعَ الناسَ إنعاماً وإرغاما
ولذا كان الرشيد يرتاح لمثل هذه القصائد ويهتم بها ويكافئ صاحبها (٢).

ويخيل إليّ أن مسلماً كان البق في ذلك من جرير حين انقطع إلى مدح الحجاج واهمل عبد الملك فأثار سخطه عليه وكاد يثيره على ممدوحه لولا أن تدارك الحجاج ذلك فأرسله إليه وخصه به .

صلته بالأمين والمأمون :

وبعد وفاة الرشيد ولي الخلافة الأمين ثم المأمون وليس في ما وصل إلينا من أخبار ما يشعر بأن مسلماً كان ذا صلة وثيقة بأي منهما . وليس في الديوان كذلك سوى قصيدة واحدة يمدح فيها الأمين ، كما ليس فيه أية قصيدة يمدح فيها المأمون . ولعل من الخير أن أذكر هنا بعض أبيات من القصيدة التي يمدح بها الأمين لتبين موقفه من الفتنة التي ثارت بين الأخوين . قال :

كافي الإمامُ الورى طراً باجمِعِها وفاقَهم ببيوتِ المجدِ يَبْنِيها
رَأَى رَبُّكَ أهلاً إذ حباكَ بها فابقَ ودُمُ بسرورٍ ناعماً فيها
أَحْيَا المكارمَ هَرُونَ وأَثْبَتَها وانتَ في الناسِ يا ابنَ الغُرِّ تَمْضِيها
يا مُثَبَّتَ المُلْكِ إذ زالت دَعائِمُها وثارَ بالفتنةِ العمياءُ باغِيها
ثم قال :

أَخَذْتَ بالشرقِ نيراناً مُوجَّجَةً قد كانَ عزّاً على الإسلامِ مُخْبِيها
حَتَّى بُعِثَتْ عليها رَحْمَةٌ فَخَبَتْ نيرانُها بِكَ فانفَتَّتْ أَفَاعِيها
ما ضَيَّعَ اللهُ قوماً صرَتْ تَمَلِكُهمُ ولا اضاعَ بلاداً انتَ واليها
من هذا يظهر أن مسلماً كان يبدي ميلاً للأمين — على الأقل في الظاهر حين كان في قبضته — ولذا فهو يذكر أن ربه حباه بالخلافة لأنه أهل لها ، ويدعوله بأن

(١) القصيدة السادسة في الديوان .

(٢) انظر الغيث المنسجم ج ٢ ص ١٨٧ ، والاغاني — مخطوطه ميونيخ ج ٥ (دي خويه ص ٢٣٢) ، والمستجد من فعلات الاجواد ص ١٠٠ ، ووفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٨٤

يبقى ويستمر فيها ناعماً هائىء البال بعد ان اخمد نيران الفتنة . ولكنه من الجهة الاخرى لا يعرض بالمأمون ولا يذكر اسمه ربما لانه كان يميل اليه في الباطن او لانه كان يتوخى الحذر تجاهه . ولعل حذره هذا من ناحية ، ومديحه للفضل ابن سهل وزير المأمون ونصيحه المخلص ، من ناحية اخرى ، هما اللذان انجياه من قبضة المأمون حين استقر له الحكم .

وقد ذكر ابن المعتز^(١) بعد ان اورد ابياتاً من قصيدة لأبي الشيص ، انه قد بلغه « ان هذه القصيدة انشئت عند المأمون فأفرط في استحسانها ، ثم انشد في ذلك المجلس جماعة من حذاق المحدثين ، مثل بشار ومسلم بن الوليد ونظرائهما ، فلم يهش شيء من ذلك ، وفضل عليهم ابا الشيص » .

غير ان اصحاب المأمون ، ولعل الفضل بن سهل منهم ، كانوا يرتعبنه في مسلم كما يبدو ، فقد روى الاصبهاني قال^(٢) : « اجتمع اصحاب المأمون عنده يوماً فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء ، فقال له بعضهم اين انت يا امير المؤمنين : عن مسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رثى رجلاً ، أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر وحيث مدح رجلاً بالشجاعة فقال :

يُجودُ بالنفسِ اذ ضنَّ الجوادُ بها والجودُ بالنفسِ أقصى غايةِ الجودِ
وهجا رجلاً لقبح الوجه والاخلاق فقال :

قُبِّحَتْ مناظرُهُ فحينَ خَبِرْتُهُ حَسَنْتَ مناظرُهُ لِقُبْحِ المَخْبَرِ
وتغازل فقال :

هوَى يَجِدُ وحبیبٌ يلعبُ انتَ لَقَى بينهما معذبٌ
فقال المأمون : هذا أشعر من خضتم اليوم في ذكره . »

ولقد بلغ من اعجاب المأمون بعد ذلك ببعض شعر مسلم — على الاقل — ان اخذ يتمثل ببيته :

أكرهُ شَيْئاً وأخشى أنْ يُزايِلَنِي أعجِبْ بشيءٍ على البغضاءِ مودودِ

(١) طبقات الشعراء ص ٨٦ .

(٢) الاغانى — مخطوطة ميونخ ج ٥ (دي خويه ص ٢٣١) ومعاهد التنصيص ص ٣٦٠ .

حين اخذ الشيب يدب في رأسه (١) ، وأن ولّى محمد بن الجهم ولايتي همدان
ونهاوند لبيتين من شعر انشدما اياه :

روي ان محمد بن الجهم البرمكي قال: (٢) «قال لي المأمون يوماً يا محمد انشدني
بيتاً من المديح جيداً فاخراً عربياً لمحدث حتى اوليك كورة تختارها قال قلت
قول علي بن الحليل :

فَمَعَ السَّاءِ فِرْعَوُ نَبَعَتِهِمْ وَمَعَ الْحَضِيضِ مَنَابِتُ الْغَرَسِ
مُتَهَلِّلِينَ عَلَى أَسْرَتِهِمْ وَلَدَى الْهِيَاجِ مَصَاعِبُ شَمْسٍ

فقال : احسنت قد وليتك الدينور فانشدني بيت هجاء على هذه الصفة حتى
اوليك كورة اخرى فقلت قول الذي يقول : (٣)

قَبَحَتْ مَنَاطِرُهُمْ فَحِينَ خَبَرْتُهُمْ حَسُنَتْ مَنَاطِرُهُمْ لَقَبِحَ الْمَخْبَرِ

فقال : قد احسنت قد وليتك همدان فانشدني مرثية على هذا حتى ازيدك
كورة اخرى فقلت قول الذي يقول : (٤)

ارادوا ليُخَفُوا قَبْرَهُ عَنْ عَدُوهِ فَطِيبُ تَرَابِ الْقَبْرِ دَلٌّ عَلَى الْقَبْرِ

فقال: قد احسنت قد وليتك نهاوند فانشدني بيتاً من الغزل على هذا الشرطاً
حتى اوليك كورة اخرى فقلت قول الذي يقول : (٥)

تَعَالِيْ نَجْدَدُ دَرَسَ الْعِلْمَ بَيْنَنَا كَلَانَا عَلَى طَوْلِ الْجَفَاءِ مَلُومٌ

فقال : قد احسنت قد جعلت الخيار اليك فاختر فاخترت السوس من كور
الاهواز فولّاني ذلك اجمع ووجهت الى السوس بعض اهلي .

مسلم والبرامكة :

عرف البرامكة بكرمهم وحبهم للعلم والادب. (٦) ولذا التف حولهم كثير

(١) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٩٦ .

(٢) الاغانى ج ١٣ ص ١٦ .

(٣) البيت لمسلم (الدعان ص ٣٢١)

(٤) البيت لمسلم (الدعان ص ٣٢٠)

(٥) البيت للعباس بن الاحنف . الاغانى ج ٨ ص ٢١ وديوان العباس بن الاحنف - ط.
مصر - ص ٢٣٠ وقد جاء البيت في الديوان هكذا :

تعالوا نجدد دارس الوصل بيننا كلاً على طول الجفاء ملوم

وفي رواية اخرى : «دارس العهد» .

(٦) الفخري ص ١٤٤ ، الجهشيارى ص ٢٠٢-٢٠٣ .

من الشعراء امثال ابا ب ن عبد الحميد اللاحقي وابن مناذر والرقاشي واشجع السلمي ومسلم بن الوليد. (١)

ويؤخذ من رواية وصلت اليها ان مسلماً لم يكن مختصاً بهم في بادئ الامر ، بل كان يتصل بهم وبيزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد (٢) في الوقت نفسه ، وكان هؤلاء جميعاً « يبرونه ويتعطفون عليه ويتفقدون احواله » كما تقول الرواية (٣) واغلب الظن انه كان يود ان يتخذ من هؤلاء طريقاً للوصول الى الرشيد ، فيزيد قائده ، وابن منصور حاجبه ، والبرامكة وزراؤه واعوانه . ولكنه حين اصبح « كاليائس من قرب الخليفة » - على حد قوله (٤) - اتبع الطريق التي لم يجد عنها مندوحة فاختص بيزيد (٥) والبرامكة (٦).

وقد ذكر العباسي (٧) رواية عن ابي القاسم الفقيه الموصلبي ان مسلماً كان منقطعاً الى البرامكة ثم اتصل بعد ذلك بالفضل بن سهل ويستنتج من هذه الرواية وما سبقها ان انقطاع مسلم للبرامكة تلا انقطاعه ليزيد ، ولعل انقطاعه لهم كان على اشدّه في الفترة التي تلت وفاة يزيد (سنة ١٨٥ هـ) وسبقت نكبتهم (سنة ١٨٧ هـ) .

ومها يكن الامر فقد مدح مسلم البرامكة فقرّبوه منهم ، واجلسوه مجالسهم ، واغدقوا عليه العطاء :

روى الاصبهاني (٨) ان مسلماً « دخل يوماً على الفضل بن يحيى وقد كان اتاه خبر سرّ فجلس للشعراء فمدحوه واثابهم ، ونظر في حوائج الناس فقضاها ، وتفرّق الناس عنه وجلس للشرب ، ومسلم بن الوليد غير حاضر لذلك وانما بلغه حين انقضى المجلس ، فجاءه فأدخل اليه فاستأذن في الانشاد فأذن له فأنشده قوله فيه :

- (١) زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٥٧ .
- (٢) كاتب البرامكة وخليفة الفضل بن جعفر بباب الرشيد . راجع الجبشباري ص ١٩٠ ، ٢٦٦ .
- (٣) جمهرة الاسلام ، مخطوطة ليدن «الدهان ص ٢٩» .
- (٤) نفسه «الدهان ص ٤٣٩» .
- (٥) ابن خلكان ج ٥ ص ٣٧١ .
- (٦) معاهد التنصيص ص ٣٦١ .
- (٧) نفسه
- (٨) مخطوطة دار الكتب للآلغاني «الدهان ص ٣٨١-٣٨٢» ، والمستجاد من فعلات الاجواد ص ١١٤ .

اتتك المطايا تهدي ببطية عليها فتى كالتصل مؤنسه التصل
يقول فيها :

وردت رواق الفضل آمل فضله
فتى ترتعي الآمال مزنة جوده
تساقط يمناه الندى وشماله
ألح على الأيام يقري خطوبها
أناف به العليا يحى وخالد
فروع أصابت مغرساً متمكناً
بكف أبي العباس يستمطر الغنى
وتستزل النعمى ويسترعف التصل

قال : فطرب الفضل طرباً شديداً ، وأمر بأن تعدّ الأبيات فعدت ، فكانت
ثمانين فامر له بثمانين ألف درهم ، فقال : لولا أنها أكثر ما وصل به الشعراء لذتكت
ولكنه شأؤ لا يمكنني أن أتجاوزه ، يعني أن الرشيد رسمه لمروان بن أبي حفصة ،
وامره بالجلوس معه والمقام عنده لمناذمته ، فأقام عنده ، وشرب معه . وكانت
على رأس الفضل وصيفة كأنها لؤلؤة ، فلمح الفضل مسلماً ينظر إليها فقال : قد
وحياي يا أبا الوليد أعجبتك فقل فيها أبياتاً حتى أهبها لك . فقال :

ان كنت تسقين غير الراح فاسقيني
عيناك راحي وريحاني حديقك لي
إذا نهاني عن شرب السلا حرج
لولا علامات شيب لو أتت وعظت
أرضي الشباب فإن أهليك فعن قدر
كأساً ألدّها من فيك تشفيني
ولون خديك لون الورد يكفيني
فخمر عينيك يغنيني ويخزيني
لقد صحت ولكن سوف تأتيني
وان بقيت فإن الشيب يشقيني

فقال خذها بورك لك فيها وأمر بتوجيهها مع بعض خدمه اليه .

وكان الفضل يعظمه ويكرمه ويفضله على أبي نواس :

حدثت رابعة البرمكية قالت : (١) « كنت يوماً وأنا وصيفة على رأس
مولاي الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي وبيدي مذبة أذب بها عنه إذا استؤذن
لمسلم بن الوليد الانصاري فأذن له ، فلما دخل اعظمه واكرمه واستنشدته . قالت
ثم خلع عليه واجازته وانصرف ، فما قلت انه جاز الستر حتى استؤذن لأبي نواس

(١) معاهد التنصيص ص ٣٦١

فامتنع من الاذن له حتى سأله بعض من كان في المجلس ان يأذن له ففعل على تكرّره منه . فلما دخل سلم عليه فما علمت انه رد عليه ولا امره بالجلوس ولا رفع اليه رأسه ، فلما طال عليه الوقوف قال معي ابيات أفأنشدها ، قال افعل وهو في غاية التكرّره والثقل فأنشده اياها... فلما بلغ الى قوله :

ساشكو الى الفضل بن يحيى بن خالدٍ هواك لعلّ الفضل يجمع بيننا
قطّب وجهه وقال أمسيك عليك لعنة الله، أغرب قبّحك الله، وأمر باخراجه
محروماً فأخرج ، والتفت الفضل الى أنس بن أبي شيخ وقال: ما رأيت مثل هذا
الرجل ولا اقل تمييزاً في كلامه منه. فقال أنس ان اسمه كبير. فقال عند من ويملك
هل هو الا عند سقاط مثله وخلق يشاكلونه؟ فقال واين هو من مسلم؟ فقال الفضل
وقد غضب، والله لاحجبتك ثلاثاً ولا كلمتك سبعاً اذ كان هذا مبلغ عقلك ونهاية
معرفتك والله ان مسلماً ليفضل عندي الطبقة المقدمة او يساويهم فلا رأيتك ثلاثاً. »

ويبدو انه كان يطيب للفضل ايضاً ان يستأنس بأراء نقّاد الشعر وخبرائه في
شعر مسلم، فقد طلب مرة من اسحاق الموصلي ان يحكم أي الشاعرين أشعر، مسلم
ابن الوليد أم منصور النّمري، حين كانا ينشدانه، فاعتذر عن اعطاء جواب صريح
ولكنه وصف شعر كل منهما فقال : « أما النّمري فان شعره حسن المبني قريب
المعنى... واما مسلم فانه مزج كلام البدويين بكلام الحضريين، فضمّنه المعاني
اللطيفة ، وكساه الالفاظ الظريفة ، فله جزالة البدويين ورقة الحضريين » (١) .
ولا بد ان وقع هذا القول موقعاً حسناً عند الفضل لما نعلمه من ايثاره لمسلم
وحبه اياه .

ويؤخذ مما قاله الرواة من ان مسلماً كان منقطعاً للبرامكة ان لا بد ان نظم
فيهم شعراً كثيراً، فاذا صح هذا كان الكثير من هذا الشعر قد فقد ، اذ لم يصلنا
منه سوى بيتين في مدح يحيى بن خالد ، (٢) وقصيدة ومقطوعة في مدح جعفر

(١) مقدمة حمزة الاصهاني لديوان ابي نواس ، طبع آصاف ، ص ١٢-١٣ (نقلًا عن الامالي لابن دريد)

(٢) البيتان هما :

اجدك ما تدرين ان رُب ليلة كان دجاها من قرونك تنشر
صبرت لها حتى تجلت بغرة كفرة يحيى حين يذكر جعفر

ابن يحيى^(١)، وقصيدة واحدة في مدح الفضل بن جعفر.^(٢)

ويذكرني هذا بما ذكره حمزة الاصبهاني^(٣) من ان مدائح ابي نواس في جعفر بن يحيى البرمكي لم يبق منها شيء في ايدي الناس . واغلب الظن ان السبب في كلا الحالتين خشية معظم الرواة من رواية ما قيل في مديح البرامكة ، بعد نكبتهم . وكما ضاع كثير من مدائح مسلم للبرامكة كذلك ضاعت اخبار اتصاله بيحيى وجعفر وحضوره مجالسها ، اذ يستبعد ان لا يكون قد اتصل بها وحضر مجالسها كما حضر مجالس الفضل ، وهو الذي يمدحها في ما بقي لدينا من شعره .

ولئن لم تظهر عواطف مسلم الحقيقية تجاه البرامكة في ما نوهنا اليه من قصائد ومقطوعات لغلبة طابع المديح الرسمي عليها ، فانها ظهرت واضحة جليلة في مقطوعة قالها مودعاً شخصاً اسمه اسماعيل^(٤) كان على ما يظهر يريد السفر الى مرو مقر الفضل بن يحيى حين كان والياً على خراسان . قال :

أَمُنْتَجِعاً مَرَوْاً بِأَثْقَالِ هِمَّةٍ دَعَى الثَّقَلَ وَاحْمِلْ حَاجَةً مَا لَهَا ثَقُلُ
ثَنَاءٌ كَعَرَفِ الطَّيْبِ يُهْدَى لِأَهْلِهِ وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا بَنِي خَالِدٍ أَهْلُ
فَإِنْ اغْشَى قَوْمًا بَعْدَهُمْ أَوْ أَزُورُهُمْ فَكَالْوَحْشِ يَسْتَدْنِيهِ لِلْقَنْصِ الْمَحَلُ

مسلم **وزيد بن مزيد** : يزيد بن مزيد امير وقائد شجاع ، ينتمي الى بني شيبان الذين عرفوا ببلائهم في الجاهلية وحروب الفتوح^(٥) . شبَّ محباً للفروسية فأحبه الحلفاء واتخذوا منه عوناً على اعدائهم . وترجع اقدم صلته بهم الى المنصور الذي ولّاه سجستان ثم عزله عنها لوشاية^(٦) . وحين ولي المهدي ارسله اليها سنة ١٦٠ هـ

(١) تقع القصيدة في اثنين واربعين بيتاً ، وهي القصيدة الاربعون في الديوان ومطلعها :
استمطر العين ان احبابه احتسبوا لو كان زدة البكاء الحي اذ رحلوا
وتتألف المقطوعة من ستة ابيات (رقم ١٧ في الديوان) .

(٢) وتقع في تسعة وسبعين بيتاً ، وهي القصيدة الخامسة والاربعون في الديوان . ومطلعها :
تَعَزَّرَ فَقَدْ مَاتَ الْهَوَى وَانْتَهَى الْجَهْلُ فَرَدَّ عَلَيْكَ الْحِلْمَ مَا قَدَّمَ الْعِذْلُ

(٣) مقدمته لديوان ابي نواس (ط . آصاف) ص ٦

(٤) جاء في كتاب الورقة لابن الجراح ص ٨٠ ان اسماعيل هذا هو اسماعيل بن جرير صديق مسلم ونديمه واليفه . وجاء في سمط الآتي للبكري ص ٢٧ انه من البرامكة .

(٥) راجع جهرة انساب العرب ص ٣٠٤ - ٣٠٨

(٦) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٤٠١ .

للقضاء على ثورة يوسف بن ابراهيم^(١) التي يشير اليها مسلم بثورة يوسف البرم^(٢). ثم ارسله بحملة الى بلاد الروم بصحبة ابنه هارون سنة ١٦٥ هـ.^(٣) وبعد ذلك بسنتين ارسله مع ابنه موسى الى جرجان لمحاربة صاحبي طبرستان.^(٤) وفي جميع ذلك اظهر تفوقاً وشجاعة سجلها مسلم في شعره الذي قاله فيه .

وحين افضت الخلافة الى الهادي اراد خلع هارون عن ولاية العهد لابنه جعفر بن موسى فأقره قواده على ذلك ومنهم يزيد ، وكان ذلك سنة ١٧٠ هـ.^(٥) ويبدو ان يزيد عين والياً على ارمينية حوالي تلك المدة ، غير ان الرشيد عزله عنها سنة ١٧٢ هـ.^(٦) ولما استفحل امر الوليد بن طريف الخارجي ، الذي خرج على الرشيد في الجزيرة الفراتية سنة ١٧٨ هـ ، والذي يذكره مسلم في مدائحه ليزيد ، اضطر الرشيد الى استدعاء يزيد وارساله اليه فقتله وبدد جماعته.^(٧) وفي سنة ١٨٣ هـ ولأه الرشيد ارمينية مع اذربيجان على اثر تهديد الخزر لهما واحتلالهم ارمينية.^(٨) غير انه ما لبث ان مات عام ١٨٥ هـ ودفن ببرذعة^(٩) احدى مدن اذربيجان ، او أَرَّان — على ما يقول ياقوت.^(١٠)

ان شخصاً هذه سيرته وتلك صلته بالخلفاء لا بد ان يستهوي صاحبنا مسلم فيعمد الى الاتصال به ومدحه . ولسنا نعلم تماماً متى بدأ هذا الاتصال ، ولكنه حصل على كل حال واختص مسلم بصاحبه وآثره بمدائحه . وقد وصل الينا من

(١) راجع الطبري ج ٣ ص ٤٧٠ ، والكامل لابن الاثير ج ٥ ص ٥٤ .

(٢) البيت السابع والخمسون من القصيدة الاولى في الديوان .

(٣) وهي الحملة التي حدثت فيها وقعة «الخليج» قرب قسطنطينة، تلك الواقعة التي يشير اليها مسلم في البيت الخامس والخمسين من القصيدة نفسها . راجع الطبري ج ٣ ص ٥٠٣ .

(٤) وندا هرمز وشروين ، ويذكرهما الطبري ، ج ٣ ص ٥١٩ .

(٥) الطبري ج ٣ ص ٥٧١ .

(٦) ابن خلكان ج ٥ ص ٣٧٠ ، الطبري ج ٣ ص ٦٠٧ .

(٧) الطبري ج ٣ ص ٦٣٨ ، سيد امير علي ص ٢٠٨ . وكان قتله عام ١٧٩ (راجع الاعلام للزركلي)

(٨) الطبري ج ٣ ص ٦٤٨ سيد امير علي ص ٢٠٨ . ويشير الى ذلك مسلم في البيت الحادي عشر من القصيدة الحادية والاربعين من الديوان التي يمدح فيها هارون الرشيد .

(٩) ابن خلكان ج ٥ ص ٣٨٢ .

(١٠) معجم البلدان ج ١ ص ١١٩-١٢٠ . راجع ايضاً ابن خلكان ج ٢ ص ٢٨٨ .

هذه المدائح قصيدتان ومقطوعة تتألف من أربعة أبيات. ^(١) وأولى هاتين القصيدتين من أجود ما عرفنا من شعر مسلم في المديح، وهي تتكون من تسع وسبعين بيتاً، بينما تتكون الثانية من سبعة وثلاثين. فكلتاها تتضمنان من الوقائع ما يجعل منها سجلاً لحياة الممدوح وفعاله، وبالتالي لأهم حوادث عصره.

ولعل أكثر اتصال جرى بين مسلم ويزيد كان بين سنتي ١٧٢ و ١٨٣ هـ حين لم يكن يزيد والياً على أرمينية، أو أذربيجان. غير أننا لا نستبعد أن يكون مسلم قد زار ممدوحه في تلك البلاد النائية فهناك رواية تقول بأنه كان في صحابته حين توفي ببرذعة سنة ١٨٥ هـ ^(٢)، وهناك رواية أخرى تقول أن شاعراً كان «يقف إلى يزيد بن مزيد في كل سنة»، فقال له يزيد: كم يكفيك في كل سنة؟ فقال: كذا وكذا، فقال: اقم في بيتك يأتك ذلك ولا تتعبنّ الينا. ^(٣) وقد اختلف في من يكون ذلك الشاعر فقليل هو مسلم وقليل هو التيمي ^(٤).

وكما لا نعلم متى اجتمعا أول مرة لا نعلم أيضاً كيف اجتمعا هذه المرة، فقد وصلت الينا في ذلك خمس روايات متغايرة هي:

١ - روي أن البيدق الراوية - وهو من أهل نصيبين قال: ^(٥) «دخلت حار يزيد بن مزيد يوماً وفيها الخلق وإذا فتى شاب جالس في افناء الناس ولم يكن يزيد عرفه بعد، وإذا هو مسلم بن الوليد، فقال لي: ما في نفسي أن أقول شعراً ابداً. قلت: ولم؟ قال: لاني قد مدحت هذا الرجل بشعر ما مدح بمثله قط ولست أجد من يوصله. فقلت: انشدني بعضه، فأنشدني منه:

(١) القصيدة الأولى هي الأولى في الديوان، ومطلعها:
أجررتُ حبلَ خليعٍ في الصَّبَا غزلٍ وشمرتُ هِمَمُ العذَّالِ في العذلِ
والقصيدة الثانية هي السادسة فيه، ومطلعها:
طيف الحبال حمداً منه إلماً داويت سقماً وقد هبجت أسقاما
أما المقطوعة فهي العاشرة، ومطلعها:
لولا سيوف أبي الزبير وخيله نشر الوليد بسيفه الضحكا
وأبو الزبير كنية يزيد في الحرب، أما كنيته في السلم فأبو خالد (راجع البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤٢)

(٢) ابن خلكان ج ٥ ص ٣٨١.

(٣) الأماالي ج ٢، ص ٨٤.

(٤) نفسه.

(٥) مخطوطة ميونخ للاغاني (دي خويه ص ٢٣٦).

مَوْفٍ عَلَى مَهَجٍ فِي يَوْمٍ ذِي رَهَجٍ كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْمَى إِلَى أَمَلٍ
(الآيات) (١)

قال فأخذت منها بيتين ثم قلت : انشدني أيضاً مالك ، فأنشدني قصيدة أخرى
ابتداؤها :

طَيْفَ الْخِيَالِ حَمِدْنَا مِنْكَ إِيْلَامَا دَاوَيْتَ سَقْمًا وَقَدْ هَيَّجْتَ أَسْقَامَا
يقول فيها :

كَالدَّهْرِ لَا يَنْثَنِي عَمَّا يَهْمُ بِهِ قَدْ أَوْسَعَ النَّاسَ إِنْعَامَا وَإِرْغَامَا
قال : فأنشدت هذه الأبيات يزيد بن مزيد فأمر له بخمسمائة درهم ثم ذكرته له
بالرقة (٢) فقلت له : هذا الشاعر الذي قد مدحك فأحسن تقتصر به على خمسمائة
درهم فبعث اليه بخمسمائة أخرى . قال : فقال لي مسلم : جاءتني وقد رهننت
طيلساني على رؤوس الأخوان فوقعت مني أحسن موقع .

٢ - روى مسلم انه وفد عليه يوماً رجل وهو في بيته ، وبعد ان استوثق من
هويته أخرج كتاباً من خفه وقال : (٣) « هذا كتاب الأمير يزيد بن مزيد اليّ
يأمرني ان لا افضه الا عند لقائك ، فاذا فيه اذا لقيت مسلم بن الوليد فادفع اليه
هذه العشرة آلاف درهم التي انفذتها تكون له في منزله وادفع اليه ثلاثة آلاف
درهم نفقة ليتحمل بها البنا ، فأخذت الثلاثة والعشرة ودخلت الى منزلي ...
واخذت في الجهاز ثم ما زلت معه حتى صرنا الى الرقة الى باب يزيد بن مزيد
فدخل الرجل فاذا هو احد حجبائه فوجده في الحمام فخرج اليّ فجلس معي قليلاً
ثم أخبر الحاجب بأنه قد خرج من الحمام فأدخلني اليه واذا هو على كرسي جالس
وعلى رأسه وصيفة بيدها غلاف مرآة وبيده هو مرآة ومشط يسرح به لحيته ، فقال
لي يا مسلم ما الذي بطأ بك عنا؟ فقلت : ايها الأمير قلة ذات اليد قال : فأنشدني ،
فأنشدته قصيدتي التي مدحته بها وهي :

أُجْرِرْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصَّبَا غَزَلٍ وَشَمَرْتُ هَمَّ الْعُذَالِ فِي الْعَذَلِ

(١) من القصيدة الاولى في الديوان .

(٢) مدينة على الفرات شمالي غرب بغداد ، كانت لها اهمية عسكرية في العصر العباسي لقربتها
من بلاد الثغور ، ولذا كانت ملائمة لاقامة القادة المسؤولين عن الحدود الشمالية الغربية من
هجمات البيزنطيين .

(٣) مخطوطة دار الكتب للأغاني ج ١٧ (الندهات ص ٣٦٨ - ٣٦٩) (راجع دي خويه
ص ٢٣٤ - ٢٣٥) .

فلما صرت فيها الى قولي :

لَا يَعْْبِقُ الطَّيْبُ خُدَيْهِ وَمَفْرِقَهُ وَلَا يُمَسِّحُ عَيْنِيهِ مِنَ الْكَحَلِ
وضع المرأة في غلافها وقال للجارية : انصرفي فقد حرّم علينا مسلم الطيب . فلما
فرغت من القصيدة قال لي : يا مسلم اتدري ما الذي حداني على ان وجهت اليك ؟
فقلت : لا والله ما ادري . قال : كنت عند الرشيد منذ ليالٍ اغمز رجليه اذ
قال لي : يا يزيد من القائل فيك :

سَلَّ الْخَلِيفَةُ سَيْفًا مِنْ بَنِي مَطَرٍ يَمْضِي فَيَخْتَرِمُ الْأَجْسَادَ وَالْهَامَا
كَالدَّهْرِ لَا يَنْثَنِي عَمَّا يَهْمُ بِهِ قَدْ أَوْسَعَ النَّاسَ إِنْْعَامًا وَإِرْغَامًا
فقلت : لا والله ما ادري . فقال لي الرشيد : يا سبحان الله ، انك لمقيم على اعرابيتك .
يقال فيك مثل هذا الشعر ولا تدري من قائله ؟ فسألت من قائله فأخبرت انك
انت هو فقم حتى ادخلك على امير المؤمنين ، ثم قام فدخل على الرشيد ، فما علمت
حتى خرج عليّ الاذن فاذن لي ، فدخلت على الرشيد ، فانشدته مالي فيه من الشعر
فأمر لي بمائتي الف درهم فلما انصرفت الى يزيد أمر لي بمائة وتسعين ألفاً وقال :
لا يجوز لي ان اعطيك مثل ما اعطاك امير المؤمنين ، واقطعني اقطاعات تبلغ
غلتها مائتي الف درهم .

٣ - روي ^(١) ان يزيد بن مزيد دخل على الرشيد فقال له الرشيد : يا يزيد
من الذي يقول فيك :

لَا يَعْْبِقُ الطَّيْبُ خُدَيْهِ وَمَفْرِقَهُ وَلَا يُمَسِّحُ عَيْنِيهِ مِنَ الْكَحَلِ
اِذَا انْتَضَى سَيْفَهُ كَأَنَّ مَسَالِكَهُ مَسَالِكُ الْمَوْتِ فِي الْأَبْدَانِ وَالْقُلُلِ

قال : لا ادري . قال : أفيقال فيك مثل هذا الشعر ولا تعرف قائله ؟ فلما
صار الى منزله كان مسلم بالباب فأمر بادخاله فانشده هذه القصيدة حتى ختمها
فقال لو كيده : بع ضيعتي الفلانية واعطه نصف ثمنها واحتبس نصفاً لنفقتنا .
فباعها بمائة الف درهم فأعطى مسلماً خمسين ألفاً فرفع الخبر الى الرشيد فاستحضر
يزيد وسأله عن الخبر فأعلمه الحديث فقال : امرت لك بمائتي الف درهم لتسترجع
الضيعة بمائة الف درهم وتزيد شاعرك خمسين ألفاً وتحبس خمسين ألفاً لنفسك .

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٨٤ ، والمستجد من فعلات الاجواد ص ١٠٠ ، ومخطوطة ميونيخ للاغاني
(دي خويه ص ٢٣٢ - ٢٣٣)

٤ - روي عن يزيد بن مزيد انه قال^(١) : « ارسل اليّ الرشيد يوماً في وقت لا يرسل فيه الى مثلي ، فأثبته لابساً سلاحي مستعداً لأمر ان اراده ، فلما رأيته ضحك اليّ وقال : من الذي يقول فيك :

تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل
لله من هاشم في أرضه جبل وانت وابنك ركننا ذلك الجبل
فقلت : لا اعرفه يا امير المؤمنين . فقال : سواء لك من سيد قوم يمدح بمثل
هذا الشعر ولا يعرف قائله ، وقد بلغ امير المؤمنين فرواه ووصل قائله - وهو
مسلم بن الوليد - فانصرفت ودعوت به ووصلته وواليته » .

٥ - حكى الخالديان عن مسلم^(٢) « من جملة خبره في وصوله الى يزيد قال :
فلما صرت الى الرقة دخلت على يزيد بن مزيد وبين يديه وصيفة بيدها المرأة وهي
تريه وجهه ويديه مشط يسرح به لحيته فقال ما الذي أبطأ بك عني قلت ايها
الامير ضيق اليد وقصور الحال . قال انشدته :

أَجْرَرْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصَّبَا غَزَلٍ وَشَمَّرْتُ هَمَمَ الْعَذَالِ فِي الْعَذَالِ
(القصيدة) فلما بلغت قولي :

لَا يَعْيقُ الطَّيْبُ خَدْيَهُ وَمَفْرِقَهُ وَلَا يَمْسَحُ عَيْنِيهِ مِنَ الْكَحَلِ
وضع المرأة من يده ورد المشط وقال للجارية انصرفي فقد حرّم مسلم علينا الطيب .
ويقال انه لما سمع هذا البيت قال منعتني الطيب وأمرهتني باقي عمري فما
رؤي بعد ذلك ظاهر الطيب ولا مكتحلاً ... »

ويلاحظ عند انعام النظر في هذه الروايات الخمس ان الروايات الاربع
الاخيرة منها تكاد تنتمي الى قصة تختلف اختلافاً كلياً عن قصة الرواية الاولى ،
اذ انها تشترك كلها - رغم اختلافاتها الجزئية - في عنصر او اكثر من عناصر
رئيسية اربعة هي : سماع الرشيد للشعر اولاً ، ثم اتصاله بيزيد ، واتصال يزيد
بمسلم ، وانشاد مسلم ليزيد . وهذا يحدونا على الاعتقاد بانها اجزاء من قصة واحدة
تشعّت وعبث الرواة باجزائها فاختلفت تفاصيلها .

وعلى ذلك فاننا نرى انفسنا امام قصتين متغايرتين للمقابلة الاولى بين مسلم

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٨٥ ، ومخطوطة ميونخ للاغاني (دي خويه ص ٢٣٢) .

(٢) الفيت المنسجم ج ٢ ص ١٨٧ .

وزيد ، قصتين ليس من السهل ترجيح احدهما على الاخرى فكل منهما ممكن من الناحية المنطقية (Logically possible) كما يقول اهل الفلسفة .

ومهما يكن من امر هذه المقابلة ، فلا ريب انه تلتها مقابلات اخرى كانت ينشد فيها مسلم مدائح في يزيد . ويبدو ان يزيد كان يرتاح لهذه المدائح ويعمل على ان يكون حقيقاً بها ، اذ كان قد اخذ على نفسه بان لا يكذب شاعراً يصفه بوصف ، كما يقول الصفدي (١) .

وازاء هذه المدائح لم يكن يزيد ليقصر في حق صاحبه ، فقد سأل يوماً « عما يكفيه ويكفي عياله فاخبره فجعله جراً له ثم قال : ليس هذا مما تحاسب به بدلاً من جائزة او ثواب مديح ، وكان يبعث به اليه في كل سنة » (٢) .

ويبدو ان الرشيد كان راضياً ايضاً عن هذا المديح ، فلقد انكر على يزيد جهله لقائله ، كما ساعده على ارفاده وعطائه . ولعل السبب في ذلك هو ان مدح مسلم في يزيد لم تكن تخلو من مدح للرشيد نفسه ، ففي القصيدة الاولى يجعل من ممدوحه سيفاً في يد الخليفة سله على اعدائه حين يقول :

سَلَّ الخليفة سيفاً من بني مطرٍ أقام قائمته من كان ذا ميلٍ
كما يجعل منه ناباً يفتري عنه في الحرب حين يقول :

نابُ الامام الذي يفتري عنه اذا ما افترت الحرب عن أنبيائها العُصْل
ولا يكتفي بذلك بل يجعل في بيت آخر من الخليفة جبلاً ومن الممدوح وابنه ركنين لذلك الجبل فيقول :

الله من هاشم في أرضه جبلٌ وانت وابنك رُكننا ذلك الجبل
وفي القصيدة الثانية يجعل من الممدوح منية في يدي الخليفة يقذف بها الاعداء اذ يقول :

منية في يدي هارون يبعثها على اعدائه إن سأمي وإن حاما
ولا ريب في ان مديح مسلم ليزيد رفع من مكانته بين الناس ، فقد حكى ابن خلكان (٣) رواية عن بعضهم قال : « كنت مع يزيد بن مزيد فاذا صائح في الليل :

(١) تشييف السمع ص ٥

(٢) مخطوطة ميونيخ للاغاني (دي خويه ص ٢٤٩) .

(٣) وفيات الاعيان ج ٥ ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

يا يزيد بن يزيد ، فقال : عليّ بهذا الصائح ، فلما جيء به قال له : ما حملك على ان ناديت بهذا الاسم ؟ فقال : نَفَقْتُ دابتي ونفدت نفقتي ، وسمعت قول الشاعر فتيمنت به ، فقال : وما قال الشاعر ؟ فانشد :

اذا قيلَ من للمجدِ والجودِ والنديِّ فنادِ بصوتِ يا يزيدُ بنُ مَزيدِ
فلما سمع يزيد مقالته هشَّ له ، وقال له : أتعرف يزيد بن يزيد ؟ قال : لا والله قال : انا هو ، وامر له بفرس ابلق كان معجباً به وبمائة دينار .

والغريب ان تحدث بعد هذا بين مسلم ويزيد جفوة يضطر فيها مسلم الى هجاء يزيد هجاءً مقدعاً^(١) . ولسنا نعرف سبباً لهذه الجفوة على وجه التحقيق ، غير انه قيل ان مسلماً هجا معنأ عم يزيد فغضب يزيد لعمه^(٢) ، وقيل انه تجاوز الحدود مع يزيد فأقصاه عنه^(٣) ، وقيل ايضاً ان يزيد اغضبه فهجاءه^(٤) وعلى اي حال فالظاهر ان يزيد تضايق من هذا الهجاء فشكا الى الرشيد الذي هدده بنزع لسانه من فمه ان عاد الى هجوه فكف عنه ، وما ذكره بخير او شر بعد ذلك - على حد قوله^(٥) .

ويخيل اليّ ان التوفيق بين ما ورد في نهاية هذه الرواية وبين ما قاله بعض الرواة من ان مسلماً كان في صحبة يزيد حين توفي ببرذعة وانه رثاه حينذاك يكاد يكون متعذراً . والواقع ان قضية رثاء مسلم ليزيد تختلف فيها ، فبينما يورد الديوان قصيدة في رثائه مطلعها :

أَحَقُّ أَنَّهُ أَوْ دَى يَزِيدُ تَأْمَلُ أَيُّهَا النَّاعِي الْمُسِيدُ

يذكر الاصبهاني وابن خلكان ان هذه القصيدة نفسها هي لشاعر آخر هو التيمي^(٦) . وبينما نجد في ياقوت مقطوعة^(٧) في رثائه ايضاً ، مطلعها :

(١) مما يقوله فيه في هذا الباب ويدل على قلة وفاء مسلم :

أيزيد يا مغرور ألام من مشى ترجو الفلاح وانت نطفة مزيد
ان كنت تنكر منطقتي فاصرخ به يوم العروبة عند باب المسجد
فيمن يزيد فان اصببت بيزيد فلما فهاك على غاطرة يدي
(راجع دي خويه ص ٢٤٨ - نقلًا عن مخطوطة ميونيخ للاغاني) .

(٢) علوان ص ١١١ .

(٣) نفسه .

(٤) مخطوطة ميونيخ للاغاني (دي خويه ص ٢٣٥) .

(٥) نفسه .

(٦) مخطوطة ميونيخ للاغاني (دي خويه ص ٢٤٩) ، وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٧) معجم البلدان ج ١ ص ٥٥٩ .

قبرٌ ببرذعةٍ استسرَّ ضريحُه خطراً تقاصرُ دونه الافكارُ
نجد ابن خلكان يعلق على المقطوعة بقوله ^(١): « ان مسلم بن الوليد انما رثى بهذه
الابيات يزيد بن احمد السلمي وقيل بل رثى بها مالك بن علي الخزاعي ، وان
اول الابيات : قبر بجلوان استسر ضريحه ، لأن الذي قيلت فيه مات بجلوان
بضم الحاء المهمة ، وهي آخر مدينة بأرض السواد من اعمال العراق ، والله اعلم
بالصواب في ذلك » .

ومن الواضح ان من المتعذر استخلاص الحقيقة من بين هذه الاقوال المتضاربة .

مسلم والفضل بن سهل :

الفضل بن سهل خراساني الاصل من مدينة سرخس ^(٢) . اتصل بالفضل بن
جعفر وتقلد قهرمته ^(٣) ، ثم اوصله جعفر بن يحيى الى المأمون قبل ان يصبح
خليفة فأسلم على يديه سنة ١٩٠ هـ واخذ يلزمه . وحين حصلت الفتنة بين الامين
والمأمون كان الفضل بن سهل مع المأمون في خراسان ^(٤) يقدم له النصائح ويشير
عليه بما يعمل حتى قتل الامين وآلت الخلافة اليه عام ١٩٨ هـ ، وحينذاك « جعل
له الوزارة وقيادة الجيش معاً فكان يلقب بذئ الرياستين . ^(٥) »

واتصل مسلم بالفضل . ومن الراجح ان كان ذلك بعد ان أسلم الفضل وقرّبه
المأمون اليه سنة ١٩٠ هـ ، وبالتالي بعد نكبة البرامكة الذين كان قد انقطع اليهم
مسلم قبل ان ينقطع اليه . ولكن السؤال الذي يبرز الآن هو اين حدث هذا
الاتصال ؟ لقد اغفلت كتب الادب والتاريخ ذلك للأسف ، غير اننا سنحاول
الوصول الى رأي في هذا الصدد ما امكن . يذكر ابن طباطبا ^(٦) ان مسلماً كان
« نديماً للفضل بن سهل قبل وزارته » فإين كان الفضل حينذاك ؟ يؤخذ من كتب
التاريخ ان الفضل كان في بغداد قبل سفره مع الرشيد والمأمون الى خراسان
سنة ١٩٣ هـ ، وانه كان في خراسان مع المأمون بين سنتي ١٩٣ و ١٩٨ هـ . وعلى
الرغم من اننا لا نستطيع ان نستبعد امكانية معرفة مسلم له واتصاله به في بغداد

(١) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) نفسه ج ٣ ص ٢٠٩ .

(٣) الجهشاري ص ٢٣٠ .

(٤) الفخري ص ١٥٦ ، وسيد امير علي ص ٢١٩ .

(٥) الاعلام للزركلي .

(٦) الفخري ص ١٦٣ .

بين سنتي ١٩٠ و ١٩٣ هـ ، فانتنا نكاد نجزم بان اتصاله الحقيقي به وصيرورته
نديماً له لا بد ان كانا في خراسان بين سنة ١٩٣ وهي السنة التي ذهب فيها مع
الرشيد والمأمون الى خراسان ، وسنة ١٩٨ وهي السنة التي عاد فيها من خراسان
مع المأمون بعد مقتل الامين . ونعتمد في رأينا هذا على ما يلي :

١ - رواية وصلت اليها عن دعبيل تقول ^(١) : خرج دعبيل الى خراسان لما
بلغه حظوة مسلم بن الوليد عند الفضل بن سهل فصار الى مرو وكتب الى الفضل
ابن سهل :

لا تعبأَنَّ بِابْنِ الْوَلِيدِ فَانْهَ يَرْمِيكَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ بَلَالٍ
إِنَّ الْمَكُولَ وَأَنْ تَقَادِمَ عَهْدُهُ كَانَتْ مَوَدَّتُهُ كَفَيَّ ظِلَالٍ

قال فدفع الفضل الى مسلم الرقعة وقال : انظر يا ابا الوليد الى رقعة دعبيل
فيك ... » (الى آخر القصة)

٢ - ضياع شعره فيه اذ لم يصلنا منه غير ابيات قليلة ^(٢) ، والمعروف ان
معظم ما ضاع من شعر مسلم هو مما نظمته في خراسان ^(٣) .

٣ - رواية ابن طباطبا التي اشرنا اليها سابقاً والتي تقول : « كان مسلم بن
الوليد الشاعر نديماً للفضل بن سهل قبل وزارته . وكان قد انشده قوله :

وقائلٍ لَيْسَتْ لَهُ هِمَّةٌ كَلَّا وَلَكِنْ مَا لَهُ مَالٌ
لَا جِدَّةٌ يَنْهَضُ عِزْمِي بِهَا وَالنَّاسُ سُؤَالٌ وَبُخَالٌ
فَاصْبِرْ عَلَى الدَّهْرِ إِلَى دَوْلَةٍ يَرْفَعُ فِيهَا حَالَكَ الْحَالُ

فلما علت حال الفضل وتولى الوزارة قصده مسلم بن الوليد . فلما رآه سرَّ به
وقال له : هذه الدولة التي يرفع فيها حالك الحال ، وامر له بثلاثين الف درهم

(١) مخطوطة ميونيخ للاغاني (دي خويه ص ٢٤٢) ، راجع الرواية ص ٦٧ من هذا الكتاب .

(٢) كل ما وصل اليها من شعر مسلم في الفضل بن سهل ثلاثة عشر بيتاً وردت متفرقة كما يلي :

الصفحة في شرح الديوان للدهان

عدد الابيات

١٥٠

٥

٣٠٤

٣

٣٠٤

٢

٣٠٧

١

٣٢٣

٢

(٣) راجع الدهان ص م ٥٢-٥٣ ، ودي خويه ص ٢٤١ (نقلًا عن مخطوطة ميونيخ للاغاني)

وولاه بريد^(١) جرجان .

ويؤخذ من هذه الرواية الأخيرة ان مسلماً انشد الفضل ما فيها من ابيات قبل ان يستوزر ، وانه انشده اياها وهو في حالة تتطلب منه صبراً وتحدوه على التمني بان تدول الدولة الى غيرها ليرفع من حاله وتحسن اموره . ومن الواضح ان هذه الحالة التي يصفها اعلق بعصر الامين منها باي عصر آخر ، ومن الواضح ايضاً انه لم يكن ليستطيع ان يقول مثل هذا القول وهو في بغداد بمسمع من الامين . فلا بد اذن ان يكون قد قاله خارج بغداد ، في خراسان ذاتها حيث كان يقيم الفضل طوال مدة حكم الامين (١٩٣-١٩٨ هـ) ؟

غير انه قد يقال : ولكن مسلماً مدح الامين وهو خليفة بقصيدة^(٢) لا بد ان يكون قد قالها في بغداد في نفس هذه الحقبة ، فكيف يمكن التوفيق بين هذه الحقيقة والحقيقة السابقة ؟

يغلب على الظن ان مسلماً كان في بغداد في اوائل حكم الامين ، وانه مدحه حينذاك . ولعله لم يظفر منه بما كان يتوقع ، او لعله ساء منه اختصاصه بابي نواس^(٣) او عدم تحمسه للشيعه تحمس المأمون لها فيما بعد^(٤) ، فغادر بغداد الى خراسان عسى ان يجد فيها عند المأمون او وزيره ما لم يجده عند الامين من تكريم وحباء . ولكن متى غادر بغداد الى خراسان ؟ لعل من المتعذر تعيين ذلك على وجه التحقيق ، غير ان المتتبع لتاريخ العلاقات بين الامين والمأمون ، حين كان الاول منها في بغداد والثاني في خراسان ، لا يرى وقتاً اصحح لافتراض حدوث ذلك من سنة ١٩٦ هـ . ففي تلك السنة حبس الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان محمداً الامين ودعا بالبيعة للمأمون^(٥) ، وفيها ايضاً تألق نجم المأمون فاحتلت

(١) وقيل ولله جرجان (ابن خلكان ١٧٩/١ والعمدة ٢٢/١) ، وقيل المظالم فيها (دي خويه ٢٢٩ عن مخطوطة ميونخ للاغاني) . وعلى كل حال فقد كانت ولاية البريد من اخطر اعمال الدولة واجلها شأن ، اذ كان صاحب البريد مسؤولاً عن سلامة الطرق ووصول البريد ، كما كان مسؤولاً عن نقل اخبار عمال الخليفة واعدائه اليه (راجع مستر ص ١٢٩ ، وتاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٩٨ ، والنظم الاسلامية ص ٢٠٦-٢٠٩)

(٢) القصيدة الثلاثون في الديوان .

(٣) راجع مواسم الادب ص ١٣ .

(٤) راجع الفخري ص ١٥٩ .

(٥) الطبري ج ٣ ص ٨٤٦-٤٧ (حوادث سنة ١٩٦ هـ) .

جيوشه الاهواز^(١) والمدائن^(٢)، وبأبعه بالخلافة عامل الأمين على مكة والمدينة.^(٣) ولعل مسلماً اغتتم هذه الفرصة فترك بغداد الى خراسان حينذاك . ويغلب على الظن انه بقي فيها حتى غادرها الفضل الى بغداد فقبه ثم قصده بعد استيزاره فولاه بريد جرجان على ما جاء في رواية ابن طباطبا. ومما يؤيد هذا رواية اوردها الاصبهاني عن كيفية حدوث هذه التولية . ولئن اختلفت هذه الرواية عن سابقتها اختلافاً جذرياً في التفاصيل ، فانها تثبت على كل حال ان هذه التولية لم تحدث حين كان مسلم في خراسان ، ولا بد انها حدثت حين كان مع الفضل في بغداد . قال الاصبهاني: ^(٤)

— «دخل مسلم بن الوليد الانصاري على الفضل بن سهل لينشده شعراً فقال له : ايها الكهل اني اجلك عن الشعر فسل حاجتك . قال: بل تستم اليدي عندي بأن تسمع فانشده :

دموعها من حذارِ البينِ تنسكبُ وقلبها مُغرَمٌ من حرّها يحبُ
جَدُّ الرحيلُ به عنها ففارقها لِبَيْنِهِ اللّهُو واللذاتُ والطربُ
يَهْوِي المَسِيرَ الى مَوَدِّ وَيُحْزِنُهُ فراقها فهو ذو نَفْسَيْنِ يَرْتَقِبُ
فقال له الفضل اني لاجلك عن الشعر . قال فأغني بما احببت من عملك فولاه البريد بجرجان .

والظاهر ان مسلماً قد سر كثيراً بهذه التولية ، فقد روى الثعالبي ^(٥) بيتين من الشعر له يبدو انه قالهما بعد ذلك ، قال :

انما كنا بأرضٍ مَيّتَةٍ ليس للزائرِ فيها منتَظَرُ
فحيّينا بك اذ وليتَنا وكذلك الارضُ تحيا بالمطرُ

ويتحدث الرواة عن النعم التي أفاءها الفضل على مسلم والعطايا التي اغدقها عليه . وقد اوردنا بعض رواياتهم عند حديثنا عن اسرافه .

(١) الطبري ج ٣ ص ٨٥١ .

(٢) نفسه ج ٣ ص ٨٥٧ .

(٣) نفسه ج ٣ ص ٨٦٠ .

(٤) راجع دي خويه ص ٢٤٠ (عن مخطوطة ميونخ للاغاني)

(٥) احسن ما سمعت ص ١٣٤ .

وازاء الجميل الذي أسبغه الفضل على مسلم إبان حياته تعلق به مسلم وشغف ،
ولما قتل عام ٢٠٢ هـ رثاه بقصيدة ^(١) تفيض بالود والعاطفة ، ويقول الرواة انه
لزم بيته اثر ذلك ولم يمدح احداً حتى مات ^(٢) .



(١) مخطوطة دار الكتب للاغاني (الدهان ص ٣٨٠)

(٢) معاهد التنصيص ص ٣٦١ .

صلته بشعراء عصره

عاصر مسلم كثيراً من الشعراء منهم ابونواس ، وابو العتاهية ، والعباس بن الاحنف ، ودعبل الخزاعي ، وأبو الشيص ، والحسين بن الضحاك ، وابن اللاحقي ، والعتابي ، ومروان بن أبي حفصة ، وسلم الخاسر ، وابن أبي عيينة ، وابن قنبر .

واهم من جرى معهم في حلبة اللهو ومجالس الشعر من هؤلاء : ابونواس ، وأبو العتاهية ، والعباس بن الاحنف ، ودعبل الخزاعي . فقد كانت بين افراد هذه الفئة ، في بادئ الامر على الاقل ، صداقة تقوم على امزجة مشتركة وميول متشابهة : فكان كل منهم شاعراً ، وكان كل منهم ، في فترة من حياته على الاقل ، ميالاً الى اللهو والمجون والتندر والظرف . وكانت هذه الامزجة المشتركة وتلك الميول المتشابهة تجمع بينهم فيقيمون المجالس ، يشربون فيها ويلهون ، ويتساجلون الشعر ويتطارحون النوادر ، واليك ما حدث في احد هذه المجالس :

« اجتمع مسلم بن الوليد صريع الغواني وابونواس وابو الشيص ودعبل بن علي بن رزين ^(١) في مجلس على الشراب فقالوا : ينشد كل واحد منكم أجود ما قال . ثم قالوا لمسلم : كأننا بك يا ابا الوليد وقد جئت بقولك :

إذا ما علك منا ذؤابةً واحدٍ تمشت به مشي المقيّد في وحل
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

... ثم قالوا لأبي نواس : كأننا بك يا ابا علي قد جئت بقولك :
لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد
... ثم قالوا لدعبل : كأنك قد جئت بقولك :

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى ^(٢) .

وبدل هذا الخبر على ان هؤلاء الشعراء كانوا يتناشدون الشعر في مجالس شراهم وعلى ان كلاً منهم كان يسمع اصحابه خير شعره ، او ان هؤلاء الاصحاب كانوا يطعمون منه بأن يفعل ذلك على الاقل .

(١) هو دعبل الخزاعي .

(٢) طبقات ابن المعتز ص ٧٣ .

وكأني بمسلم يصف ما كان يجري في بعض هذه المجالس من ضروب اللهو وما كان يشيع فيها من أنس وحبور حين يقول :

يا رُبَّ خِدْنٍ قد قرعتُ جبينَه
أنهضته من بعد ما اسكرته
ومهذبين أكارم لأكارم
ثاروا الى صفق الشمول فأشعلوا
بؤأتهم غرقاً جعلت تراها
وخلّوا بأنواع النعيم ولذّة
في مجلس بين الكروم مظلّل
ولديهم حور القيان كأنها
قد حاز كل فتى لديه غادة
ممكورة^(١) عجزاء مضمرة الخشى
كالشمس تبصر وجهه في وجهها
للقصف متكئين فوق نمارق^(٢)
فاذا نظرت رأيت قوماً سادة
ركبوا المدام فأدبرت بهم على

بالتّاس والابريق حق ما لا
فشى كأن برجليه عقالا
أدباء حازوا نجدة وكالا
نيران حرب كؤوسها إشعالا
مدّر العبير وعنبراً قسطالا
دامت وعيش ما يريد زوالا
جعلت له أغصان ظلالا
غزلان وحش يرتعين رمالا
رود الشباب خريدة معطالا
قد حملت من ردفها أثقالا
تمشي فتسحب خلفها أذيالا
يسقون بالتّاس الرّحيق زلالا
ونجاة ومهابة وجمالا
سبل السرور وأقبلت إقبالا

ويبدو ان المتأدبين كانوا يتلقفون انباء هذه المجالس وما كان يجري فيها من مطارحات ادبية ، ولذا فكثيراً ما حرص كل من اصحابها على ان لا يشيع عنه من شعر ما قد يثلم سمعته او يخط من مكانته الادبية في اعين الناس ، بل كثيراً ما امل بعضهم في ان يكون مما يقال في هذه المجالس من شعر وما تقدمه من مجال للمقارنة بين الشعراء ما يرفع اسمه عالياً ويؤلق نجمه :

قال رزين أخو دعبل^(٣) : « كان الادب يجمعنا كثيراً فيؤنسنا التناشد والذاكرة ، فاجتمعنا يوماً عند ابي نواس وهو اذ ذاك في رَهَج محمد بن زبيدة ، وفينا دعبل بن علي ومسلم بن الوليد وابو الشيص ، فلما كادت الكؤوس ان تغلب العقول قال ابو نواس : قد اتفق اجتماعنا فلم لا نتمتع يومنا جمّاً يذكّرنا به المتأدبون؟

(١) ضاربة البطن .

(٢) وسائد

(٣) مخطوطة غوطا للاغاني ترجمة ابي نواس (الدعان ص ٣٩٨)

قلنا له : انه ليوم ذاك . فالتفت الى مسلم فقال : هات فلله احسانك في الاجابة اذا نوديت ، فاختر من شعرك ما شئت فليس من شاعر الا وهو يعرف حبة القلادة من شعره . فاستوى مسلم جالسا وقال : ليست بك حاجة الى مكاثرتنا فقد علمنا ان معك من الكلام دره وخالص جوهره واذا اردت اقرارنا لك بذلك فقد سلمنا لك . فقال ابونواس : ما لهذا قصدت ، ولكنك تريد ان تفخر علينا بجودة شعرك فامض لما اجتمعنا عليه فلن ندع مشاركتك في ذلك لما تقدم من بقاء ذكره بين الادباء على مر الايام . فابتدأ مسلم في قوله :

أَجْرَرْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصَّبَا غَزَلٍ وَشَمَّرْتُ هِمَمَ الْعُدَّالِ فِي الْعَدَّالِ
فلما انتهى الى قوله :

مُؤَفٍّ عَلَى مُهَجٍ وَالْيَوْمُ ذُو رَهَجٍ كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ
قال ابونواس ما أراه يجيء بعد هذا الكلام ما يفي بوزنه .^(١)

وكان هؤلاء الشعراء يعقدون معظم مجالسهم في منازلهم الخاصة او في منازل بعض اصدقائهم من سكان المدينة ممن تطيب لهم حياة المرح ويأمنون بظرف الشعراء . ولعل من اهم هؤلاء اسماعيل بن معمر القراطيسي الذي « كان مألفا للشعراء ، فكان ابونواس وابو العتاهية وطبقتهم يقصدون منزله ، ويجمعون عنده ويقصفون ، ويدعو لهم القيان وغيرهن من الغلمان ، ويساعدهم » .^(٢)

وقد يذهب بعض هؤلاء الى منزل اديب ذواقه فينشدون له شعرهم لعلهم يظفرون منه بكلمة استحسان قد تكتب لشعرهم الشيوع على السنة الرواة . وكم عاد بعضهم من لدن مثل هذا الاديب مكللين بتاج النصر منتشين بنشوة الغلبة ، وكم عاد آخرون وهم يتعثرون بذبول الحنية والمرارة .

روي عن عمرو ابن ابي عمرو الشيباني انه قال ^(٣) : « جاء ابو العتاهية ومسلم وابونواس يوما الى ابي فانشده ابو العتاهية :

وعظمتك احداث صمت
وارتك قبرك في القبو
ونعتك ازمنة خفت
ر وانت حي لم تمت
وتكلمت عن اعين
تبكي وعن صور سبت

١) مخطوطة غوطا للاغاني - ترجمة ابونواس (الدهان ص ٣٩٨)

٢) الاغاني ج ٢٠ ص ٨٨

٣) معاهد التنصيص ص ٤٠

وحكّت لك الساعات عن ساعات ابيات بَغَتْ

وانشده شعراً آخر يقول فيه :

على سرعة الشمس في مرّها دَبِيبُ الخُلُوقَةِ في الجِدَّةِ

قال وانصرفوا ، فلما كان بعد ايام عاد اليه مسلم وابونواس فأنشده مسلم

أَجْرِرْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصَّبَا غَزَلٍ حَتَّى بَلَغَ قَوْلُهُ :

يَنَالُ بِالرَّفَقِ مَا يَعْيًا الرِّجَالُ بِهِ كَالْمَوْتِ مُسْتَعِجِلًا يَأْتِي عَلَى مَهْلٍ

فقال ابو عمرو احسنت الا انك اخذت قول ابي العتاهية :

وَحَكَّتْ لَكَ السَّاعَاتُ عَنْ سَاعَاتِ اَبِيَاتٍ بَغَتْ

قال ثم انشده ابونواس قوله : يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمٍ

فلما بلغ قوله :

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّى الْبُرِّ فِي السَّقَمِ

قال له احسنت الا انك اخذته من قول ابي العتاهية :

على سرعة الشمس في مرّها دَبِيبُ الخُلُوقَةِ في الجِدَّةِ «

واذا ما سئموا المنازل لجأوا الى المتنزهات والبساتين^(١) ففتقت منهم القرائح وأضفت عليهم بروضها ونسيمها متعة جديدة تقترن بمتعة الخمر ونداماه .

وان حدث في بعض هذه المجالس ما يسيء الى احد الصحب فسرعان ما يتجاوز عن الاساءة ويأخذ رفاقه بالصفح والسباح :

«حدث دعبل الشاعر انه اجتمع هو ومسلم وابو الشيص وابونواس في مجلس فقال لهم ابونواس :

ان مجلسنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه ولهذا اليوم ما بعده فليأت كل امرئ منكم باحسن ما قال فلينشده ، فأنشدهم ابو الشيص :

وقفَ الهوى بي حيثُ انتَ فليس لي متأخراً عنه ولا متقدماً
أجيدُ الملامةَ في هواك لذينةٌ حباً لذكرك فليكني اللومُ

(الابيات) (٢)

(١) انظر العمدة ج ٢ ص ٨٧

(٢) الاغانى ج ١٥ ص ١٠٥ ، طبقات ابن المعتز ص ٧٤

قال فجعل ابونواس يعجب من حسن الشعر حتى ما ينقضي عجبه . ثم انشد مسلم
ابن الوليد ابياتاً من شعره الذي يقول فيه :

فأقسمت أنسى الذّاعيات الى الصّبا وقد فاجأتها العين والستر واقع
فغطت بأيديها ثمارَ نخورها كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع^(١)
قال دعبل : فقال لي ابو نواس هات ابا علي وكأني بك قد جئت بأم القلادة :
لا تعجبي يا سلم (البيت)

فأنشدته :

أين الشباب وأية سلكا	أم اين يُطلبُ ضلّ أم هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل	ضحك المشيب برأسه فبكى
يا ليت شعري كيف صبركم	يا صاحبي اذا دمي سفكا
لا تطلبوا بظلامي احداً	قلبي وطرفي في دمي اشتركا

ثم سأله ان ينشد فأنشد :

لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند	واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً اذا انحدرت في حلق شاربها	أجذته حمرتها في العين والحد
فالخر يا قوتة والكأس لؤلؤة	من كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من عينها خمرأ ومن يدها	خرأ فما لك من سكرين من بد
لي نشوتان وللثدمان واحدة	شيء خصصت به من بينهم وحدي

فقاموا فسجدوا له فقال : افعلتموها اعجمية ؟ لا كلمتكم ثلاثاً ولا ثلاثاً ولا
ثلاثاً . ثم قال : تسعة ايام في هجر الاخوان كثير ، وفي هجر بعض يوم استصلاح
الفساد وعقوبة على الجفوة ، ثم التفت الينا فقال : أعلمتم ان حكيماً عتب على حكيم
فكتب المعتوب عليه الى العاتب يا اخي ان ايام العمر اقل من ان تحتمل الهجر^(٢) .

(١) القيود

(٢) الاغاني ج ١٥ ص ١٠٩ ، ديوان ابي نواس ، تحقيق الغزالي ص ٢٧

مسلم وابونواس :

وفد ابونواس على الكوفة من البصرة مع استاذة والبة حين كان يتخرج في الشعر على يديه . ويبدو انها اتصلا بادية المدينة آنذاك ^(١) ، غير انه لم يصلنا ما يشعر بانها عرفا مسلماً او اتصلا به في تلك الحقة . ولعل ذلك ناجم عن ان مسلماً لم يكن بعد في عداد الشعراء ، او انه ربما كان قد خرج الى بادية السماوة لاستيفاء ثقافته اللغوية كما فعل زميله ابونواس ^(٢) وغيره من الشعراء .

واجتذبت بغداد الرجلين بعد ان تمكن كل منهما من شعره ، وهناك سمع كل بزميله وود لو يجتمع به حتى قبض الله لهما دعبلًا فتوسط في الجمع بينهما :

روي عن دعبل انه قال : ^(٣) « كان ابونواس يسألني ان اجمع بينه وبين مسلم ابن الوليد ، وكان مسلم بن الوليد يسألني ان اجمع بينه وبين ابي نواس ، وكان ابونواس اذا حضر تخلف مسلم واذا حضر مسلم تخلف ابونواس الى ان اجتمعا فانشده ابونواس :

أجارة بيتينا ابوك غيور
وميسور ما يرجى لديك عسير
وانشده مسلم بن الوليد :

لله من هاشم في ارضه جبل
وانت وابنك ركننا ذلك الجبل
فقلت لابي نواس : كيف رأيت مسلماً ؟ فقال : هو اشعر الناس بعدي . وسألت مسلماً عنه فقلت : كيف رأيت ابا نواس ؟ فقال هو اشعر الناس وانا بعده .

وان صحت هذه الرواية كان اول اجتماع حدث بينها سنة ١٩١ هـ او بعدها ، ذلك لان ما انشده ابونواس كان من قصيدة نظمها بعد عودته من عند الخصيب في مصر في هذه السنة ^(٤) ، بينما ما انشده مسلم كان من قصيدة نظمت قبل ذلك ^(٥) . وان صحت ايضاً شقت عن الاثر الاول الذي اوقعه كل منهما في نفس زميله ، وكشفت عن غرور ابي نواس وتواضع مسلم .

(١) المفصل في تاريخ الادب العربي ج ١ ص ١٧٩

(٢) محسن الامين - ابونواس ص ٢٣

(٣) مخطوطة ميونخ للاغاني (دي خويه ص ٢٤٧)

(٤) دعبل ، ابونواس عالم حر ص ١٠٤

(٥) هو من القصيدة الاولى في الديوان التي يمدح فيها مسلم يزيد بن مزيد الشيباني المتوفى سنة ١٨٥ هـ .

والظاهر من اخبارهما ان الصلة توثقت بينهما بعد ذلك فاخذت تجمعهما واصدقاءهما من الشعراء مجالس الشراب واللهو والانس والشعر. وقد اتاحت هذه المجالس لكل من الشاعرين ، على ما يظهر ، فرصة للتعرف بصاحبه عن كثب والاقرار بفضلته في الشعر ، فغدا مسلم يعتقد ان مع ابي نواس « من الكلام دره وخالص جوهره »^(١) واصبح ابونواس يرى انه لا يجيء اثر بعض شعر مسلم « ما يفي بوزنه »^(٢) .

لقي ابونواس مسلماً يوماً فسلم عليه وقال له :^(٣) « يا مسلم ذهبت والله بالشعر ، فقال له مسلم : اما وانت القائل : وأجارة بيتينا ابوكِ غيور ، فلا والله لقد غلبت اهل زمانك . »

ومضى وقت وكل منهما يحترم زميله ويحله ، غير ان التحاسد ما لبث ان اوقع بينهما فأخذ كل منهما يترصده فوات زميله ويعده عليه سقطاته وهناته :

روي عن محمد بن يزيد المبرد انه قال :^(٤) « تلاحي مسلم بن الوليد وابونواس فقال مسلم : ما اعلم لك بيتاً يخلو من سقط . فقال ابونواس : اذكر بيتاً . فقال : بل انشد انت اي بيت شئت ، فانشدته :

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بِسُحْرَةِ فَارَاحَا وَأَمَلَهُ دِيكَ الصَّبَاحَ صِيَا حَا
فقال مسلم : قف عند هذا ، لم امله ديك الصباح وهو الذي يبشره بالصبح وهو الذي ارتاح اليه ؟ قال ابونواس : فانشدني انت ، فانشدته :

عاصي الشبابَ فراحَ غير مُفْسِدٍ وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجْلِيدٍ
فقال ابونواس : نقضت ، ذكرت انه راح والرواح لا يكون الا بالانتقال من مكان الى مكان ، ثم قلت واقام فجعلته منتقلاً مقيماً في حال ، وهذا متناقض .

وأترك التعليق على هذه الرواية للمبرد نفسه اذ يقول:^(٥) « وكلا البيتين صحيح ولكن من طلب عيباً وجده ومن طلب له مخرجاً لم يفته » .

وروى صاحب الاغانى خبراً آخر قال :^(٦) « اجتمع ابونواس ومسلم في

(١) مخطوطة غوطا للاغانى - ترجمة ابي نواس (دي خويه ص ٢٧٠)

(٢) نفسه

(٣) نفسه ص ٢٧١

(٤) العمدة ج ٢ ص ٢٣٣ ، ومخطوطة غوطا للاغانى (دي خويه ص ٢٣١ ، ٢٦٩ ، ٢٩٦) والموشح ص ٢٧١ ، والشعر والشعراء ج ٢ ص ٧٨٢

(٥) العمدة ج ٢ ص ٢٣٣

(٦) مخطوطة غوطا للاغانى - ترجمة ابي نواس (دي خويه ص ٢٦٩) والموشح ص ٢٨٩ .

مجلس فتلاحيا على نبيذ فقال مسلم لابي نواس : والله ما تحسن الاوصاف ، فقال :
لا والله ما احسن ان اقول :

سَلْتُ فَسَلْتُ ثُمَّ سَلْتُ سَلِيلُهَا فَاتَى سَلِيلُ سَلِيلِهَا مَسْلُولا
والله لو رجعت الناس في الطرق لكان احسن من هذا .

ويلاحظ ان مسلماً كان دائماً المبدأىء بالنقد في كل مرة يلتقي به . ولعل
لذلك سببين : حسد مسلم للحظوة التي كان يلقاها ابونواس عند الرشيد دونه
من جهة ، وغرور ابي نواس من جهة اخرى . والواقع ان هذا الغرور الذي عرف
به ابونواس^(١) هو الذي حداه على ان يحتقر اهم شعراء عصره ، وفيهم مسلم ، وان
يشتمهم ويستخف بهم مما اثار حفيظتهم عليه فجاءوا يعاتبونه ويتحدونه :

« جاء مسلم بن الوليد والعتابي والنعمري والجرجاني والتميمي وسلم الخاسر
وابوالشيص ومروان وابوالعتاهية الى ابي نواس فقالوا : بلغنا عنك انك تحتقرنا
وتشتمنا وتستخف بنا وبأشعارنا فتعال حتى نهاجيك ونشاعرك ... »^(٢)

ولم يتغير موقف مسلم من ابي نواس وهو في بلاد الغربية بعيداً عن منافسته ،
فلقد سئل وهو في مرو عن قول ابي نواس :

رَسَمُ الْكُرَى بَيْنَ الْجَفُونِ يَحِيلُ عَفَى عَلَيْهِ بُكَاءُ عَلَيْكَ طَوِيلُ

فقال : ان كان قول ابي العذافر :

باضَ الْهَوَى فِي فُؤَادِي وَفَرَّخَ التَّنْكَارُ

حسناً ، كان هذا حسناً .^(٣)

كما تحدث وهو يجر جان فوسم ابا نواس بالإحالة وعاب عليه قوله :

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشَّرْكِ حَتَّى أَنَّهُ لَتَخَافُكَ النَّسْطُفُ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ^(٤)

ومها يكن الامر فلا ريب ان الصلة التي كانت تربط بين الشاعرين فتجعل
احدهما يتطلع الى الآخر ، اعجاباً احياناً وحسداً أحياناً اخرى ، هي التي تركت
في شعر كل منهما اثرأ من شعر الآخر . ونحن لا نكاد نقرأ في ديوان مسلم دون ان
تستوقفنا ابيات ومقطوعات نكاد نلمس فيها روح ابي نواس ونفسه :

(١) راجع الاغاني ج ٤ ص ٧١

(٢) مخطوطة غوطا للاغاني - ترجمة ابي نواس (دي خويه ص ٢٦٩)

(٣) كتاب الصناعتين ص ٣٠٢ ، والموشع ص ٢٨٥

(٤) الموشع ص ٢٥٩

أديرا عليّ الرّاحَ لا تشرباً قبلي ولا تَطْلُباً من عندِ قاتلتي ذَحلي

...

هاتِ اسقيني طالَ بي الحُبُسُ من قهوةٍ بائعُها وَكُسُ
زِقْيَةً الدارِ رُصافيّةٌ أغلى بها الشَّماسُ والقَسُ
كانها في الكأسِ ياقوتة وهي اذا ما مُزِجَتِ وَرَسُ

...

شَقَقْنَا لها في الدَّنْ عينا فأسبلتُ كما أسبلتُ عينُ الحَرِيدِ بلا كُحلِ

وقد شغل مسلم وابونواس الادباء والنقاد في المقارنة بينها ، فقد « حدث ابو القاسم الفقيه الموصلي قال : جارية ابن فراس الكاتب بحضرة القاسم بن عبيدالله في شيء من اشعار المحدثين فاعتقد تفضيل ابينواس واعتقدت تفضيل مسلم وطال الخطاب في ذلك حتى دخل ابو العباس محمد بن يزيد المبرد فتحاكمنا اليه فقال : قال لي عبد الصمد بن المعدل وما رأيت اغرب منه معرفة بالشعر وقد سألته عنها فقال : والله ما جرى ابونواس قط في ميدان مسلم ولا تسمو نفسه الى ان يفاضل بينها الا ان له حظاً من الشهرة والذكر ليس لمسلم مثله »^(١).

و« حكى ابن الرومي الشاعر قال : حضرت مع البحري منزل عبيدالله بن عبدالله بن طاهر وقد سئل البحري عن ابينواس ومسلم أيها أشعر ، فقال ابونواس أشعر ، فقال عبيدالله ان ابا العباس ثعلباً ليس يطابقك على قولك ويفضل مسلماً . فقال البحري ليس ذا من عمل ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله ، انما يعلم ذلك من قد وقع في مسالك طرق الشعر الى مضايقه وانتهى الى ضروراته »^(٢).

ويبدو من هاتين الروايتين ان العلماء والفقهاء كانوا يفضلون مسلماً على زميله . وليس تعليل ذلك بالأمر الصعب فهؤلاء يمثلون طبقة المحافظين ، ومسلم اكثر محافظة في الشعر من زميله واقرب منه الى عمود الشعر . اما تفضيل البحري لابينواس فهو تفضيل للطبع على الصنعة ، والبداهة على التعمّل ، والبحري ، كما نعلم ، صاحب طبع وبدئية ينفر من تجويد الشعر وتحكيكه .

(١) معاهد التنصيص ص ٣٦١

(٢) مقدمة حزمة الاصفهاني لديوان ابينواس ، ط. آصاف ، ص ١٣ - ١٤ (نقلاً عن الامالي

لابن دريد) ، والعمدة ج ٢ ص ٩٩

والواقع ان شعر ابي نواس كان اكثر رواجاً من شعر مسلم واعلق منه بقلوب الناس . وقد شعر المحافظون بذلك فعزوه الى ان ابا نواس كان ذا حظ « من الشهرة والذكر ليس لمسلم مثله » (١) ، كما عزاه غيرهم الى تصرف ابي نواس في فنون القول وضروب الكلام وجري مسلم « على وتيرة واحدة لا يتغير عنها » (٢) . والحقيقة ان لا هذا ولا ذاك ، وانما هو تمثيل شعر ابي نواس تمثيلاً اصدق من شعر زميله للحياة التي اخذ الناس يحيونها في ذلك العصر . فابو نواس يحاول اكثر من مسلم ان يقارب بين الشعر وبين الحياة الجديدة وان يعرض عن تلك المعاني الموروثة التي يتناقلها الشعراء دون ان يحسوا بها ودون ان تمثل حياتهم وحياة معاصريهم .

مسلم وأبو العتاهية :

جمع مسلماً وأبا العتاهية كثير من مجالس الشعر واللهو قبل ان يتوبا . ويبدو ان مسلماً سبق صديقه الى التحرر والاحتياط والعف عن دواعي المجون قبل ان يتوب نهائياً في جرجان :

اجتمع الحسن بن هانئ وصريع الغواني وابو العتاهية في مجلس ف قيل
لأبي العتاهية انشدنا فأنشد : (٣)

« أسيدي هاتي فديتيك ما جرّمي فانزل فيا تشتهين من الحكم
كفالك بحق الله ما قد ظلمتني فهذا مقام المستجير من الظلم
وقيل لصريع الغواني انشدنا فأنشد :

قد اطلعت على سرّي وإعلاني فاذهب لشأنك ليس الجهل من شاني
ان التي كنت أنحو قصد شرّتها (٤) أعطت رضى واطاعت بعد عصيان
ثم قيل للحسن بن هانئ انشدنا فأنشد : (٥)

يا ابنة الشيخ اصبحينا ما الذي تنتظرينا
قد جرى في عودك الما ء فأجري الخمر فينا

(١) معاهد التنصيص ص ٣٦١ ، والعمدة ج ٢ ص ١٧٧

(٢) كتاب الصناعتين ص ٢٤

(٣) العقد الفريد ج ٥ ص ٣٧٦-٣٧٧

(٤) يقصد نفسه

(٥) راجع ديوان ابي نواس (ط. آصاف) ص ٣٣٩

قالوا : هذا هزل فما الجد ؟ فأنشد :

لِمَنْ طَلَّلَ عَارِي الْمَحَلَّ دَفِينُ عَفَا عَهْدُهُ الْإِرْوَاهُ جَوْنُ
كَمَا اقْتَرَبْتُ عِنْدَ الْمَبِيتِ حَمَامُ غَرِيبَاتُ مُنْصَى مَا لَهْنٌ وَكُونُ
دِيَارُ الَّتِي أَمَّا جَنَى رَشْفَاتِهَا فَحَلَوْ وَأَمَّا مَسْهَا فِيلَيْنُ
وَمَا أَنْصَفْتُ أَمَّا الشُّحُوبُ فُظَاهِرُ بُوْجْهِي وَأَمَّا وَجْهُهَا فَيَصُونُ

فقام صريع الغواني يجر ذيله وخرج وهو يقول :

والله هذا مجلس لا أجلسه أبداً .»

وضلع ابو العتاهية مع مسلم والشعراء الآخرين حين اشتد حقدهم على ابي نواس لاذررائه لهم ، واشترك معهم في الوفود عليه والاحتجاج اليه .

والظاهر ان ابا العتاهية كان حريصاً على استرضاء مسلم فكان يدعو به الى بيته ويستضيفه رغم ما عرف عنه من بخل :

روي عن ابي خارجة بن مسلم انه قال ^(١) : « قال لي مسلم بن الوليد كنت مستخفاً بشعر ابي العتاهية فلقيني يوماً فسألني ان اصير اليه ، فجاءني بلون واحد فأكلناه واحضرني ثمرأ فأكلناه ، وجلسنا نتحدث وانشدته اشعاراً لي في الغزل وسألته ان ينشدني قوله :

بِاللهِ يَا قُرَّةَ الْعَيْنَيْنِ (الابيات)
ثم انشدني ايضاً : رأيتُ أهوى جمرَ الغُصَى (البيت)
قال مسلم : ثم انشدني ابو العتاهية :

خليلي مالي لا تزال مضرّتي (الابيات)
قال مسلم : فقلت له لا والله يا ابا اسحاق ما يبالي من احسن ان يقول مثل هذا الشعر ما فاته من الدنيا ...»

ولكن رغم هذا الحكم الذي قد يكون لدواعي المجاملة اثر فيه فان مسلماً كان في الواقع يستخف بشعر ابي العتاهية بصورة عامة . وقد لا يبدو ذلك غريباً ان علمنا ان ابا العتاهية كان ينتمي لمدرسة مغايرة لمدرسة مسلم ، فمسلم صاحب تجويد وصنعة وابو العتاهية رائد سلاسة وطبع .

« اجتمع ابو العتاهية ومسلم بن الوليد الانصاري في بعض المجالس فجري بينهما كلام فقال له مسلم . والله لو كنت ارضى ان اقول مثل قولك :

(١) الاغاني ج ٣ ص ١٤٥ (اخبار ابي العتاهية)

الحمدُ والنعمةُ لكُ والملكُ لا شريكَ لكُ

لبَيْكُ ان الملكَ لكُ

لقلت في اليوم عشرة آلاف بيت ، ولكني اقول :

مُوفٍ على مُهَجٍ واليوم ذو رَهَجٍ كأنه أَجَلٌ يسعى الى أَمَلٍ (الابيات)
فقال له ابو العتاهية : قل مثل قولي ، الحمد والنعمة لك ، اقل مثل قولك ، كأنه
اجل يسعى الى أَمَلٍ ،^(١)

ومن الواضح ان في جواب ابي العتاهية ما يشير الى اختلاف مذهب كل
منها في الشعر عن الآخر .

حدث عبدالله بن يوسف ، وكان راوية اديباً ، قال : ^(٢) « رأيت مسلم بن
الوليد يجر جان ، وهو يتولاها مقدمي من مدينة السلام . فسألني عن خلفت بها
من الشعراء ، فقلت : خلفت كوفياً وبصرياً قد غلبا على الشعر : اما من الكوفيين
فابو العتاهية وهو مقدّم عندهم ، ومن البصريين ابونواس . فقال : كيف يتقدم
عندهم ابو العتاهية وهو يقول :

رويدك يا انسانُ لا انتَ تقفزُ

أخرجت تقفز من فم شاعر محسن قط ؟ واما ابونواس فُحِيل ، ويصف المخلوقين
بصفة الخالق عز وجل ، فما حال فيه قوله :

وأخفت اهلَ الشُّركِ حتى انه لتخافُكَ النُّطفُ التي لم تخلقِ
وهذا محال . »

وتعكس لنا هذه الرواية - ان صحّت - امرين على جانب كبير من الاهمية :
الاول ان مسلماً لجأ اخيراً الى الدين للحظ من شأن ابينواس بعد ان استنفد وسائله
الآخرى التي لم تستطع ، على ما يظهر ، ان تغض من مكانته عند الناس ، او
ان تحدّ من شيوع شعره بينهم . والثاني انه لم ينقد موضع « تقفز » ولا موضع
« انت » من قول ابي العتاهية - وكلتا اللفظتين تبدوان ثابتتين كما هو واضح -
ولكنه قصر نقده على استعمال اللفظة الاولى فقط ، مما يدل على انه يعلق اهمية
كبيرة على اختيار الشاعر لالفاظه ، تلك الالفاظ التي يفضل ان تكون مما يخرج
عادة « من فم شاعر محسن » . ومن الواضح ان هذا الميل الذي يبيده يظهر مدى
تعلقه بكلاسيكية اللفظة الشعرية .

(١) الاغانى ج ٣ ص ١٣٨

(٢) الموشح ص ٢٥٩

مسلم والعباس بن الاحنف :

لم يكن مسلم بن الوليد والعباس بن الاحنف على وئام ، ولعل سبب ذلك هو التنافس على الشهرة دون الرزق : ففي الوقت الذي كان فيه مسلم حريصاً على جمع المال حين يحتاج اليه كان ابن الاحنف يجد نفسه في غنى عن ذلك ، وفي الوقت الذي كان يتقرب فيه مسلم من الامراء والملوك في سبيل هذه الغاية كان ابن الاحنف يعف عن ذلك ترفعاً وتظرفاً .^(١)

ولعل اكثر ما كان يغيظ العباس من امر مسلم توقير الشعراء له واقرارهم بفضله ، كما ان اكثر ما كان يغيظ مسلماً من امر العباس نهشه اياه بظهر الغيب مما ادى الى حدوث مهاجاة بينها :

روي ان محمد بن المهنا قال : ^(٢) « كان العباس بن الاحنف مع اخوان له على شراب فذكروا مسلم بن الوليد فقال بعضهم صريع الغواني فقال العباس : ذاك يذبغي ان يسمي صريع الغيلان لا صريع الغواني . فبلغ ذلك مسلماً فقال يهجو :

بنو حنيفة لا يرضى الدعي بهم فترك حنيفة واطلب غيرَها نسباً
واذهب الى عرب ترضى بنسبتهم اني ارى لك خلقاً يشبه العربا
لقبتي باحتجاج بعد ما ركتعت فيك القواني وأبقى وسمها ندبا
هلاً وانت بظهر الغيب تأكلني فلا تهنتني أمسكت متئباً
منيت مني وقد هاج الرهان بنا بغاية منعك الفوت والطلب
فاقعد فانت طليق العفو مرتين بسورة الجهل ما لم أمك الغضب

ويبدو من البيت الثالث من هذه المقطوعة انها لم تكن اول ما هجى به العباس فقد سبقها هجاء آخر لعله ضاع مع ما ضاع من شعر مسلم .

مسلم ودعبل الغزاعي :

كان مسلم استاذ دعبل ، « عنه اخذ ومن بحره استقى . »^(٣) فكان يروضه على قول الشعر ويزوده بنصائحه الى ان استقامت قناته وخرج الى الناس بشعر قبس فيه طريقة مسلم ومذهبه رغم مغايرته له في اتجاهه نحو الهجاء المقذع

(١) العمدة ج ١ ص ٥٢

(٢) مخطوطة ميونيخ للاغاني (دي خويه ص ٢٤٩) وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ١١٩

(٣) مخطوطة ميونيخ للاغاني (دي خويه ص ٢٤٥)

والتعريض بالناس .

ولقد مرّ معنا كيف كان دعبيل يقول الشعر فيعرضه على مسلم فينصحه هذا
بالأناة حتى لا يكون أول ما يظهر له ساقطاً فيشتهر عنه ويعرف به . وقد استمرت
هذه الحال حتى قال دعبيل :

أَيْنَ الشَّبَابُ وَأَيَّةَ سَكَا	أَمْ أَيْنَ يُطْلَبُ ضَلٌّ بَلْ هَلَكَا
لَا تَعْجَبِي يَا سَلَمُ مِنْ رَجُلٍ	ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى
يَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ صَبْرُكَ	يَا صَاحِبِي إِذَا دُمِي سُفِكََا
لَا تَطْلُبَا بظِلَامِي أَحَدَا	قَلْبِي وَطَرْفِي فِي دُمِي اشْتَرَكَا

فسمح له حينذاك بأن يظهر شعره كيف شاء .

ويبدو أن دعبيلاً حفظ لاستاذه جميله في بادئ الامر ونمت بينها صداقة قوية
انتفيت فيها كل كلفة فاشتركا في طلب الغواية ونشدان اللذائذ :

روى الحسين بن دعبيل عن ابيه قال : ^(١) « سمعت ابي يقول : بينا انا جالس بباب
الكرخ اذ مرت بي جارية لم أرَ احسن منها وجهاً ولا قدأً تتلثنى في مشيتها
وتنظر في اعطافها فقلت متعرضاً لها :

دموعُ عيني بها انبساطُ ونومُ عيني به انقباضُ
فاجابتني بسرعة وقالت :

وذا قليلٌ لِمَنْ دهشتهُ
فأدهشتني وعجبت منها فقلت :

فهل لمولاي عطفُ قلبٍ
وللذي في الحشا انقراضُ
فاجابتني غير متوقفة فقالت :

ان كنت تهوى الودادَ منّا فالودُ في ديننا قراضُ

قال فما دخل اذني قط كلام احلى من كلامها ولا رأيت انضر وجهاً منها فعدلت
بها عن ذلك الوجه وقلت :

أترى الزمان يسرُّنا بتلاقٍ
ويضم مشتاقاً الى مشتاقٍ
فاجابتني بسرعة فقالت :

(١) مخطوطة ميونيخ للاغاني ، (دي خويه ص ٢٤٢) والمعقد الفريد ج ٦ ص ٣٩٧ . . .

ما للزمان وللحكم بيننا انت الزمان فسرنا بتلاق

قال : فضيت امامها أوم بها دار مسلم بن الوليد وهي تتبعني ، فصرت الى منزله فصادفته على عسرة فدفع اليّ منديلا وقال : اذهب فبعه وخذ لنا ما نحتاج وعد . فضيت مسرعا فلما رجعت وجدت مسلما قد خلا بها في سرداب ، فلما احس بي وثب اليّ وقال عرفك الله يا ابا علي جميل ما فعلت ، ولقائك ثوابه ، وجعله احسن حسنة لك . فغاطني قوله وطنزه وجعلت افكر اي شيء أغتمه به فقال : بحياتي يا ابا علي اخبرني من الذي يقول :

بت في درعها وبات رفيقي جنب القلب طاهر الاطراف
فقلت :

من له في حير امه الف قرن قد أنافت على علو مناف
وجعلت اشتمه واثب عليه ، فقال لي : يا احمق ، منزلي دخلت ومنديلي بعث ودراهمي انفقت ، على من تحرد انت واي شيء سبب حردك يا قواد . فقلت له مهما كذبت علي فيه من شيء فما كذبت في الحق والقيادة .

واستمرت الصداقة بين مسلم ودعبل وجعلنا يجتمعان معا في مجالس الشعراء^(١) حتى اسند الفضل بن سهل عملا الى مسلم يجران فغادر العراق اليها واهته الوظيفة عن اصدقائه . ويبدو ان دعبلأ اعسر فذكر صديقه وقصده الى خراسان ، ولكنه خيب آماله فرماه بالبخل^(٢) وحبيت اليه نفسه ان يوقع بينه وبين ولي نعمته^(٣) . فلما اسقط في يده برح خراسان عائدا الى العراق بعد ان كتب اليه^(٤) :

أبا مخلد كُنّا عقيدي مودة هوانا وقلبانا جميعا معا
أحوطك بالغيب الذي انت حائطي وأجزعُ اشفاقا من ان تتوجعا
فصيرتني بعد انتكاثك مُتُهَمّا لنفسي عليها أُرهبُ الخلق أجمعا
غششت الهوى حتى تداعت اصوله بنا وابتذلت الوصل حتى تقطعا
وأنزلت من بين الجوانح والحشا ذخيرة ودّ طالما قد تمنعا
فلا تلحيتني ليس لي فيك مطمع تحرقت حتى لم اجد لك مرقعا

(١) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٨٢٧ ، والاغاني ج ١٥ ص ١٠٩ ، والعقد الفريد ج ٥ ص ٣٧٤

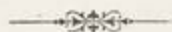
(٢) مخطوطة ميونخ للاغاني ، (دي خويه ص ٢٤٢)

(٣) نفسه ، الدهان ص ٣٣٤ ، ص ٨٠ من هذا الكتاب .

(٤) مخطوطة ميونخ للاغاني ، (دي خويه ص ٢٤٥) وابن خلكان ج ١ ص ١٧٩

فهبك يميني استأكلت فقطعتها وجشمت قلبي صبره فتشجعا
.. ثم تهاجرا بعد ذلك فما التقيا حتى ماتا .

وتبدو المقطوعة عتاباً أكثر منه هجاء ، وهي تحمل بين طياتها عاطفة ودّ
جريح لا يزال يساور قلب صاحبه فيحاول صاحبه اجتثائه منه وتجشيم قلبه الصبر .



سنواته الاخيرة

قضى مسلم السنوات العشر الاخيرة من حياته بعيداً عن وطنه في جرجان . وجرجان ^(١) اقليم عرف بمائة اهله واخذهم انفسهم « بالتأني والاخلاق الحميدة » على ما يقول ياقوت . وهو يقع في الجنوب الشرقي من بحر خزر ويضم السهول الواسعة والادوية العريضة والجبال السامقة . ويرويه نهراً أترَك (Atrek) وجرجان ، ولذا فقد كثرت فيه الحداثق وتوفرت الخيرات والفواكه فغدا ينتج البلح والزيتون والجوز والرمال وقصب السكر والارنج . ويذكر الجهشيارى انه كان يحُمّل من هذا الاقليم الى بيت المال في عهد الرشيد « اثنا عشر الف الف درهم والف منّا من الابرسم. » ^(٢)

ولا نعرف الكثير عن حياة مسلم في جرجان ، ولعل سبب ذلك بعده عن مراكز الرواية في ذلك العهد . غير اننا لا نشك في ان حياته هناك كانت تختلف عن حياته في بلاده ، ففي بلاده كان يسعى وراء المال بمدح هذا والتقرب الى ذاك ، اما في جرجان فكان مكفي العيش موفور المال بفضل ما أسبغه عليه الفضل بن سهل من اعمال وضياع. ^(٣)

وسواء كان مسلم والياً على جرجان كما تقول بعض الروايات ^(٤) ، او والياً على مظالمها كما تقول اخرى ^(٥) ، او مديراً للبريد فيها كما تقول ثالثة ^(٦) ، فلا بد انه كان يتمتع فيها باحترام وافر وجاء عريض لم يكن على مثلها في بلاده .

زد على ذلك انه اصبح هنا متقدماً في السن فلم يعد يسعى الى ما كان يسعى اليه قبلاً من انتهاب اللذات والعكوف على وسائل اللهو .

ويبدو ان نكوصه عن اللذات لم يزهده في العيش ، فلقد بقي يحب الحياة ، ويكره ان يفارقه الشيب ، وهو كره ، لأن في فراقه فراقاً لها :

- (١) انظر معجم البلدان ج ٣ ص ٧٥ و Encyclopaedia of Islam, vol. I, p. 1065
- (٢) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٨٤ . المن يساري ١٨٠ مثقالاً شرعاً و ٢٨٠ عرفاً . والابرسم الحوير .
- (٣) معاهد التنصيص ص ٣٦١
- (٤) مواسم الادب ص ١٣ ، والعمدة ج ١ ص ٢٢
- (٥) ابن خلكان ج ١ ص ١٧٩
- (٦) الفخزي ص ١٦٣ ، ومخطوطة ميونيخ للاغاني (دي خويه ص ٢٤٠)

الشيبُ كُرُهُ وكُرُهُ ان يفارقني فاعجبُ لشيء على البغضاء مودود
يمضي الشبابُ وقد يأتي له خلفُ والشيبُ يذهبُ مفقوداً بمفقودِ
ويذكر الرواة توبة مسلم في أخريات أيامه ويقولون ان راويته «جاء اليه بعد
ان تاب ليعرض عليه شعره فتغافله ... ثم اخذ منه الدفتر الذي في يده فقذف
به في البحر .»^(١)

ولعل توبة الشعراء بعد ان يوغلوا في العمر كانت سنة في القديم ، فقد تاب
عمر ابن ابي ربيعة ، على ما يذكر الرواة ، وكذلك ابو العتاهية وابونواس . او
لعل الناس كانوا في ذلك العهد اكثر قساوة مما هم اليوم تجاه المرء يتصابى بعد ان
يوافي سن الكهولة^(٢) .

ولا ريب ان توبة مسلم ، ان صحت ، هي التي حببت اليه التنكر لماضيه
ولما يتصل بهذا الماضي من لهو وصادقات ، ولذا فقد تنكر لصديقه القديم ورفيق
صوته دعبل حين وفد اليه من العراق ليستعين به على الدهر وحوادثه ، كما مر .
ولئن رغب مسلم في قطع الصلة بين حاضره وماضيه ، فما كان يرغب ابداً في
ان تنقطع صلته الروحية بوطنه الأم الذي يبدو انه كان شديد الحنين اليه في
أيامه الاخيرة .

ولعل هذا الحنين بلغ ذروته حين رأى مسلم نفسه يغالبها الموت في آخر
لحظات حياته ، اذ عندما « مرض مرضه الذي مات فيه » كما يقول الرواة^(٣) ،
« رأى نخلة لم يكن في جرجان غيرها »^(٤) فقال :

ألا يا نخلة بالسفح من اكنافِ جُرجانِ
ألا اني واياك يجرجان غريبانِ

ثم مات مع تمام الانشاد .
وكان ذلك ، على ما تجمع المراجع ، سنة ٢٠٨ هـ .

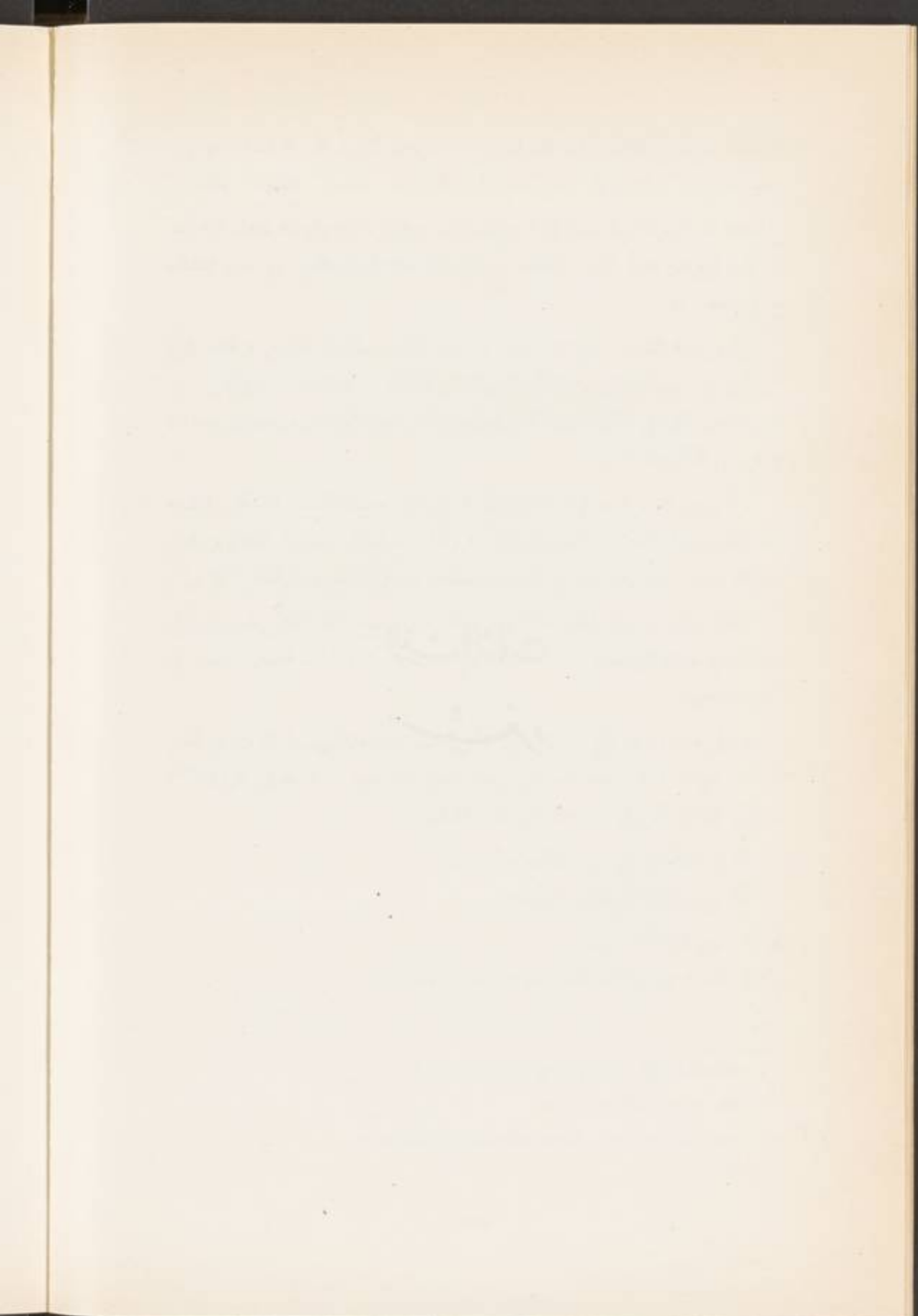
(١) مخطوطة ميونخ ، الاغاني (دي خويه ص ٢٤١)

(٢) انظر معجم البلدان ج ٣ ص ٧٧

(٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٥٠ ، و معاهد التنصيص ص ٣٦٥

(٤) كذا !!

القسم الثالث
شجره



١. ضياع الكثير من شعره

لم يصل إلينا ديوان مسلم كاملاً ، ونستطيع ان نتبين ذلك مما يلي :

١ . ما نراه فيه من بتر ظاهر في بعض القصائد . ولعل من خير الأمثلة على ذلك القصيدة الستين والثانية والستين ، حيث نجد في كل منها ضميراً يعود على ممدوح لا ذكر له في أي منها . زد على ذلك ان ما تبقى من كل منها لا يتجاوز ثلاثة أبيات مما لا يتلاءم وطبيعة المديح في ذلك الزمن ، في العادة .

٢ . وقوعنا على أبيات او مقطوعات في كتب الاصول الادبية تنسب لمسلم ولا نعثرها على اثر في الديوان . ولعل هذه الابيات ، او بعضها ، بقايا لقصائد فقدت . وقد جمع الدكتور دهان ما عثر عليه من هذه الابيات في ذيل أحقه بالديوان . ويبلغ مجموع هذه الابيات ثلاثئة وعشرين بيتاً .

٣ . وقوعنا في هذه الاصول على روايات تفترض وجود شعر له لا نجده في الديوان : فقد ذكر أبو الفرج ^(١) ان الحسين بن الضحّاك هاجى مسلم بن الوليد فاتصف منه . ومع ذلك فاننا لا نجد في الديوان شعراً لمسلم يهجو به الحسين . وذكر ايضاً ^(٢) ان مسلماً حدث عن نفسه فقال : « وجّه إليّ ذو الرياستين فحملت اليه فقال : انشدني قولك :

بالغمّر من زينبٍ اطلالٍ مرّت بها بعدك احوالٍ

فأنشدته اياها حتى انتهيت الى قولي :

وقائلٍ ليست له همة ... (الابيات)

ويفهم من قوله « حتى انتهيت الى قولي » ان هناك ابياتاً بين مطلع القصيدة وبين (وقائلٍ ليست له همة ...) ، وليس في الديوان ذكر لهذه الابيات الناقصة ولا للمطلع ذاته ، وكل ما فيه اربعة ابيات هي كل ما حفظه الديوان من هذه القصيدة .

٣ . صعوبة التوفيق بين ما يمكن ان يستنتج من الروايات التي وصلت إلينا عن حياة مسلم وبين ما وصل إلينا من شعره في بعض مراحل هذه الحياة . فقد ذكرت هذه الروايات انه اختص بمديح البرامكة في حقبة من حياته ، ولكن رغم

(١) الاغانى ج ٦ ص ١٧٠ . انظر ايضاً كتاب نديم الخلفاء ص ٤٠

(٢) الاغانى - مخطوطة ميونخ (دي خويه ص ٢٤٧ - ٤٨)

ذلك لم يصل الينا من مدحه فيهم الا النزر القليل مما لا يتلاءم وهذا الاختصاص.^(١)
ويمكن ان يعزى هذا النقص في ما وصل الينا من شعره الى ما يأتي :

١. توبة مسلم في اواخر حياته واتلافه لشعره ، ان صحت الرواية . فقد روي عن الحسين ابن ابي السري انه قال : « وحدثني جماعة من اهل جرجان ان راوية مسلم جاء اليه بعد ان تاب ليعرض عليه شعره فتغافله مسلم ثم اخذ منه الدفتر الذي في يده فحذف به في البحر^(٢) ، فلهذا قل شعره فليس في ايدي الناس منه الا ما كان بأيدي الممدوحين من مدائح^(٣) . »

٢. قضاؤه الشطر الاخير من حياته في جرجان بعيداً عن المراكز الرئيسية لرواية الشعر وتدوينه في العراق .

٣. الملابس السياسية التي سادت عصره ، مما جعل معظم الرواة يخشون رواية ما نظم في البرامكة وتدوينه ، بعد ان نكبوا . ومن المعلوم ان مسلماً اختص بهم بحيث نرجح انه مدحهم بقصائد اكثر من تلك التي وصلت الينا .^(٤)
ومها يكن الامر ، فان ما وصل الينا من الديوان يبلغ في مجموعه ألفاً وسبعمئة واربعة عشر بيتاً وصلت الينا رواية عن ابي العباس بن عيسى الطبري^(٥) . ومن المتعذر الآن تقدير نسبة هذه الابيات لما يمكن ان يكون قد نظمه مسلم في حياته .



(١) راجع بحثنا في اتصاله بالبرامكة من هذا الكتاب (ص ٨٨) .

(٢) لعله يقصد نهر جرجان .

(٣) الاغانى - مخطوطة ميونخ (عن دي خويه ص ٢٤١)

(٤) راجع ما ذكره الاصبهاني في مقدمته لديوان ابي نواس (ص ٦) عن ضياع مدائح ابي نواس في جعفر بن يحيى البرمكي .

(٥) يدعوه دي خويه الطنجي . راجع تحقيق الدهان لهذا الاسم ص ٦٣-٦٧ من مقدمة شرحه للديوان .

٢. لحظة في حوكة الشعر في عهده

تخطت الكلاسيكية الشعرية العصر الأموي إلى العصر العباسي . ولولا أن تعهد بها رجال اللغة والدين بعنايتهم ، ولولا أن بقيت رمزاً للحنين إلى الحياة الأولى التي ترسبت في النفوس ، وهدفاً يتطلع إليه كل شاعر ينشد مدح الملوك والأمراء ، ويرغب في أن يسير شعره على ألسنة الرواة أو أن يخلد في شواهد اللغويين والنحاة ، لولا ذلك لكان لها شأن آخر . فلقد تغيرت الحياة في هذا العصر عن ذي قبل ، إذ كان قد انقضى على بدء الفتوحات العربية بمجيئه أكثر من مئة سنة كانت كافية لأن ينشأ فيها في البلاد المفتوحة جيل جديد من العرب انقطعت صلته بحياة البادية أو كادت تنقطع ، واخذ ينهل بشغف من حياض الحضارات المختلفة التي جبهته ، وكانت وسائله إلى هذه الحياض المعاصرة والمزاوجة ثم الترجمة . ولقد استهوته حضارة الفرس المادية فعكف على حياة الترف والدعة والمجون ، كما استهوته حضارة اليونان والهند العقليتان فأخذ عن الأولى الفلسفة والطب والعلوم ، واخذ عن الثانية الحكم والأمثال والمواعظ .

وكان من الطبيعي أن تؤثر هذه الحياة الجديدة في الشعر فتعمل على تجديده . غير أن الشعراء اختلفوا في قبول مثل هذه الحياة الجديدة ، فمنهم من ذهب في ذلك مذهب الإفراط واندفع في تيار الجديد ، ومنهم من بقي محافظاً يتنكر لكل جديد ومجدد ، ومنهم من سار بين هؤلاء وأولئك ، يأخذ من الجديد بقسط كافٍ لأن يمكنه من مجارة الحياة الحديثة ، ويحتفظ من القديم بما قد يدرأ عنه نقد المحافظين ويمكن شعره من الوصول إلى عتبات الخلفاء والسيرورة على ألسنة الرواة . ويشمل الفريق الأول بعض الشعراء الموالين ممن كانوا يتنكرون للتقاليد الشعرية العربية القديمة ويهزأون بها أمثال أبي نواس^(١) ، وبعض شعراء العرب ممن استهوته الحياة الجديدة أيما استهواء أمثال والبة بن الحباب^(٢) وأبان ابن عبد الحميد اللاهقي^(٣) . ويشمل الفريق الثاني شعراء البادية أمثال أبي دلامة^(٤) وربيعه الرقي^(٥) ، ورجال اللغة والفقه ممن كانوا ينظمون الشعر ولا يفضلون

(١) انظر الشعر العربي بين الجمود والتطور ص ٧٣ - ٨٠

(٢) انظر الاغاني ج ١٦ ص ١٤٢ ، وتاريخ الشعر العربي ص ٤٣٣

(٣) انظر طبقات ابن المعتز ص ٢٤١ ، والاغاني ج ٢ ص ٧٣

(٤) طبقات ابن المعتز ص ٥٥

(٥) الاغاني ج ١٥ ص ٣٨

منه سوى ما كان يصلح للاستشهاد به ويترسم فيه صاحبه سبل القدماء في النظم، امثال خلف الاحمر والاصمعي^(١). واما الفريق الثالث فيتوسط الفريقين واهم من يشمل من الشعراء ابن هرمة والعتابي وبشار ومسلم.

ولا يفترض هذا التقسيم امكانية وضع حدود حاسمة بين كل فريق وآخر، اذ ليس من الطبيعي ان تترك الحياة الجديدة شعر اكثر الشعراء ميلاً الى المحافظة دون ان تؤثر فيه ولو بقدر، كما انه ليس من الطبيعي ايضاً ان يتمكن اكثر الشعراء رغبة في التجديد من التخلص من جميع خصائص النظم القديم، فها هو خلف الاحمر - اللغوي الراوية - يضرب بالتقاليد الشعرية عرض الحائط في كثير مما نظم^(٢)، وها هو ابونواس - الممعن في طلب الجديد - يترسم في شعره الرسمي الذي يمدح به الخلفاء خطى الشعراء القدامى في الاستهلال بالغزل ووصف الناقة والاكثار من الغريب وان كان يرى ان الخليفة «قد جشتمه مركباً خشناً» في ذلك.^(٣)

وقد قدر ان لا يكتب النجاح لدعوة غلاة التجديد التي تدعو - كما يبدو من شعر ابونواس الى التمرد على كل قديم، ودمج الحياة الجديدة والشعر الجديد في وحدة متألّفة تقتضي التغيير في الفاظ الشعر، ومعانيه، وموضوعاته، واسلوب نظمه. وكان لذلك سببان رئيسيان، على الاقل: الاول ان اي دعوة متطرفة من هذا النوع يجب ان ترافقها حركة فكرية عامة متطرفة كذلك تدّين بالتغيير الجذري وتقوى على اصطناعه وقبوله، وهذا ما لم يكن العرب قد وصلوا اليه.^(٤) والثاني قوة العوامل التي كانت تجذب الشعر نحو القديم آنذاك. ولعل اهم هذه العوامل اتصال الشعر اتصالاً وثيقاً بالدراسات الدينية واللغوية في ذلك الوقت وتكوينه جزءاً هاماً من تراث العرب القديم الذي لا يزال بالنسبة اليهم مستلهم وحيهم الروحي ومصدر وحدتهم وقوتهم كفاتحين

(١) الموازنة ص ٢٤

(٢) انظر بعض شعره في طبقات ابن المعتز ص ١٤٧، والشعر والشعراء ص ٧٦٤.

(٣) انظر قصيدته في مدح الرشيد التي يستهلها بقوله:

أعر شعرك الاطلال والمنزل القفرا فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
فسمعا امير المؤمنين وطاعة وان كنت قد جشمتني مركباً وعراً

(٤) انظر النقد المنهجي عند العرب ص ٥١-٥٢.

وحكام^(١) .

وعلى هذا فقد سار التجديد في نطاق ضيق تناول التفاصيل دون ان يمس كنه الشعر وابوابه الرئيسية ، فلم تبتدع مسرحية ، ولم تكتب ملحمة ، وانما بقي الشعر غنائياً سلم فيه بناء القصيدة الى حد كبير ونظم اصحابه في معانٍ معظمها قديم وضع في صور من الصياغة الجديدة وبعضها جديد وليد الحياة الجديدة وروافد الفكر الحديث .

والواقع الملاحظ ان الخصومة التي دارت بين المحافظين والمجددين ، والتي اخذت تستحرّ حتى وصلت أوجها بعد ظهور ابي تمام والبحري فيما بعد ، لم تدر حول ما استحدث الاخرون من معانٍ جديدة بقدر ما دارت حول تجديدهم لمعاني القدماء ووضعها في صور شعرية مبدعة فيها تعمل اغراب وميل للتجريد^(٢) ، ومن ثم خروج على عمود الشعر .

ولسنا نعرف الواضع الحقيقي لهذا العمود ، وكل ما نعرفه انه يمثل مذهب القدماء في النظم . ولعل اول من اشار اليه باسمه - على ما نعلم - علي بن عبدالعزيز الجرجاني (+ ٣٦٦ أو ٣٩٢) والحسن بن بشر الآمدي (+ ٣٧٠)^(٣) . غير ان الفضل في التوسع فيه يعود الى المرزوقي (+ ٤٢١)^(٤) الذي يعتبره متضمناً سبعة ابواب هي : « شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والاصابة في الوصف . . . والمقاربة في التشبيه ، والتحام اجزاء النظم والتأما على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار للمستعار له ، ومشكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضاءهما للقافية حتى

(١) ولذلك قاوم الرواة والعلماء حركة التجديد ورأوا فيها تهديداً لكيانهم الخاص ، على الاقل . وكان لمقاومتهم اهمية خاصة اذ كان منهم مؤيدو الخلفاء ومستشاروهم في الحكم على جودة ما ينشد امامهم من شعر . كما قاومها الخلفاء انفسهم ، رغم اعجابهم بالشعر الجديد ، ولا سيما بعد ان اشتدت الحركة الشعبية واصبح العرب يرون في تمسكهم بتراثهم ما قد يعينهم على مناوأة هذه الحركة .

(٢) انظر الصولي ، اخبار ابي تمام ص ١٧

(٣) وكان قد أشار الى بعض مضمونه دون ذكر اسمه محمد بن طباطبا العلوي (+ ٣٢٢) في كتابه عيار الشعر .

انظر الوساطة ص ٣٣ والموازنة ص ٢٠ ، وص ١٣٢ من هذا الكتاب .

(٤) انظر مقدمته لديوان الحماسة (جمع ابي تمام)

يبدو ان المرزوقي في شرحه المسهب لعمود الشعر قد انتفع بكتاب « عيار الشعر » لابن طباطبا (راجع مقدمة عيار الشعر ص ط ، والكتاب ذاته ص ١٥ ، ١٧)

ويبدو ان هذا العمود يمثل القواعد التي اعتبرها العرب القدامى مقاييس للشعر الصحيح والتي اعتبر المحافظون اي خروج عليها خروجاً على اساليب العرب المألوفة في النظم . ونحن ان انعمنا النظر في هذه القواعد التي تشمل ، كما يبدو ، المعنى ، واللفظ ، والصور الفنية ، وطريقة النظم ، والعلائق بين هذه الاشياء ، ثم انعمنا النظر كذلك في سبل التجديد التي طرقها الشعراء المولدون في شعرهم ، استطعنا ان نلمس دواعي الخصومة الحقيقية بين القدماء والمحدثين ، على اختلاف هذه الدواعي قوة وضعفاً . وقد انعكست هذه الدواعي على التسميات المختلفة التي اطلقها النقاد

(١) ويمضي المرزوقي في تفصيل ذلك فيقول : « فعيار المعنى ان يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب ، فاذا انعطف عليه جَنَّبَتَا القبول والاصطفاء مستأنساً بقرائنه ، خرج وافياً ، والا انتقص بمقدار شوبه ووحشته . وعيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال ، فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها ، فهو المختار المستقيم . وهذا في مفرداته وجملة مراعي ، لان اللفظة تستكرم بانفرادها ، فاذا ضامها ما لا يوافقها ، عادت الجملة هجيناً . وعيار الاصابة في الوصف الذكاء وحسن التمييز ، فما وجداه صادقاً في العلوق ، مازجاً في الصوق ، يتعسر الخروج عنه والتبرؤ منه ، فذاك سياء الاصابة فيه ... وعيار المقاربة في التشبيه ، الفطنة وحسن التقدير ، فاصدقه ما لا ينتقض عند العكس ، واحسنه ما اوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات اكثر من افرادهما ، ليبين وجه التشبيه بلا كلفة ، الا ان يكون المطلوب من التشبيه اشهر صفات المشبه به واملكها له ، لانه حينئذ يسدل على نفسه ، ويحميه من الغموض والالتباس ... وعيار التحام اجزاء النظم والتثامه على تخير من لذيذ الوزن ، الطبع واللسان . فما لم يتعثر الطبع بأبنيته وعقوده ، ولم يتحسس اللسان في فصوله ووصله ، بل استمر فيه واستهلاه ، بلا ملال ولا كلال ، فذاك يوشك ان يكون القصيدة منه كالبيت ، والبيت كالكلمة تسالماً لاجزائه وتقارناً ، والا يكون كما قيل فيه :

وشعر كبحر الكبحش فوق بينه لسان دعي في القريض دخيل ...

وعيار الاستعارة : الذهن والفطنة . وملاك الامر تقريب التشبيه في الاصل حتى يتناسب المشبه والمشب به ، ثم يكتفى فيه بالامم المستعار لانه المنقول عما كان له في الوضع الى المستعار له . وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضاؤها للقافية ، طول الدربة ودوام المداورة ، فاذا حكما بحسن التباس بعضها ببعض ، لا جفاء في خلالها ولا نبوء ، ولا زيادة فيها ولا قصور ، وكان اللفظ مقسوماً على رتب المعاني : قد جعل الاخص للاخص ، والاخص للاخص ، فهو البري من العيب . واما القافية فيجب ان تكون كالوعود به المنتظر ، يتشوقها المعنى بحقه ، واللفظ بقسطه ، والا كانت قلقة في مقرها ، مجتلبة لمستغن عنها . فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب ، فمن لزمها بحقها وبني شعره عليها ، فهو عندهم المفلح المعظم واحسن المقدم . ومن لم يجمعها كلها ، فبقدر سهته منها يكون نصيبه من التقدم والاحسان ، وهذا اجماع مأخوذ به ، ومتبع نهجه حتى الآن .»

على هذه الخصومة ، فمن نظر منهم اليها نظرة عامة فهي عنده خصومة على عمود
الشعر ، ومن نظر منهم اليها نظرة خاصة تتجلى في ابرز مظاهرها فهي عنده خصومة
حول اللفظ والمعنى ، او الصنعة والطبع ، او البديع الذي سنتحدث عنه فيما بعد .



٣. موقفه من هذه الحركة

وجد مسلم اذن في عهد اتخذت فيه حركة الشعر شكل صراع بين قديمه ومحدثه ، وكان من الطبيعي ان يكون موقفه من هذا الصراع منوطاً ، الى حد كبير ، بالاثر الذي تركته فيه ثقافته الشعرية القديمة من جهة ، والتأثير الذي فرضته عليه الحياة الجديدة من جهة اخرى .

والظاهر انه احب الحياة الجديدة ، واعانته هبات الملوك والاعلام على ان يغرف منها بقدر . ثم شاء ان يتمثلها في شعره ، غير ان ثقافته القديمة ، حالت بينه وبين ان يتمثلها تمثلاً تاماً ولذا فقد سار في ركاب المجددين المعتدلين من الشعراء امثال ابن هرمة والعتابي وبشار ، واتبع طريقتهم في التجديد وهو استخدام البديع في الصياغة ، ولكنه اسرف في ذلك اسرافاً يمكن ان يعتبر معه مؤسساً لمدرسة البديع في الشعر العربي .

وتقتضي طبيعة البحث ان نعرض لنشوء هذه المدرسة والاسس التي تقوم عليها لنتمكن من فهم شعر مسلم على وجهه الصحيح .

مدرسة البديع:

اكثر ما يتركز عليه اصحاب هذه المدرسة تجديد الصياغة الشعرية واتخاذ ذلك وسيلة لتجديد المعاني وابتكارها . قال الجرجاني : ^(١) « وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سواثر امثاله وشوارد ابياته ، ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالابداع والاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر ، ونظام القريض . وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها ، ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد ، فلما افضى الشعر الى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الابيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن اخواتها في الرشاقة واللفظ ، تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع ، فمن محسن ومسيء ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط » .

ولم تكن لفظة البديع اول عهدها تعني ما استقر عليه معناها فيما بعد على ما

(١) الوساطة ص ٣٣ .

نعرفه في كتب البلاغة ، وإنما كانت تعني الجديد المُحدث المُبدع . ومن معاني البديع عند ابن منظور « الجديد » والمُحدث العجيب^(١) . والظاهر انه كان يقصد به الى نوع من التجديد في الاداء الشعري يقوم على الاستفادة من التشبيه والاستعارة في تكوين الصورة الشعرية وتجميلها ، كما يقوم على استخدام بعض المحسنات اللفظية كالجناس والطباق وغيرهما . وهذا التجديد في الاداء كان يتناول معاني جديدة كما يتناول معاني قديمة يأخذها « بالقلب » او التغيير ، او التوجيه ، او التحسين^(٢) .

ويبدو ان اول من جمع فنون البديع فساعد على تحديد هذا المذهب هو ابن المعتز في « كتاب البديع » الذي الفه سنة اربع وسبعين ومائتين كما يقول^(٣) . وكان غرضه من هذا « تعريف الناس ان المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من ابواب البديع »^(٤) . وهو يحصر البديع في خمسة ابواب هي : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها ، و « مذهب سماء عمرو الجاحظ المذهب الكلامي »^(٥) .

ويبدو كذلك ان الناس لم يكونوا متفقين تماماً على تحديد البديع في زمنه ، اذ كان « بعضهم يقول البديع باب او بابات من هذه الابواب الخمسة ، وبعضهم يقول بل هو اكثر منها ... »^(٦) ، ولذا نراه يردف بأبوابه الخمسة اثني عشر فناً يدعوها « محاسن الكلام والشعر » لثلايتهم بالتقصير والجهل ، ويترك الخيار لمن يشاء اضافة ما يريد منها الى الابواب الخمسة التي ذكرها . اما هذه الفنون فهي : (١) الالتفات (٢) الاعتراض (٣) الرجوع (٤) حسن الخروج من معنى الى معنى (٥) تأكيد مدح بما يشبه الذم (٦) تجاهل العارف (٧) هزل يراد به الجذ (٨) حسن التضمن (٩) التعريض والكناية (١٠) الافراط في الصفة (١١) حسن التشبيه (١٢) حسن الابتداءات .

(١) لسان العرب ، مادة بدع .

(٢) البهيتي ص ٣٦٤ .

(٣) ابن المعتز ، كتاب البديع ص ٥٨ .

(٤) نفسه ص ٣ .

(٥) نفسه ص ٥٣ . (والمذهب الكلامي هو ان يورد للمطلوب حجة قاطعة مسلمة عند المخاطب)

(٦) نفسه ص ٥٨ .

ومهما يكن من امر اختلاف الناس في تحديد ضروب البديع في زمن ابن المعتز فان المرء ليتساءل عن مصدر هذا الفن ، اهو عربي خالص ام انه تأثر بالفنون البلاغية الاجنبية التي قد يكون العرب - ومنهم ابن المعتز - قد عرفوها او سمعوا بها في القرن الثاني والثالث الهجريين؟ والواقع اننا لا نتوقع ان نجد جواباً لهذا التساؤل في الاصول العربية التي عاصرت تبلور هذا الفن ، وذلك لسببين : اولهما اتصال هذا الفن اتصالاً قوياً بالدراسات المتعلقة باعجاز القرآن في ذلك الوقت ، وثانيهما حرص هذه الاصول على ان تنسب للعرب كل ما يمكن ان يرفع من شأنهم تجاه الحركة الشعبية الناشطة آنذاك . وربما كان في تشدد هذه الاصول في نسبة هذا الفن كله للعرب ما يقوي فينا التساؤل عن مدى صحة هذه النسبة . فالجاحظ يقول في البيان والتبيين : « والبديع مقصور على العرب ، ومن اجله فاقت لغتهم كل لغة ، واربت على كل لسان . »^(١) وابن المعتز اكثر ما يعنيه في كتاب البديع ارجاع البديع الى « القرآن واللغة واحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والاعراب وغيرهم واشعار المتقدمين ليعلم ان بشاراً ومسلماً وابانواس ومن تقيلتهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم . »^(٢)

ويختلف النقاد المحدثون في الحكم في هذه القضية ، فبينما يعتقد كراتشكوفسكي ان بديع العرب هو من فعل العرب انفسهم^(٣) ، يرى زكي مبارك انه جاءهم عن طريق الفرس^(٤) ، ويرى شوقي ضيف ان الفرس أعانوا فيه دون ان يخترعوه ، وانه « مذهب عباسي تعاونت فيه طوائف الشعراء من العرب مع طوائف الشعراء من الفرس ».^(٥) ويعتقد ابراهيم سلامة انه عربي في الغالب وان كانت بعض فنونه كالمذهب الكلامي ، قد لا تخلو من اثر يوناني^(٦) . ويرجح محمد مندور انه متأثر في اهم ابوابه بالبلاغة اليونانية ، ويستدل على ذلك بما يرى من تشابه في تعريف ابن المعتز وارسطو للاستعارة والمطابقة والجناس ونسق بحثها لها^(٧) .

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٥٥ .

(٢) كتاب البديع ص ١ .

(٣) المقدمة الانكليزية لكتاب البديع .

(٤) النثر الفني ج ١ ص ٤٤ .

(٥) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١١٤ .

(٦) انظر بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ١١٠-١٣٢ .

(٧) النقد المنهجي عند العرب ص ٥٦-٦٢ .

وليس من شك في ان البديع وجدت جذوره الاولى في الادب الجاهلي ، غير انه كان قليلا فيه ولم يقصد اليه قصداً في الغالب ، « واما كان الشاعر يقول منه البيت والبيتين في القصيدة » ،^(١) بل « وربما قرئت من شعر احدهم قصائد من غير ان يوجد فيها بيت بديع »^(٢) . غير ان هذه الحقيقة لا تنفي وقوعه ، ولا سيما حين اصبح موضوعاً للدراسة زمن ابن المعتز ، تحت مؤثرات اجنبية ساعدت على تشعبه وتحديد بعض الوانه . ولعل الاكثار من استخدامه في العصر العباسي مظهر من مظاهر التألق والميل الى الزخرف الذي لازم الحياة العربية الرافقة في هذا العصر .

ومها يكن الامر فاننا نجد البديع قليلا في ادب الجاهلية وفي القرآن الكريم ، ونجده بصورة ملحوظة في بعض قصائد الوليد بن يزيد والراعي من الامويين ومطيع بن اياس والحسين بن الضحّاك من المخضرمين ، ثم نجده يتزايد في شعر الشعراء المحدثين في العصر العباسي حتى اصبح ينسب اليهم . قال ابن رشيق^(٣) : « قالوا : اول من فتن البديع من المحدثين بشار وابن هرمة وابن ميادة ، ساقه العرب ، وآخر على يستشهد بشعره . ثم تبعها كلثوم بن عمرو العتّابي ، ومنصور النمري ، ومسلم بن الوليد ، وابونواس . واتبع هؤلاء حبيب الطائي ، والوليد البحراني ، وعبدالله بن المعتز » . وقال الجاحظ^(٤) : « وكان العتّابي يحتذي حذو بشار في البديع . ولم يكن في المولدين اصوب بديعاً من بشار وابن هرمة » .

والذي يهمنا من جميع هؤلاء بشار لأن به بدأت الحركة على شكل واضح ، ومسلم لأن به تحولت الى مدرسة .

اما بشار ففارسي الاصل شعوبي ، ولذا لم يكن من العسير عليه ان يصدر عن هذه الحياة الجديدة بروح جديدة تعاف التقيد بالتقاليد العربية القديمة في الشعر ، ويتمثل في نتاجها بداية عصر جديد في الشعر العربي . غير انه ليس من الطبيعي ان يطفر بشار هذه الطفرة وهو منقطع عن سلسلة الشعر العربي ، ولذا فلا بد ان يكون قد تأثر ببعض من سبقه من الشعراء في حياته الاولى على الاقل حين كان يتلمس مثله الفنية قبل ان تستقر على حال . ولكنه على الرغم من هذا تحسن الحياة

(١) كتاب البديع ص ١

(٢) نفسه

(٣) العمدة ج ١ ص ٨٥

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ٥١

الجديدة الى حد كبير وصور المعاني التي تفتقت عنها في شعره ، وطلب البديع في صياغة هذه المعاني . غير ان تحسس الحياة تحسناً تاماً يتطلب عادة سلامة جميع الحواس ، وبشار « ولد اعمى » فما نظر الى الدنيا قط كما يقول صاحب الاغاني ^(١) ، ولذا فان مركب النقص عنده من هذه الناحية حدا به الى الاكثار من التشبيه في شعره . ولكن التشبيه الصحيح عماده البصر ودقة ادراك العلائق بين الاشياء ، وهذا ما يفتقر اليه بشار ، ولذا كانت معظم تشابيه من نوع ايهامي بعدت فيه الصلة بين المشبه والمشب به واختلطت فيه معطيات الحواس المختلفة ، فهو يشبه مسموعاً بمرئي ، ومرئياً بمذوق ، وهكذا ^(٢) . وما يقال عن تشابيه بشار يمكن ان يقال عن استعاراته ، فالاستعارة مبنية على التشبه كما هو معلوم .

واما مسلم فقد حدا حدو بشار ومن لف لفه في استعمال البديع ، ولكنه توسع على ما يظهر في فهم هذا الفن وتفنن في انواعه فلم يعد بديعه يكاد يقتصر على الاستعارة والتشبيه شأنهم ^(٣) ، بل اخذ يشمل ضرباً اخرى كثيرة ، ولذا اعتبر « اول من تكلف البديع من المولدين واخذ نفسه بالصنعة وكثر منها » ^(٤) . وسنأتي على بحث بديعة حين نتحدث عن خصائصه الشعرية .



(١) الاغاني ج ٣ ص ٢٢ .

(٢) انظر تاريخ الشعر العربي ص ٣٥٥-٥٧ .

(٣) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١١٧ .

(٤) العمدة ج ١ ص ١١٠ .

٤. خصائصه الشعرية

يختص شعر مسلم بخصائص معينة تبدو بشكل بارز في ما وصل إلينا من قصائده . ومن الواضح أننا لا نستطيع أن ندعي أن كلاً من هذه الخصائص يقتصر على مسلم دون غيره ، كما ليس من الطبيعي أن ينفرد شاعر بخاصة معينة دون سواها . غير أن ما نستطيع أن نقوله هو أن هذه الخصائص ، مجموعة ، يمكن أن تكون الهيكل العام لشخصية مسلم الشعرية التي سنحاول إبرازها فيما بعد . ولعل من الخير أن نضيف هنا أنه على الرغم من أن قسماً من هذه الخصائص على الأقل ، قد يصلح لأن يكون « قدراً مشتركاً » بين مسلم وفئة من شعراء عصره ، فإنها موجودة في شعره على كل حال . واهم هذه الخصائص ما يلي :

أ - متانة التركيب

أن شعر مسلم متين التركيب في مجمله فصاحبه يحكك شعره ولا يخرج له للناس إلا بعد أن تستقيم قناته وتتماسك عباراته . ولئن كنا نجد عنده قصيدتين^(١) يخرج فيها عن منهجه المألوف في النظم ، فإنما هما قصيدتان فريدتان في الديوان على أي حال ولا بد أن تأثر صاحبهما في نظمهما بالغناء الذي شاع في عصره ونذر أن سلم من تأثيره شعر شاعر معاصر^(٢) . وحتى في هاتين القصيدتين لا نجد مسلماً يحلل نفسه من متانة التركيب إلى الحد الذي يصل إليه أبو العتاهية مثلاً في مثل قوله :

همُّ القاضي بيتٌ يُطربُ قال القاضي لمّا طولبُ
ما في الدنيا إلا مذنبُ هذا عذرُ القاضي وأقلبُ

وقوله :

أن الدنيا قد غرتنا واستعلتنا واستلتهنا
لسنا ندري ما فرطنا فيها إلا ما قدّمنا

ولا إلى الحد الذي يصل إليه بشار في مثل قوله :

وإذا ادنيت مني بصلاً غلبَ المسكُ على ريحِ البصلِ
أن سلمى خلقتُ من قصبٍ قصبِ السكرِ لا عظمِ الجملِ

(١) السادسة والعشرون والسابعة والثلاثون في الديوان ، ومطلع الأولى :
يا أيها المعمود قد شئتُك الصدود

ومطلع الثانية :

تبا به الوساد وامتنع الرقاد

(٢) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٧٢ .

ولا اخالني بحاجة الى ايراد الشواهد الكثيرة على متانة شعر مسلم فديوانه شاهد بين ايدينا ، وسأكتفي بإيراد مقطوعتين له احدهما من قصيدة ضاع اسم الممدوح فيها^(١) ، والاخرى من قصيدة في مدح الفضل بن جعفر^(٢) : قال في الاولى :

لو ساعف الدهر لارتدت غضارته
ماذا تراءى له نأي الخليط به
لله در اللواتي عفن مكرعه
خاف العيون وضمته عزيمته
ورحن والعين للتوديع واكفة
بالله أخلف ما ألتفت من تشب
تهوي باشعث اعطاه المني امل
فاستودعته بطون البيد همة
حتى اذا قبض الإدلاج بسطتها
تمخضت عنه تمنا بعد حمله
ألقت كالنصل معطوفا على هم
تخطأت نومه عنه وشايعة
حاشي لطالب عرف ان يخيب على
ظنون راجي الذي يرجوك واثقة
تأتي عطايه شتى غير واحدة
كحملة السيل تأتي بعد عشرة
لا يمنع العرف من إلحاح طالبيه
يبر بالجوود بحميه ويكلؤه
أغنى الصديق فعاشوا منه في رعد
معتقر الكوم للاضياف ليس لها
تأتي الدور فتفنيها صنائعه
لا يعرف المال الا عند سائله

ولاسترد مودات المها الخرد
غداة يحمد لما او يذم قد
حتى صدرن به ظمان لم يرد
الى امتناع على جولان مطرد
انسائها من مسيل الدمع في صعد
وعادة الجود في ابياتي الشرود
وعقدة من رجاء ضامن العقيد
واودعته الشرى في الوعث والجدد
وقفت من مني الساري على امد
شهرين بيدا لم تضرب ولم تلد
يعمدن مستجعات خير معتمد
دأب الجديدين والعيدية الوخذ^(٣)
ندى يدبك ولو حاشاك لم يحيد
ألا يخيب فيها آخر الأبد
مؤمليه وان كانوا على بعد
له قراقير بالآذي والزبد
ولا يقرب منه رفق متسد
كانه والد يحنو على ولد
واستل جود يديه غل ذي الحسد
ألا المكارم من عقل ولا قود
وما يدنس فيها كف منتقد
او يوم يجمعه للنهب والبدد^(٤)

(١) القصيدة الثامنة في الديوان

(٢) هكذا في الديوان . وقد جاء في كتاب الاغاني انها قيلت في الفضل بن يحيى (مخطوطة دار الكتب للاغاني ج ١٧ ص ٥٤ ظ ٥٥٠ و- عن الدهان ص ٣٨١-٨٢)

(٣) العيدية : النوق المنسوبة الى «العيد» وهي قبيلة في مهرة .

(٤) البدد : الحاجة .

وقال في الثانية :

وخضراء يدعو شجوراً مكثتها الصدى
سقاها الثرى ماء الندى وأسرّها
إذا درجت فيها الجنوب تعانقت
كساها الحلا الوسمي من كل جانب
تحلب منها مستسّر من الندى
أنخت بها والشمس تنعق بالضحي
إذا شئت حيائي الثرى بنباتيه
تراخين دوني ثم أوجسن وطاة
وغبراء لا يسقي على الخمس ركبها
تجاوزتها والآل مستنقع بها
وملتجب بالنأي قلب دليلها
لقيت الدجى فيها وللأصل قلعة
ولمّا تعالى الليل سقت بنا السرى
إذا شئت خلقت الصبا وصحبها
اتك المطايا تهدي بمطية
وردن خلاف الليل والليل مصدر
فلما نحين النور خرّين تحته
وردن رواق الفضل فضل بن جعفر

إذا نسفتها الريح ريحانها شعل^(١)
من القبط حتى امرع السارح الربل^(٢)
بها سامقات الزهر واصطحب البقل^(٣)
طرائق حتى سود حوزاتها^(٤) شهل^(٥)
بريح الصبا والروض أعينه خضل^(٦)
وما صاحبي إلا المدامة والجحل^(٧)
وطالعي في روضه العضم العقل^(٨)
فأتلعن كحلاً مستراباً لها الكحل^(٩)
قطعت وريق الشمس يغلي به السجل^(١٠)
كنشر القباطي انتضى ماءها الغسل^(١١)
يبيت بها عن بيته الجأب والصعل^(١٢)
ومحتنك الإمساء مقتضب طفيل^(١٣)
جلايبه حتى رأى دبره القبل^(١٤)
يوجناء موصول بغار بها الرحل^(١٥)
عليها فتي كالتصل يؤنسها النصل^(١٦)
أواخره والفجر عريان أو فضل^(١٧)
على أمل يشجى به اليأس والمطل^(١٨)
فحطّ الشناء الجزل نائله الجزل^(١٩)

(١) ريحانها شعل: أي مشتعلة الرائحة.

(٢) الربل: نوع من النبات.

(٣) الحوزة: الناحية والطبيعة، وقيل العنب.

(٤) الجحل: الزق.

(٥) أتلعن كحلاً: رفعت أعينها كحلاً.

(٦) الخمس: من أظماء الأبل، وهو أن ترد الأبل الماء في اليوم الخامس - السجل: الدلو العظيمة.

(٧) القباطي: جمع قبطية وهي ثياب من كتان كان ينسجها أقباط مصر.

(٨) ملتجب: متصوت: الجأب: الغليظ - الصعل: الصغير الرأس.

(٩) مقتضب: منقطع.

(١٠) مصدر: راجع - فضل: فيه بقية من الظلمة.

(١١) نحين: قصدن - خرّين: بركن.

فَتَى تَرْتَعِي الْأَمَالُ مُزْنَةَ جُودِهِ إِذَا كَانَ مَرَعَاهَا الْإِمَانِيَّ وَالْبُطْلُ
تُسَاقِطُ يُفْنَاهُ نَدَى وَشِمَالُهُ رَدَى وَعَيُونَ الْقَوْلِ مَنْطِقُهُ الْفَضْلُ
أَلَحَّ عَلَى الْإِيَّامِ يَقْرِي خُطُوبَهَا عَلَى مَنْهَجِ الْفَى إِبَاهُ بِهِ قَبْلُ
عَجُولُ إِلَى مَا يُودِعُ الْحَمْدَ مَالَهُ يَعْدُ النَّدَى غُنْمًا إِذَا اغْتَنِمَ الْبَخْلُ

يبدو في هاتين القصيدتين ، كما يبدو في جل قصائد مسلم الأخرى ، متانة في تركيب العبارة وقوة في تماسك اجزائها بصورة عامة ، فلناكد نرى فيها ضعفاً في التأليف أو خللاً في مواقع الكلم أو اضطراباً في « نظم الكلام » إلا في القليل النادر .

ب - الجمع بين القديم والجديد

كانت الحياتان - القديمة والجديدة - تتجاوران في الكوفة وبغداد في القرن الثاني الهجري ، وكان لكل منهما اثر في شعراء العصر ، غير ان مقدار هذا الاثر كان يقرره مدى اتصال الشاعر بأي منها . وقد خبر مسلم الحياتين على ما يبدو ، وامتزجت فيه ثقافتاهما . وقد عزز القديم عنده ما روى للشعراء القدامى وهو يتلمس طريقه الى الشعر ، كما عزز الجديد اتصاله بكثير من الشعراء الموالين الذين عاصروه . وهكذا فقد سار القديم والجديد متوازيين في شعره - بصورة عامة - وان اختلف اثر كل منهما قوة وضعفاً بالنسبة لصله الموضوع الذي نظم فيه بالحياة القديمة أو الجديدة .

ولنا ان نتساءل عن جديد مسلم أهو في الالفاظ ، أم في المعاني ، أم في الموضوعات ، أم في شكل القصيدة ؟ يقول الدكتور ضيف في هذا الصدد اننا لا نجد عند مسلم « تجديداً في المعاني ولا ابتكاراً في الموضوعات ، فطرافته كلها تقف عند التصنيع وما يأتي به من زخرف انيق ووشي كثير » (١) . ورغم تقديرنا لهذا القول فاننا نرى فيه شيئاً من التعميم والمبالغة ، فليس من سنّة الكون ان لا يحدد المرء في المعاني والموضوعات ولو في نطاق ضيق ، فان في عدم التجديد نقضاً لمبدأ الذاتية (Subjectivism) . ولعل ايراد الدكتور لهذا القول في صدد بحثه عن مدرسة التصنيع حذاه على التشديد على هذه الناحية عند مسلم واستبعاد غيرها من نواحي التجديد الأخرى . والواقع اننا لسنا ميالين الى المبالغة في امر

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١١٨ .

هذه النواحي ، غير انها وجدت على كل حال ، ومن الغبن للحقيقة ان نفرض النظر عنها في سبيل تمييز مدرسة خاصة وابرار سماتها المميزة كما فعل الدكتور ضيف ، فنحن هنا نعالج مخلوقاً حياً تتطور فيه الحياة فيتطور وتتطور عنده المعاني والموضوعات ، مما يكن مدى هذا التطور . ودليلاً على ما اقول ، لقد كانت معظم الشعراء القدامى يستهلون قصائد المديح عادة بالغزل فجاء مسلم واتبع هذه السنة في معظم الاحيان . ولذا يبدو — على الظاهر — ان لا جديد عنده في هذا الباب . والواقع انه حاول التجديد فيه حين سعى الى التوفيق بين هذا الغزل التقليدي وظروف حياته الخاصة في بعض مدحيه التي نظمها في كهولته . ونستطيع ان نتحقق من ذلك حين ننعم النظر في مدائحه التي يذكر فيها الكهولة والتي لا بد ان يكون قد نظمها بعد ان اصبح الغزل لا يتلاءم وسنته . ولناخذ بالذات القصيدة الرابعة عشرة من الديوان التي يمدح فيها الرشيد والتي يستهلها بقوله :

قد اطلعت على سرّي وإعلاني فاذهب لثأنيك ليس الجهل من شاني
إنّ التي كنت أنحو قصداً شرّاً بها اعطت رضى واطاعت بعد عصيان
حسبي بما ادّت الايام تجربة سعى علي بكأسها الجديدان
دلّت على عيبها الدنيا وصدقها ما استرجع الدهر مما كان اعطاني
أما تريني أَرْجِي العيسَ مُنتظِراً وعدّ المني أرتعي في غير اوطاني
فقد اروح نديم الدهر يمزج لي كأس الهوى ويحييني برّيحان
سائل جديد الهوى هل كنت أخلقه اذ للصبأ مهجة تمشي بجثماني
ايام العذل إكثار ومعصية والراح تسرع في عقلي وأحزاني

الا ترى أن في هذا المطلع خروجاً على مألوف الشعراء القدامى في الغزل ؟ لقد وجد الشاعر ان التقاليد الشعرية تقتضي منه الاستهلاك بالغزل ، ولكنه وجد من ناحية اخرى ان التغزل قد لا يتلاءم والظرف الذي كان فيه ، ولذا فقد لجأ الى بدعة جديدة حاول ان يوائم فيها بين ذاته وبين تقاليد الشعر المعروفة لعهد : فمن حيث ذاته طلب من رفيقه ان لا يجبره على التغزل بعد ان ترك الجهل وغدت نفسه التي كان يقصد الى هواها في صباه ثأبة طيعة . ومن حيث تقاليد الشعر اخذ يذكر حبه القديم حين كان دم الصبا يفعم عروقه ويثير في قلبه لواعج الحب . ولعمري ان في هذه البدعة محاولة للتقريب بين الشعر والذات وخطوة في سبيل التجديد في هذا الميدان .

ومها يكن الامر ، فاننا نلاحظ من الديوان ان تجديد مسلم كان دائماً يسير ضمن اطار القديم ، فهو في الواقع لم يحدد الشعر ولكن جدد فيه . وبياناً لذلك اورد المثل الآتي :

كان الشعراء القدامى يستهلون مطولاتهم في المديح بالغزل في الغالب ثم ينتقلون من الغزل الى وصف الناقة التي سافروا عليها للممدوح وذكر المشقات التي لاقوها في سفرهم اليه . وبعد ذلك يخلصون الى المديح . وشاء مسلم ان يحدد في احدى قصائده فماذا فعل ؟ انه لم يستغن عن فكرة السفر الى الممدوح وانما استبدل اداة السفر بحيث اصبحت اكثر ملاءمة لحياته الجديدة فوصف السفينة عوضاً عن الناقة . واليك هذه القصيدة .

أديرني عليّ الرّاحَ ساقيةَ الحمرِ ولا تسأليني واسألي الكأسَ عن امري
كانك بي قد أظهرتْ مُضمرَ الحشا لك الكأسُ حتى اطلعنك على سرّي
وقد كنتْ ألقى الرّاحَ ان يستفزني فتَنطِقَ كأسٌ عن لساني ولا ادري
ولكنني اعطيتْ مقوذي الصّبا فقادَ بناتِ اللّهُوِ مخلوعةَ العُذُرِ
اذا شئتْ غاداني صُبحٌ من الهوى وان شئتْ ماساني غُبوبٌ من الحمرِ
ذهبتْ ولم أجدْ بعيني نظرةً وأيقنتُ انّ العينَ هاتكةٌ سِري
جعلنا علاماتِ المودّةِ بيننا مصايدَ لحظٍ هنّ أخفى من السّحرِ
فأعرفُ منها الوصلَ في لينٍ طرفها واعرفُ منها الهجرَ بالنظرِ الشّرِ
وفي كلِّ يومٍ خشيّةٌ من صدودها أبيتْ على ذنبٍ واغدو على عُذُرِ
وملتطيمِ الامواجِ يرمي عبابه يجرّ جَرّةَ الآذني للعِبرِ فالعِبرِ^(١)
مُطعمّةٌ حيتانه ما يُغيّبها ما كلُّ زادٍ من غريقٍ ومن كَسَرِ
اذا اعتنقتْ فيه الجنوبُ تكفّاتُ جواريه او قامتْ مع الريح لا تجري^(٢)
كانّ مدبّ الموجِ في جنباتها مدبّ الصّبا بين الوعاثِ من العُفْرِ^(٣)
كشفتْ اهاويلَ الدجى عن مَهولَةٍ بحاريةٍ محمولةٍ حاملٍ بكرِ
لطمتْ بخدّها الحجابَ فاصبحتْ موقّفةً الدّاياتِ مرثومة النحرِ^(٤)

(١) جرجرة الآذني : صوت الموج - العبر : الحفافة .

(٢) اعتنقت : اضطربت - جواريه : سفنه .

(٣) الوعاث : اللينة (لرمال) - العُفر : جمع اعفر وهو الكتيب الاحمر ، ويرى العُفر ، وهو التراب .

(٤) الحجاب : زبد الموج - موقّفة الدايات : مخططة الظهر - مرثومة النحر : في نحرها بياض .

إذا أقبلت راعت بقتة قرههيب
تجافى بها النشوي حتى كأنما
تخلج عن وجه الحجاب كما اثنت
أطلت بمجذافين يعتورانها
فحات قليلاً ثم مرّت كأنها
أناف بهاديا ومدّ زمامها
إذا ما عصت أرخى الجرير لرأسها
كأن الصبا تحكي بها حين واجهت
يمّنا بها ليل التمام لاربع
فما بلغت حتى اطلّح خفيها
وحتى علاها الموج في جنباتها
رمت بالكري هواها عن عيونهم
تؤم محل الراغبين وحيث لا
ركبنا اليه البحر في مؤخراته
ويلاحظ من هذه القصيدة ، التي ضاع قسمها الاخير على ما يظهر ، امران
على الاقل :

الاول ان مسلماً استعاض عن وصف الناقة بوصف مسهب للسفينة ، والثاني
انه ، رغم جدة الموضوع في هذا الوصف ، كثيراً ما يلجأ الى الصور البدوية والتشابه
الحسية التي تتصل بها في العادة لابرار معانيه . فهو حين يصف مدب الموج في
جنبات سفينته مثلاً يشبها بجارية تثني وهي تنتقل من كسر الى آخر في الحباء .
ولعل ذلك يرينا قوة الرصيد القديم عند مسلم المجدد .

ولنر الآن كيف يتجاوز القديم والجديد عند مسلم في الفاظ قصائده ومعانيها

- (١) قنة قرههيب : رأس ثور وحشي من ، شبه به السّوقية التي يقعد عليها الرانس في صدر
الركب - راعت بقادمي نسر : اي اعجبت بمقادف كأنها جناحا نسر .
- (٢) تجافى : تنحى عن الصخور الكبيرة التي في النهر
- (٣) تخلج : تنحى .
- (٤) الهادي : العنق - شديد علاج الكف معتمل الظهر : يقصد نوتياً ظهره عامل على جذب
الحبال مع يديه .
- (٥) الاطلّح : الكلل والتعب .

وموضوعاتها واوزانها ونهجها العام .

الالفاظ : تغلب على الفاظ مسلم الجزالة بصورة ، عامة وهذه الجزالة تقرّ بها من الفاظ الشعر القديم التي تتسم بالجزالة في الغالب . اقرأ القطعة التالية التي يصف فيها الصحراء وقطعه اياها لمدوحه :

وقاطعة رجل السبيل مخوفة	كأن على ارجائها حد مبرد ^(١)
عزوف بانفاس الرياح أبيّة	على الركب تستعصي على كل جلعدي ^(٢)
يقصّر قاب العين في فكلواتها	نواشز صفوان عليها وجلعدي
مؤزرّة بالآل فيها كأنها	رجال قعود في ملاء معصدي ^(٣)
إذا الحركات هيجنها وقف الصدى	على نبزات من اهازيح هدهدي ^(٤)
تناولت أقصاها اليك ودونته	مقص لأعناق النجاء العمردي ^(٥)
بوجناء حرف يستجد مراحها	مراح السرى والكوكب المتوقدي ^(٦)
إذا قدحت احدى الحصى قذفت بها	فتقذف في أخرى وان لم تعمدي
أقلت اليك الناجدات معرّساً	على أمل جواب بيداء قردي ^(٧)
تراءت له الاحداث حتى إذا اقتنى	رجاء كصدت عنه عن قرب معدي ^(٨)

تجد انك امام قطعة لا تختلف كثيراً عن الشعر القديم من حيث جزالة اللفظ وقوة اسره على الاقل .

ثم اقرأ القطعة التالية التي يتغزل فيها :

نبايه الوساد	وامتنع الرقاد
وصاده غزال	يرمى فما يصاد
ويلى أنا مريض	مالي لا أعاد
أبكي على فؤادي	أذ ذهب الفؤاد

- (١) قاطعة رجل السبيل : اي لا يدخلها احد .
- (٢) عزوف بانفاس الرياح : اي مصوّة - الجلعدي : الصلب الشديد .
- (٣) معصدي : مطرز الاطراف .
- (٤) نبزات : أصوات
- (٥) النجاء : السرعة - العمردي : السير الشديد .
- (٦) وجناء : ناقة قوية - حرف : صلبة .
- (٧) الناجدات : التبايق الماضية في يعجز غيرها - المعرّس : النازل في وجه الصبح لراحة - القرود : المرتفعة .
- (٨) عن قرب معدي : عن قرب عهد ، اي عن مشاهدة .

ولو بكى لشيء بكى لي البعاد
أصبحت في جهاد إن الهوى جهاد
يا قاتلي وقتلي في غيره السداد
صرمتني ومنني صفا لك الورداد

تجد انها اقرب الى روح العصر الجديد واعلق بالغناء والموسيقى اللذين شاعا فيه من القطعة الاولى .

وقد يستعمل مسلم بعض الالفاظ التي هي من نتاج الحياة الجديدة والتي كان يحظر على الشاعر استعمالها ^(١) كالترنج والتفاح . قال :

جزى الله من اهدى الترنج تحية ومن بما يهوى عليه وعجلا
اتننا هدايا منه اشبهن ريحه واشبه في الحسن الغزال المكحلا
ولو أنه اهدى اليّ وصاله لكان الى قلبي ألدّ وأفضلا
وقال ايضاً :

تفاحة شامية من كف ظي غزل
ماخلقت مذخلقت تلك لغير القبل

ولا ريب ان اهم باب جدد فيه مسلم هو باب الالفاظ من حيث الابداع في استعمالها وصياغتها في قوالب جديدة . وسأتناول هذا البحث بالتفصيل حين أتحدث عن بديعه .

المعاني : من الحق ان يقال ان جل معاني مسلم معاني قديمة صيغت بقوالب جديدة ، ولكن مع ذلك فقد اتاحت له المدنية ان يعبر عن معاني جديدة فيها تجريد لم يألفه الشعراء القدامى ، كما اتاحت له ان يتعمق الأفكار بشكل لم يؤلف قبلاً في الغالب . قال :

مؤف على مهج في يوم ذي رهج كأنه أجل يسمي الى امل

١) ذكر ابن قتيبة (الشعر والشعراء ص ٢٢) ان خلف الأحمر قال : « قال لي شيخ من اهل الكوفة : اما عجب من الشاعر قال :

انبت قصوماً وجثانا

فاحتل له ، وقلت انا :

انبت اجتاصاً وتفاحاً

فلم يحتمل لي ؟

وقال :

وإن خلّت بحديث النفس فكرته حَيَّ الرجاء ومات الخوف من وجل

...

صَدَقْتَ ظَنِّي وَصَدَقْتَ الظنونَ بِهِ وَحَطَّ جُودُكَ عَقْدَ الرَّحْلِ عَنْ جَمَلِي
ففي هذه الابيات الثلاثة يحاول الشاعر ان يتحفنا ببعض الصور المجردة ،
كأن يجعل الاجل يسعى الى الامل ، والفكرة تخلو بحديث النفس ، والرجاء
يحيا ، والخوف يموت ، والظن يصدق .

ولا ريب ان التهكم الذي نراه في اهاجيه هو مظهر من مظاهر هذا التعمق
النسي . فالتهكم عادة وليد عقلية مركبة لا ساذجة ، تعرف المداورة وتخبر
العلاقات بين الاشياء . قال في هجاء موسى بن حازم بن خزيمه :

يا ضيفَ موسى أَخِي خُزَيْمَةَ صُمْ أَوْ فَتَحَاتَمَ إِنْ كُنْتَ لَمْ تَصُمْ
أَطْرَقَ لِمَا آتَيْتُ مُتَمَدِّحاً فَلَمْ يَقُلْ لَا فَضْلاً عَلَى نَعَمٍ
وَارْبَدٌ مِنْ خَشْيَةِ السُّؤَالِ كَمَا يَرِيدُ عِنْدَ الْوَفَاةِ ذُو أَلَمٍ
فَخَفْتُ إِنْ مَاتَ أَنْ أَقَادَ بِهِ فَقَمْتُ أَبْغِي النُّجَاةَ مِنْ أَمَمٍ
لَوْ أَنَّ كَنْزَ الْعِبَادِ فِي يَدِهِ لَمْ يَدْعِ الْإِعْتِلَالَ بِالْعَدَمِ

وقال يهجو العباس بن الاحنف :

بَنُو حَنِيفَةَ لَا يَرْضَى الدَّعْيُ بِهِمْ فَاتْرُكْ حَنِيفَةَ وَاطْلُبْ غَيْرَهَا نَسَباً
وَاذْهَبْ إِلَى عَرَبٍ تَرْضَى بِنَسَبِهِمْ إِنِّي أَرَى لَكَ خَلْقاً يُشَبِّهُ الْعَرَبَا

وقال في هجاء شاعر آخر لعله ابن قنبر :

أَخْلَقْتَ فخرَكَ مِنْ أَبِيكَ فَجِئْتَنِي بِأَبٍ جَدِيدٍ بَعْدَ طَوْلِ تَلَمُّسٍ
أَخَذْتَ عَلَيْهِ الْمُحْكَمَاتِ طَرِيقَهَا فَعَدَا يُنَاقِضُ أَعْظَمًا فِي أَرْمَسٍ

الموضوعات : نظم مسلم جل قصائده في موضوعات سبقه اليها الشعراء ، غير
انه مع ذلك نظم مقطوعة في وصف وصيف لمحمد بن منصور. (١) وهذا الموضوع
الغلماني لم يألفه الشعراء القدامى وان كان قد شاع في عهد مسلم .

كما نظم في وصف السفينة بأسهاب لا اعلم ان احداً من الشعراء سبقه الى مثله .

(١) تجدها في شرح الديوان (للدهان) ص ٣٤٤

الاوزان : ان جل قصائد مسلم التي وصلت الينا هي من البحور الطويلة التي فيها الشعراء القدامى . غير ان بين هذه قصيدتين من بحر قصير خفيف هو مجزوء الرجز . والقصيدة الاولى يقولها في الغزل ووصف الخمر ومطلعها :

يا ايها المعمودُ قد شقَّكَ الصُّدودُ

والثانية يقولها في مدح محمد بن منصور ومطلعها :

نَبَا بِهِ الوِسادُ وامتنعَ الرُّقَادُ

ومن المعلوم ان شيوع استعمال الاوزان الخفيفة ومجزوءات الاوزان الطويلة امر جديد اقتضته المدنية وما لازمها من شيوع الغناء والموسيقى .

نهج القصيدة العام : على الرغم من ان مسلماً احتذى حذو من سبقه من الشعراء من حيث الهيكل العام للقصيدة بصورة عامة ، فانه حاول ان يحدد في بعض اجزاء هذا الهيكل ، فقد علمنا كيف انه رحل الى ممدوحه في بعض مدحه في سفينة عوضاً عن ناقة . ولا ريب ان هذه المحاولة التي حاول فيها الشاعر ان يقارب بين شعره وبين البيئة التي يعيش فيها تمثل ثورة على القديم تعدت مسلماً الى غيره من الشعراء مثل ابي نواس الذي امتطى نعله الى الممدوح في قصيدة يمدح فيها الفضل البرمكي^(١).

وقد اقتضى شغف مسلم بالتوسع في الصور الى ان يخرج عن وحدة البيت ، فالبيت الواحد اعجز من ان يحقق رغبته في هذا الصدد ، ولذا فالتجذبات الكثير من قصائده يكاد يكون مجموعات من وحدات متتابعة . ولكن تتابعها لا يسير متسلسلاً على سنن المنطق دائماً . فقد يرسم صورة ليعود الى اتمامها فيما بعد^(٢) ، وقد يعرض فكرة مرة ليتحدث عنها مرة اخرى بعد ابيات .^(٣) وقد أدى هذا الى اخلال في البناء الهندسي لبعض قصائده . وتعليل هذه الظاهرة هو ان المنطق لم يكن قد استأثر بعقول الشعراء بعد ولعله لم يستأثر بها قبل القرن (١) يقول في هذه القصيدة :

اليك ابا العباس من دون من مشى عليها امتطينا الحضرمي المُلَكَّنا
قلائص لم تسقط جنيناً من الوجى ولم تدر ما قرع الفنيق ولا الهنا
نزور عليها من حرام محرم عليه بان يعدو براثره الفنى

(٢) لاحظ الابيات ٢١-٢٣ من القصيدة الرابعة عشرة في الديوان .

(٣) لاحظ رجوعه الى الحديث عن الرحلة للمدوح في البيت ١٨ من قصيدة ٣٤ بعد ان حط الركاب اليه في بيت ١٧ .

الثالث والرابع ثم الخامس المهجري حيث نرى اثره واضحاً في شعر ابي تمام والمتنبي ثم ابي العلاء من بعدهما .

ج - الغلو في نشدان الجمال الفني عن طريق البديع

« ومسلم اول من لطف البديع وكسا المعاني حلل اللفظ الرفيع وعليه يعول الطائي وعلى ابي نواس »

زهر الآداب ٤ / ١٣٢

لقد اكثر مسلم من استعمال البديع كما ذكرنا سابقاً حتى جعل منه مذهباً^(١) . فنحن لا نكاد نقرأ له قصيدة دون ان نجد فيها مفعة بضروب البديع ، اللفظي والمعنوي ، التي قد تتزاحم في البيت الواحد احياناً . دعنا نقرأ المقطوعة التالية من قصيدة له في الغزل ووصف الخمرة لنرى ما فيها من ضروب البديع :

- (١) وساحرة العينين ما تحسن السحرا تواصلني سرّاً وتقطعني جَهراً
- (٢) ابت حدّق الواشين أن يصفوا الهوى لنا فتعاطينا التعزّي والصبراً
- (٣) وكُنّا اليقي لذة شمل صفوة حليفي صفاء ما نخاف له غدراً
- (٤) فعُدنا كغصني أيكّة كلما جرت لها الريح أُلقت منها الورق الخضراً
- (٥) وزائرة رُعت الكرى بليقائها وعاديت فيها كوكب الصبح والفجراً
- (٦) أتتني على خوف العيون كأنها خذول تُراعي النبت مشعرة دُعراً^٢
- (٧) اذا ما مشت خافت نعمة حليها تواري على المشي الخلاخيل والعطرا
- (٨) قبت أسير البدر طوراً حديثها وطوراً أناجي البدر أحسبها البدر
- (٩) إلى أن رأيت الليل منكشِف الدجى يودّع في ظلماته الأنجم الزهراً

نلاحظ ان في البيت الاول من هذه المقطوعة يستعمل الشاعر ايهام التضاد بين السحر وعدم احسانه ويطابق بين (تواصلني) و (تقطعني) وبين (سرّاً) و (جهراً) . وفي البيت الثاني يردف ثلاث استعارات كلّ بالآخرى ، ثم يستعمل مراعاة النظير حين يذكر التعزي والصبر . وفي الثالث يأتي بثلاث استعارات ويحانس بين أليفي وحليفي وصفوة وصفاء . وفي الرابع يلجأ الى التشبيه التمثيلي .

(١) الشعر في بغداد ص ٣١٣

(٢) الخذول : الظبية تخلفت عن صواحبها وانفردت عن القطيع .

وفي الخامس يستخدم التشخيص اذ يجعل من الكرى شخصاً يُراع ومن كل من كوكب الصبح والفجر مخلوقاً يُعادي . وفي السادس يأتي باستعارة وتشبيه . ثم في السابع يأتي باستعارة مكنية ويشخص حين يجعل من كل من الخلاخيل والعطر شخصاً ينم . وفي الثامن تشخيص للبدر ولذا فان الشاعر يطوي عنه حديثها احياناً احياناً ويناجيه احياناً أخرى ، وهو حين يطوي عنه الحديث يعتبره مخلوقاً آخر غير حبيبته ، وحين يناجيه يحسبه حبيبته ذاتها . وفيه ايضاً إيهام التضاد بين إسراره البدر حديثها ومناجاته اياه . وكذلك فيه ضرب من البديع لم يذكره ابن المعتز ولعله عرف بعده وان كان قد وجد قبله ، وهذا الضرب يطلق عليه صاحب الصناعتين اسم المجاورة .^(١) وفي البيت الأخير تشخيص لليل اذ يجعل منه شخصاً يودع النجوم المنيرة عند انقشاع الدجى .

والغريب انه رغم زحمة البديع في هذه الابيات فان القارىء يرتاح اليها بصورة عامة ، ولعل ذلك ناجم عن ان مسلماً يستطيع في معظم الاحيان ان يوائم بين الطبع والصنعة فيمنع الصنعة من افساد شعره .

ولنأخذ قطعة اخرى في باب آخر غير الغزل ، وليكن المديح مثلاً . قال في قصيدة يمدح بها يزيد بن يزيد :

ما من عظيمٍ قد انقادَ الملوكُ لهُ
إلا يرى لكَ إجلالاً وإعظاماً
يُصيبُ منكَ معَ الآمالِ صاحبُها
حليماً وعلماً ومعروفاً وإسلاماً
كم بلدةٌ بكَ حلَّ الركبُ جانبِها
وما يُلِمُّ بها الرُكبانُ إلماً
اذا علّوا مَهْمَها كانَ النجاءُ لهمُ
إنشادَ مدحِكَ إفصاحاً وترانماً
لو كان يفقهُ رَجَعَ القولُ طائرُها
غنّى بمدحكَ فيها يومُها الهاماً

يلاحظ ان في هذه القطعة كثيراً من ضروب البديع أيضاً، ففيها إرصاد واستعارة وجمع وملحق بالجناس . غير ان البديع لا يزدحم فيها ازدحامه في القطعة الاولى على اي حال .

وليس ما ذكرنا من انواع البديع هي الانواع الوحيدة التي استخدمها مسلم ،

(١) يعرف ابو هلال المجاورة بقوله : « المجاورة تردد لفظتين في البيت ووقوع كل واحدة منها بجانب الاخرى او قريباً منها من غير ان تكون احدهما لغواً لا يحتاج اليها . » (كتاب الصناعتين ص ٤٠١) .

فهناك كثير غيرها نذكر منها التجريد^(١) ، والترصيع^(٢) ، والتلميح^(٣) ،
والتهكم^(٤) ، ورد العجز على الصدر^(٥) ، وحسن التعليل^(٦) ، والاستطراد^(٧) .

ومن الواضح ان اتخاذ البديع وسيلة للزخرف هو أثر حضاري انعكست فيه
مظاهر الحياة العامة على مظاهر الحياة الفنية عند الشعراء العباسيين بصورة عامة^(٨) ،
غير ان هذا الأثر كان قوياً عند مسلم بحيث قال ابن المعتز انه « حشا شعره به »^(٩) .

ولإمعان مسلم في طلب البديع كثيراً ما يبدو لنا في شعره كصانع ماهر أو
كنحات قدير يعمل بدأب وجهد في صوغ أثره الفني . ومن ثم فقد كان ذا رؤية
وإدمان^(١٠) في نظمه حتى قيل فيه انه « زهير المولدين »^(١١) .

وليس من ريب في ان اكثاره من استخدام البديع يتصل اتصالاً وثيقاً برغبته
في تزيين شعره ونشده ان الجمال الفني فيه . وعلى ذلك فان من حقنا ان نتساءل
الآن عن مدى توفق شاعرنا في تحقيق رغبته عن هذا الطريق .

قد يستمد الشعر بعض جماله من الفاظه ، او موسيقاه ، او دقة تصويره ،
او لطف ايجائه ، وقد يستمد من معانيه وما تنتظم هذه المعاني من عاطفة قوية
او فكرة طريفة^(١٢) . غير ان المصدر الرئيسي لجماله مع ذلك يبقى في مدى
اتصاله بنفس شاعره وتعبيره عما يحول فيها من معانٍ وما يحيش فيها من خطرات .

وعلى ذلك فمتى كان البديع يوائم طبع النفس ولا يتعارض وخطراتها كان
حلية لهذا الطبع وتلك الخطرات ، اما اذا تعارض مع الطبع فانه يخرج الشعر

- | | |
|---|----------------------------------|
| ١) مثل قوله: أغرى به الشوق ليل الساهر الرمد | ونظرة وكلت عينيه بالسهد |
| ٢) » : » : خيال من النائي الهوى المتبعّد | سرى فسرى عنه عزم التجلد |
| ٣) » : » : عودت نفسك عادات خلقت بها | صدق الحديث وانجاز المواعيد |
| ٤) » : » : أخلقت فخرك من ابيك فجئتني | بأب جديد بعد طول تلس |
| ٥) » : » : بطرفي وقلبي يستدلني الهوى | فن ذا الذي يعدي على الطرف والقلب |
| ٦) » : » : امر بالحجر القاسي فألثمه | لأن قلبك قاس يشبه الحجر |
| ٧) » : » : واحببت من حبها الباخلين | حق ومقت ابن سلم سعيداً |

٨) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٠٠

٩) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥

١٠) شرح الحماسة للتبريزي ج ٣ ص ٣١٢ ، العمدة ج ١ ص ١٦٦

١١) العمدة ج ١ ص ١٠٩

١٢) انظر النقد الجمالي وأثره في النقد العربي ص ٩٣-١٠٥

عن طبيعته ويجعل عواطف الشاعر تتعثر في اذيان التصنيع ، كما يجعل صورته الشعرية تفقد الحياة ، فيذهب رواء الشعر ويغيض ماؤه . اقرأ القطعة الغزلية التالية التي قالها مسلم ضمن قصيدة يمدح فيها زيد بن مسلم الحنفي :

أَظْلِمُ قَلْبِي لَيْسَ قَلْبِي بِظَالِمٍ وَلَكِنَّ مَنْ أَهْوَى يَحْجُرُ وَيَظْلِمُ
أَلَا عَظُمْتُ مَا بَاحَ مِنِّي مِنَ الْهَوَى وَمَا فِي ضَمِيرِ الْقَلْبِ أَدْهَى وَأَعْظُمُ
شَكُوتُ إِلَيْهَا حُبُّهَا فَتَبَسَّمْتُ وَلَمْ أَرَ شَمْسًا قَبْلَهَا تَبَسَّمُ
فَقُلْتُ لَهَا جُودِي فَأَبَدْتُ تَجَهُّمًا لِيَتَقَتَّلَنِي يَا حُسْنَهَا إِذْ تَجَهَّمُ
وَمَا أَنَا فِي وَصْلِي لَهَا بِمُفَرِّطٍ وَلَكِنِّي أَخْشَى الْوُشَاةَ فَأَضْرُمُ
يُعَاوِرُنِي قَلْبِي عَلَيَّ جَهَالَةً وَأَوْشِكُ يَبْلِي حُبُّهَا ثُمَّ يَنْدَمُ
وَكُنْتُ زَمَانًا أَجْعِدُ النَّاسَ ذَكَرَهَا فَكَذَّبَنِي دَمْعٌ مِّنَ الْوَجْدِ يَسْجُمُ
فَأَصْبَحْتُ كَذَّابًا لِكَيْتَانِي الْهَوَى وَصَارَ إِلَى الْإِعْلَانِ مَا كُنْتُ أَكْتُمُ

تلاحظ ان مسلماً فيها يصهر بطبعه بديعه ، وانه يتخذ من هذا البديع وسيلة فنية يزين بها شعره دون ان تطفئ عليه ودون ان تستعبده . وتلاحظ كذلك ان معانيه التي يقصد اليها تخرج من نفس صاحبها بعد ان تجوس اعماق هذه النفس وتخرج ما فيها من عاطفة صادقة يلبسها الشاعر ثوباً شفافاً انيقاً من بديعه لا نكاد نشعر بوجوده . ومن هنا جاء جمال هذه القطعة الفنية .

غير ان هذا لم يكن شأن جميع شعر مسلم ، وان كان هو السائد فيه والغالب عليه ، فقد نجد له ابياتاً - قليلة لحسن الحظ - ضاع جلالها نتيجة للامعان في التصنيع والخروج به عن الطبع . اقرأ مثلاً هذا البيت :

سَلَّتْ وَسَلَّتْ ثُمَّ سَلَّ سَلِيلُهَا فَأَتَى سَلِيلُ سَلِيلِهَا مَسْلُولًا
تَرَ أَنَّ « لا غاية وراءه في القبح » كما يقول الحفاجي ^(١) ، ولذا فقد اصبح يضرب به المثل في الشعر الهزيل ^(٢) حتى قال فيه ابونواس ^(٣) : « والله لو رميت الناس في الطرق لكان أحسن من هذا . »

واقراً ايضاً هذه المقطوعة :

أَخْ لِي مَسْتَوْرُ الطَّبَاعِ جَعَلْتَهُ مَكَانَ الرَّضَى حَتَّى اسْتَقَلَّ بِهِ الْوُدُّ

(١) سر الفصاحة ص ٩٦ .

(٢) العكبري ، شرح ديوان المتنبي ج ٣ ص ١٧٦ ، وريحان الالباب (مخطوطة ليدن) اخذ عن الدعان ص ٤٢٤ .

(٣) الموشح ص ٢٨٩ .

وتحت الرضى لو أن تكون خببرته
لعمري ليست صفقة المرء تنطوي
فأعطى الرضى كل الرضى من خبرته
ودائع لا يرضى بها الهزل والجِدُّ
على ذمّ شيء كان أوله حمد
وقِفْ بالرضى عنه إذا لم يكن بدُّ
تجد أنها بعد ما تكون عن الجمال الشعري .

د - عدم استواء شعره

« فأما من وجد في شعره الأخذ بالطرفين من السهولة والغموض فكثير مثل
إبي نواس إذا تعرّب ومسلم بن الوليد . »

ريحان الالباب للمواعيني^(١)

ولهذه الخاصة صلة وثيقة بالخاصتين السابقتين ، ووجودها طبيعي في شعر
شاعر عايش القديم الجديد في نفسه .^(٢) فللحياة القديمة لغتها الخاصة المنتزعة من
طبيعة البادية القاسية الجافية ، وللحياة الجديدة لغتها السهلة الطلية التي توائم لين
العيش ورقة الطبع^(٣) .

ولقد جمع مسلم بين مظاهر الحياتين في نفسه فانعكس أثر ذلك على شعره .
قال اسحاق الموصلي^(٤) : « .. وأما مسلم فانه مزج كلام البدويين بكلام الحضريين
فضمّن المعاني اللطيفة ، وكساه الالفاظ الظرفية ، فله جزالة البدويين ورقة
الحضريين . »

ومن الطبيعي ان تتجلى جزالة شعر مسلم وقوته بصورة عامة في الابواب
التقليدية كالمديح ، وفي الامور التي تتصل بالحياة البدوية كالفرسية ووصف الابل
والضرب في مجاهل الصحراء ، وان تتجلى رفته وسهولته في الابواب التي انعشتها
الحياة الحضرية كالغزل ووصف الخمر والغلمان^(٥) .

ولنأخذ الآن قطعتين ، احدهما في المديح والأخرى في الغزل لنلاحظ ما
بينها من فرق في هذا الصدد . قال في قصيدة يمدح بها يزيد بن مزيد :

(١) مخطوطة ليدن ص ٨٤ و (عن الدهان ص ٢٤٤)

(٢) راجع نشأة الشاعر في هذا الكتاب .

(٣) انظر الوساطة ص ١٨ .

(٤) الامالي (مما نقله منه حمزة الاصفهاني في مقدمته لديوان ابي نواس) .

(٥) لعله لم يكثر من القول في هذا الباب ، فكل ما وصل الينا من شعره فيه ستة ابيات فقط
قالها في وصيف لمحمد بن منصور .

لا يُلقحُ الحربَ إلا ريثَ يَنسُجها
 إن شِمَ بارِقُهُ حالتَ خلائقُهُ
 يُغشي المنايا المنايا ثم يَفرُجُها
 لا يَرحلُ الناسُ إلا نحوَ حُجرتِهِ
 يَقرِي المنيّةَ أرواحَ الكُفّةِ كما
 يَكسو السيوفَ دمَاءَ الناكثينَ بِهِ
 يَغدو فتغدو المنايا في استنهِ
 إذا طغتُ فنةٌ من غيبٍ طاعتِها
 قد عودَ الطيرَ عاداتٍ وثقنَ بها
 تراهُ في الأمنِ في دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ
 صافي العيانِ طموحُ العينِ هَمَّتُهُ
 لا يَعبُقُ الطيبُ خديهِ ومقرِقُهُ
 إذا انتضى سيفُهُ كانتَ مسالكُهُ
 وإن خلّتْ بِحديثِ النفسِ فِكْرَتُهُ
 كالليثِ إن هِجَتُهُ فالَموتُ راحَتُهُ

وقال يتغزل :

يا أيُّها المعمودُ
 فأنتَ مُستَهَامُ
 تَبَيْتُ ساهراً قد
 وفي الفؤادِ نارُ
 تَشُبُّها نيرانُ
 إذا أقولُ يوماً :
 يا عاذِلِي كُفّاً
 أكثرُتها تَفْنِيدِي
 قد أقصدتُ فؤادي
 قد شَفَكَ الصَّدودُ
 حالفَكَ الشُّهودُ
 ودَعَكَ الهُجودُ
 ليس لها خُمودُ
 من الهوى وقودُ
 قد أَطْفِئْتُ ، تزيدُ
 فإني مَعمودُ
 لو يَنفَعُ التَّفْنِيدُ
 خُصانةٌ خَرِيدُ

(١) الكوم : جمع كومة ، وهي الناقة العظيمة السنام - والبُزُل : جمع بازل وهو البعير إذا بزل نابه ، أي انشق بدخوله السنة التاسعة .

بَهَانَسَ لَعُوبٌ غَرَّثِي الْوِشَاحَ رُودٌ
 هِجْرَانُهَا قَرِيبٌ وَوَصَلَهَا بَعِيدٌ
 كَلَامُهَا خَلُوبٌ إِلَى الصَّبَا يَقُودُ
 وَطَرَفُهَا مَرِيضٌ وَلِحْظُهَا صَبُودٌ

ويلاحظ ان بين القطعتين فرقاً شاسعاً فكل منها أريد ان يمثل به عصر ، قصد الشاعر الى ذلك ام لم يقصد . فالقطعة الاولى جزلة تم عن قوة في الفاظها ومعانيها ، حتى ووزنها ، والقطعة الثانية سهلة رقيقة ، باستثناء بضع كلمات ، تكاد تقرب من النثر في طريقة اداؤها ، لولا ما لها من وزن وقافية . بل انها تكاد تقرب من الحديث العادي لولا ذلك ولولا ما في بعض ابياتها من صنعة ظاهرة . هذا هو الفرق الذي يجعل من شعر مسلم شعراً غير مستوي .

غير انني اريد ان اقف اكثر من هذا عند القطعة الثانية ، فهي حرة بوقفة من هذا النوع . القطعة سهلة ، كما رأينا ، تتلاءم بسهولة ووزنها وحياة الحضارة اللينة . ولكن هل ترى فيها روحاً قوياً ؟ انني اراها جامدة بلا روح ، او ضعيفة الروح على الاقل ، حتى بالنسبة لغزله التقليدي في مطالع القصائد ، فهي لا تنطق عن مدلولها اذن . فما السر في ذلك ؟ أخرج فيها مسلم عن طبيعته ؟ لا اظن ذلك فهو « صريع الغواني » ، في الوقت الذي نظمها فيه على الاقل ؛ ام انه أخرج اللغة فيها عن طبيعتها فجاء هذا القصور في الاداء الفني الذي افقد القطعة ، ومن ثم القصيدة التي تنتمي اليها ، الروح التي كان يجب ان تنبعث منها فتثير جذوة الحب الخامد في قلب المحب . اغلب الظن ان الامر كذلك . فاللغة ، كما يبدو ، لم تكن قد تحضرت بعد ، عند مسلم على الاقل . ولعل مسلماً نفسه شعر بهذا ، وشعر أن لغته الحضرية لم تسعفه على اداء ما يريد ادائه ، فاضطر الى ان يقول في وصف حبيبته بانها خمصانة ، بهانة ، غرثي الوشاح ! ، واضطر ايضاً الى ان يذكر من مثل هذه التجربة الشعرية .

وقد يكون التراوح بين الجزالة والصعوبة من جهة ، والرقّة والسهولة من جهة اخرى ، في القصيدة الواحدة عند مسلم ، ان اختلفت فيها الابواب . قال :

(١) هَلَّا بِكَيْتَ ظَعَائِنًا وَحَمُولًا تَرَكَ الْفُؤَادَ فَرَاقَهُمْ مَخْبُولًا
 (٢) أَمَّا الْخَلِيطُ فَرَائِلُونَ لِفَرْقَةٍ فَتَى تَرَاهُمْ رَاجِعِينَ قُفُولًا

(٣) أَتَبَعْتُهُمْ عَيْنَ الرَقِيبِ مُخَالِياً
(٤) تَالَهُ مَا جَهْلُ الشَّرُورِ وَلَا الْكُرَى
(٥) فَإِذَا زَجَرْتُ الْقَلْبَ زَادَ وَجِيبُهُ
(٦) وَإِذَا كَتَمْتُ جَوَى الْأَمْسَى بَعَثَ الْهَوَى
(٧) وَاهَا لِأَيَّامِ الصَّبَا وَزَمَانِهِ
(٨) سَلَّ عَيْشَ دَهْرٍ قَدْ مَضَتْ أَيَّامُهُ
(٩) لَوْ عَادَ آخِرُهُ كَأُولِ عَهْدِهِ
(١٠) وَلَرُبَّ يَوْمٍ لِلصَّبَا قَصْرَتُهُ
(١١) وَسُلَافَةِ صِهْبَاءَ بِنْتِ سُلَافَةِ
(١٢) أَخْتَانِ وَاحِدَةٍ هِيَ ابْنَةُ أَخْتِهَا
(١٣) لَا تَسْقِي الْمَاءَ الْقِرَاحَ وَهَاتِهَا
(١٤) خِرْقَاءَ يَرْعَشُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضِهَا
(١٥) سُلَّتْ فَسَلَتْ ثُمَّ سُلَّ سَلِيلُهَا
(١٦) بَعَثَتْ إِلَى سِرِّ الضَّمِيرِ فَجَاءَهَا
(١٧) لَطْفَ الْمِزَاجِ لَهَا فَرَيْنَ كَأَسْهَا
(١٨) قَتَلْتُ وَعَاجَلُهَا الْمُدِيرُ فَلَمْ تَقِظْ
(١٩) وَهَجِيرَةٍ كَلَّفَتْ طَيِّ مَقِيلِهَا
(٢٠) قُوداً نَوَاجِي كَالْحَنِيِّ ضَوَامِراً
(٢١) وَدُجْنَةً ضَمِنْتُ هَتَكَ سَتُورِهَا
(٢٢) حَتَّى إِذَا الْفَجْرُ اسْتَضَاءَ أَخْتَهَا
(٢٣) وَاللَّيْلُ قَدْ رَفَعَ الذُّيُولَ مَوَاشِكَا
(٢٤) حَمَلْتُ ثِقْلَ الْهَمِّ فَانْبَعَثَتْ بِهِ
(٢٥) حَرَفاً إِذَا وَنَّتِ الْعِتَاقُ تَزِيدَتْ
(٢٦) تَرْمِي الْمَهَامَةَ وَالْقَطِيعَ بِطَرْفِهَا

- (١) الكنيس : الظبي له كيناس ، وهو مريضه في الشجرة .
(٢) القود : جمع قوداء وهي الناقة الطويلة - عرائكها : اسنمتها - ميلا : مائلات .
(٣) وجناء : شديدة - البغام : صوت الناقة - ذلول : ضامرة .
(٤) مليلا : خبزاً بمولاً ، أي مطبوخاً في العلة وهي التننور .
(٥) ناجية السفار : ناقة سريعة - ذمول : تسير الذميل ، وهو ضرب من السير اللين .
(٦) الحرف : الناقة الضامرة الصلبة - التنعيب : السير السريع - التبغيل السير دون العتق .

٢٧. « قَوْمًا يُخْلِقُونَ مَتْنِيَّةً » من بأسهم كانوا « بني جبريلا »
 ٢٨. قوم إذا حمى الهجير من الوغى جعلوا الجاهم للسيوف مقيلا
 ٢٩. إذا لا حمى إلا الرماح وبينها خيل يبطآن بقاة قتل مقتولا
 ٣٠. ولقد وقعن بأرض كابل وقعة تركت إليهن للغزاة سبيلا
 يلاحظ ان هذه القصيدة تشمل الاقسام التالية :

- (١) الغزل (من البيت الاول الى العاشر)
- (٢) وصف الحجرة (من الحادي عشر الى الثامن عشر)
- (٣) السفر الى الممدوح (من التاسع عشر الى السادس والعشرين)
- (٤) المديح (من السابع والعشرين حتى الثلاثين ، وهو نهاية القصيدة كما وصلت اليها)
 ويلاحظ كذلك ان القسمين الاولين ادخل في باب الرقة من القسمين الاخيرين .
 وتعليل ذلك بان يتعلق بطبيعة هذه الاقسام وصلتها بالحياة الحضرية او البدوية .
 واود ان اقف قليلا عند هذه القصيدة فهي حرة بذلك ، اذ نستطيع ان
 نتبين عن طريقها كيف كان مسلم يعن في الاغراب والصعوبة حين كان يعرض
 لموضوع بدوي . وما هو في وصفه للصحراء والابل (بيت ١٩-٢٦) لا يكاد
 يختلف عن سلفه الراعي في وصفها ، بل لعله تأثر به في ذلك . انظر الى هذه
 الابيات من قصيدة الراعي ^(١) التي يصف فيها الصحراء والابل :

قَذُفَ الغُدُوَّ إذا عَدَوْتُ حاجة دُلْفَ الرَّواحِ إذا أردتُ قُفُولاً ^(٢)
 قوداً تُذَارِعُ غُولَ كل تنوفة ذَرَعَ المَوْشَحِ مُبرِماً وسَحِيلاً ^(٣)
 في مَهْمِهِ قَلِقَتْ بهِ هاماتها قلقَ الفؤوسِ إذا أردنَ نُصُولاً
 واذا تَعَارَضَتِ المَفَاوِزُ عارضتُ رَبيذاً تَبَغَّلَ خلفها تَبَغِيلاً ^(٤)

(١) مطلع القصيدة :

ما بال دَفْلِكَ بالفراش مذيلاً أقذى بعينك أم اردت رجيلاً

وقد قالها لعبد الملك بن مروان (انظر جهرة اشعار العرب ص ٣٤١)

- (٢) قَذُفَ : سريعة ، يقصد نياقاً سريعة - دُلْفَ : متقاربة الخطو .
- (٣) قود : جمع قوداء وهي الطويلة الظهر والعنق - تذارعه : تغالبه في الخطو فتغلبه - الغُولُ :
 ما انهبط من الارض - التنوفة : البرية لا ماء فيها ولا أنيس .
 السحيل : الثوب لم يرم غزله ؛ الحبل الذي قتل فتلاً واحداً .
- (٤) تعارضت : عارض بعضها بعضاً .
 الرَبيذ : يعني الحادي .
 تبغَّلَ : أعْي وتبذل في المشي .

زَجِيلَ الحُدَاءِ كَأَنَّ فِي حَيَزُومِهِ قصباً ومُقْنَعَةً الحَنِينِ عَجُولاً (١)
واذا تراحت الضحى قذفت به قشاًونَ غايتهُ فضلٌ ذميلاً (٢)

جلسوا على أكوارها فترادفت صخب الصدى أجرج الرعان رحيلاً (٣)
ملس الحصى باتت توجس فوقه لَغَط القطا بالجهتين نزولاً (٤)
ثم قارن بها أبيات مسلم ، الا تجد اشياء مشتركة بينها ؟ انك لا شك واجد الوزن
الواحد ، والقافية الواحدة ، والميل الى الاغراب ، وذكر بعض الكلمات الغريبة
التي يصعب افتراض ورود المشاركة فيها على سبيل المصادفة ، كالتبغيل والقود مثلاً .

هـ - ولعه بطلب الصور الشعرية

لقد اولع مسلم بالصور الشعرية بحيث غداً لا يغفلها اذا سنحت مناسبتها ،
بل ويلجح في طلبها احياناً ولو لم تكن هناك حاجة لوجودها .

ولا ريب في ان هذا الاحاح في طلب الصورة جاء لاشباع رغبة فنية في
الشاعر نجمت عن هذه العقلية الجديدة التي اخذت ترى في حياة الحضارة الواناً
من الصور والزخارف لم يكن لشعرائنا القدامى عهد بها .

ومن المؤسف ان يطوِّح هذا الاحاح احياناً ببعض صورهِ فيخرجها عن طبيعة
الفن ويضعها في عداد الصنعة المقتعلة فتخرج بين يديه واذا هي كالدمية التي تفتقر
الى الحياة . اقرأ هذه الابيات :

كَمْ طَعْنَةٍ لَكَ فِي الاعداءِ مُهْلِكَةٍ نَجْلَاءَ تُعَجِّلُهُمْ عَنْ نَفْثِ رَاقِيهَا
لَمَّا غَدَوْتَ اِلَى الاعداءِ مُطْلِعاً غَيْرَ الْجَبَابِ عَلَيْهَا لَا تُبَالِيهَا
قَسَمْتَ فِيهَا مَنَایَا غَيْرَ مُبْقِيَةٍ وَقَمْتَ عِنْدَ نَفُوسِ الْحَقِّ تَحْيِيهَا
تجد في الاول منها صورة رائعة كان من الممكن ان يقنع بها مسلم ، غير ان ولعه
بطلب الصور والتوسع فيها حداه الى ان يردف بهذا البيت بيتين آخرين يرسم

(١) زجل الحداء : رفيع الصوت ، كأن في صدره قصباً أو صوت «عجول» وهي الثكول -
مقنعة : رافعة صوتها .

(٢) شأون : سبقن - الذميل : السير اللين .

(٣) الجروع : الرمال المستوية لا تنبت شيئاً .

(٤) الرعان : جمع رعن وهو الجبل الطويل .

(٥) توجس : سمع الى الصوت الخفي .

فيها صورة اخرى هي تفرع عن الاولى او توسع فيها، ولكنها على كل حال صورة مضطربة جامدة . ولعل اثر هذه الصورة الاخيرة يتعدى ذاتها عند القارىء الى الصورة الجميلة التي سبقتها .

ويبدو ان هناك غرضين لتصوير مسلم : الاول التقريب من الواقع ، والثاني الطرافة الفنية .

التقريب من الواقع :

ووسيلته اليه في الغالب التشبيه ، ولا سيما المادي المحسوس منه . اقرأ القطعة التالية من قصيدة قالها في الغزل والحمر :

وَسَنَى وَلَا كَوَسَنَى	نَمِيتُ مَنْ تُرِيدُ
كَالْبَدْرِ بَعْدَ عَشْرِ	قَارَنَهُ السُّعُودُ
وَتَغْرُهَا شَتِيتُ	وَرِيقُهَا بَرُودُ
كَأَنَّ فِيهِ مِسْكَ	خَالَطَهُ قَنْدِيدُ ^(١)
وَقَدْ هَمَّ مَشُوقُ	مَنْعَمٌ مَقْدُودُ
وَكَشَحَهَا لَطِيفُ	مُهَقِّفُ خَضِيدُ ^(٢)
كَأَنَّهُ قَضِيبُ	فِي غَرَسِهِ يَمِيدُ
كَأَنَّهُ كَثِيبُ	لَبَدَّةُ الْجَلِيدِ

ثم دعنا نلاحظ ما فيها من تشابه : انه يشبه الحبيبة بالسنى ، وبالبدر بعد عشر وقد قارنه السعود ، ويشبه ريقها بالمسك خالطه القنديد ، وكشحها بالقضيب وهو يميد ، وردفها بالكثيب وقد لبده الجليلد . وجل هذه التشابه ، كما هو ظاهر ، مادي محسوس .

ويلاحظ ان المشبه به في معظم هذه التشابه ليس مفرداً فحسب ، بل هو مفرد في حالة خاصة ، او قل هو حالة خاصة لذلك المفرد . فالشاعر لا يشبه حبيته بالبدر وانما يشبهها به وقد قارنه السعود بعد عشر ليالٍ من اهلاله ، ولا يشبه ريقها بالمسك بل بالمسك وقد خالطه القنديد ، ولا يشبه كشحها بالقضيب بل به وهو يميد ، ولا يشبه ردفها بالكثيب بل به وقد لبده الجليلد .

(١) القنديد : عمل قصب السكر اذا جمد

(٢) الخضيد : الضامر

وهذه البدعة التي يلجأ اليها تحيل تشبيهه في النهاية الى تشبيه تمثيل حيث وجه الشبه صورة منتزعه من متعدد . والواقع ان هذه ظاهرة بارزة في شعر مسلم ، فمعظم تشابهه هي من النوع التمثيلي الذي يعتمد على صورة يشترك فيها طرفا التشبيه . ويمكن ان تعزى هذه الظاهرة الى ثلاثة اسباب على الاقل :

- (١) ولع مسلم بالصور
- (٢) رغبته في تحديد حالة المشبه به امعاناً في دقة التشبيه — ونشدان الدقة ، كما هو معلوم ، ظاهرة بارزة عند شعراء هذا العصر نتيجة للعقلية الجديدة .
- (٣) رغبته في التجديد . فلقد شبه العرب القدامى الحبيبة بالبدر ، وريقها بالمسك ، وكشحها بالقضيب ، وردفها بالكثيب ، ووجد مسلم المجدد الباب مفتوحاً امامه في هذا الميدان ، على ما يظهر ، فتوسع في التشبيه ومن ثم في الصور .

ثم ان هناك نقطة حرية بالملاحظة وهي تشبيه ردفها بالكثيب الذي لبدته الجليد . فالتشبيه هنا يبدو غريباً لاول وهلة على العربي . فلقد رأى العربي الكثيب في بلاده فشبه به الردف ، ولكن لم يسبق له ان رآه ملبداً بالجليد . فالصورة اذن غير مألوقة بالنسبة اليه ، ولكن مسلماً لجأ اليها ليجدد . ولهذا التشبيه بالذات دلالة كبيرة عندي اذ تتجلى فيه محاولة الشاعر الجمع بين القديم والجديد ، بين كثران الجزيرة وجليد أرمينيا وجرجان .

واذا كان مسلم هنا يستعين بالجديد لايضاح القديم فأخلق به ان يلجأ الى العكس فيستعين بالقديم لايضاح الجديد . لقد شاء ان يوضح مدبّ الموج في جنبات السفينة ، وهو شيء طريف جديد بالنسبة لكثير من العرب فشبه بمدب الصبا بين الرمال الوعاث :

كَأَنَّ مَدَبَّ الْمَوْجِ فِي جَنْبَاتِهَا مَدَبُّ الصَّبَا بَيْنَ الْوَعَاثِ مِنَ الْعُقُفْرِ
وَشَاءَ أَنْ يُوَضِّحَ الْمَزْمَارَ فَشَبَّهَ بِبُكَاءِ النَّاشِطَاتِ الشَّاكَلَاتِ :

وَأَسْعَدَهَا الْمِزْمَارُ يَشْدُو كَأَنَّهُ حَكِي نَاشِطَاتٍ يَبْتَنِي بَيْنَهُنَّ مِنْ كُلِّ

واذا كان التشبيه الحسي ظاهرة جاهلية برع فيها أوس بن حجر وابناء مدرسته ، امثال زهير والناطقة^(١) ، فالتشبيه الحسي التمثيلي ظاهرة كثر في العصر العباسي الاول وظهرت بشكل بارز في شعر مسلم . ولا اخالني في حاجة الى

(١) في الادب الجاهلي ص ٢٨٤ .

صرب شواهد اكثر مما ذكرت فالديوان مليء بذلك .

الطرافة الفنية :

وهي اهم ما يهدف اليه مسلم في شعره من الناحية الفنية ، ولعلها اهم سبب ادى به الى ان يكثر من نشدان البديع .

ومن وسائلها اليها التشبيه الا يهامي الذي يقوم على الوهم والخيال ، والذي هو اثر من آثار العقلية الجديدة التي اخذت « تستمد من التفكير وعمقه اوهاماً لا حد لها » (١) قال :

مُوفٍ عَلَى مَهَجٍ فِي يَوْمٍ ذِي رَهَجٍ كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ
يُنَالُ بِالرَّقَقِ مَا يَعْيا الرِّجَالُ بِهِ كَالْمَوْتِ مُسْتَعِجِلًا يَمْشِي عَلَى مَهَلٍ

فالتلوين العقلي الجديد هو الذي سوَّغ للشاعر ان يصور الاجل يسعى الى ما يأمل ، وينال ما يريد بسرعة ونفاذ . وهنا تعاون التشبيه والاستعارة على خلق الصورة واظهار ما فيها من طرافة وبدع ..

وقد تعتمد الاستعارة وحدها على خلق الصورة عند مسلم . وفي هذه الحالة قد تكون استعارة واحدة في الشطر فتضيق الصورة :

أَجْرَرْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصَّبَا غَزَلٍ وَشَمَّرَتْ مِمِّمُ الْعُدَّالِ فِي الْعَذَلِ
وقد تكون مجموعة من الاستعارات فتتسع اللوحة ويعظم المشهد ، قال :

فَكُنْتُ نَدِيمَ الْكَأْسِ حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ تَعَوَّضْتُ عَنْهَا رِيْقَ حَوْرَاءٍ عَيْطَلٍ (٢)
نَهَانِي عَنْهَا حُبُّهَا أَنْ أَسْوَأَهَا بَلَسَ فَلَمْ أَفْتُكْ وَلَمْ أَتَبَتَّلْ
أَخَذْتُ لِطَرْفِ الْعَيْنِ مِنْهَا نَصِيْبَهُ وَأَخْلَيْتُ مِنْ كَفِّي مَكَانَ الْمُخْلَخَلِ
سَقَيْتَنِي بِعَيْنَيْهَا الْهُوَى وَسَقَيْتُهَا فَدَبَّ دَبِيبَ الرَّاحِ فِي كُلِّ مَفْصِلِ
وَأَنْ شَتُّتُ أَنْ أَلْتَدَّ نَازِلَتْ جِيدَهَا فَعَانَقْتُ دُونَ الْجِيدِ نَظْمَ الْقَرْنَفِلِ
أَنَازَ عَنْهَا سِرُّ الْحَدِيثِ وَتَارَةً رُضَاباً لَذِيذَ الطَّعْمِ عَذْبَ الْمُقْبَلِ

ويشوقنا ما يشيع في هذه الصورة من حركة وما ينبعث فيها من حياة ، ففيها سلسلة من الافعال التي ينتقل بواسطتها الشاعر من عمل لآخر فيبعث الحياة

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٠٦ .

(٢) الحوراء : الشديدة بياض العين والشديدة سواد سوادها - والعيطل : الخالية من الحلي .

والحركة في أرجاء صورته : التعوض والنهي والاخلاء والمنازلة والعناق . دع
عنك دبيب آراح في المفاصل إثر تلك السقيا من العينين .

وهناك لون جديد من الاستعارة اكثر مسلم من استخدامه عند رسم صورته ،
وهذا اللون هو التشخيص الذي كثيراً ما يعزى لشاعر متأخر هو ابن الرومي .
والحق ان مسلماً سبق ابن الرومي الى العناية بهذا الباب ، فجعل من الجماد احياء
ومن اسماء المعاني ذوات تحس وتتحرك وتفعل فعل المخلوق الحي : فالخوف يطير ،
والفرار يتمطى ، والقنى تجرع الدم ، والخافة تحيا ، والرياح ... الرياح تمشي
حسرى موهلة حائرة بين الصخور والجلاميد :

وطارَ في إثر من طارَ الفِرارُ به خوفٌ يُعارِضُه في كلِّ أخذودٍ

...

مُظفَّرُونٌ تُصيبُ الحربُ انفسَهُم اذا الفِرارُ تَمَطَّى بالمَحاييدِ (١)

...

وَلِي وَقَدْ جَرَعَتْ مِنْهُ الْقَنَى جُرْعاً حَيَّ الْخَافَةُ مَيْتاً غَيْرَ مَوْدٍ

...

تمشي الرياحُ به حَسْرَى مُوَلَّهَةً حَيْرَى تَلَوْدُ بِاَكْنافِ الْجَلَامِيدِ

...

وقد ذهب به حب التشخيص مذهباً جعله يجرّد من الحمرة ابنة ذات نسب ،
ترضع وتتغذى حيناً وتحتجب عن عيون الناس حيناً آخر . قال في احـدى
قصائده :

وقهوة من بنات الكرم صافية صهباً يهودية أربأها العربُ
تُتمسّى الى الشمس في إغداها ولها من الرضاعة في حرّ الهجير أبُ
وقال في اخرى :

فقامَ يَسْعَى الى دَنٍ فَسَلَّهَا حمراءَ بكرأ لها عَشْرٌ مِنْ الْحِقَبِ
محجوبةٌ من عُيُونِ النَّاسِ لَيْسَ لها في غيرِ بيتِ بني ساسانَ من نَسَبِ
وقد يعنى مسلم بتلوين صورته احياناً ، وبعث الرائحة الطيبة منها احياناً

أخرى فيقول :

(١) المهاييد : جمع محياد وهو الجبان .

حمرَاءُ إِن بَرَزَتْ صَفراءُ إِن مُزِجَتْ كَأَنَّ فِيهَا شَرَارَ النَّارِ تَلْتَهَبُ
مَحْمَرَّةٌ كَفُّ سَاقِيهَا بِحُمْرَتِهَا كَأَنَّمَا هُوَ بِالْفِرْصَادِ مُخْتَضِبٌ ^(١)
ويقول :

يُدْعَى أَبَاهَا وَيُغْذَاهَا فَيَا عَجَباً مِنْ ابْنَةٍ صَيَّرَهَا غَذِيَّةً لِأَبِ
كَأَنَّمَا ضُمَّتْ مِسْكَاً يَفُوحُ بِهِ أَوْ عُنْبَرَ الْهِنْدِ أَوْ طَيْباً مِنَ السَّخْبِ ^(٢)

وهناك وسيلة طريفة لإبراز الصورة عند مسلم قلما رأيناها عند غيره من الشعراء ، وهي ما يمكن ان ندعوه بالمباينة ، ومن امثلة ذلك قوله :

حَمُولاً لِعَيْبِ الدَّهْرِ يَنْهَضُ عَفْوُهُ بِهِ مُسْتَقْلًا حِينَ لَا يُحْمَلُ الثَّقَلُ
لقد كان بإمكان الشاعر هنا ان يصف ممدوحه بأنه حول لعبء الدهر ينهض به عفوّه وهو مستقل وحسب ، غير ان مثل هذا النهوض بمثل هذا الحمل يكون ادعى للمدح حين يكون في زمن لا يقوى فيه احد غيره على حمل اي ثقل .
وقوله :

وَإِذَا سَمَاءُ ذَوِي السَّاحَةِ لَمْ تَجُدْ جَادَتْ سَمَاؤُكَ مُسْبِلًا هَطَالًا
وهنا كان يكفي الشاعر ان يقول ان سماء الممدوح جادت « مسبلاً هطالاً » ليقضي للممدوح حقه ، غير ان هذا الجود نفسه تزداد قيمته ويرتفع شأنه ان قرن بحالة لا تجود فيها سماء الآخرين من ذوي الساحة .

وقد لا يكتفي مسلم برسم صورته بل يتعدى ذلك الى رسم الجو الذي يكتنفها ويساعد على تمثيلها . ووسيلته الى ذلك الملاءمة التي يجعلها بين معنى الصورة والالفاظ التي يختارها لرسمها ، فهو إن صور الحرب مثلاً اختار لصورته ألفاظاً مججلة تسمع من بينها صليل السيوف ووقع الرماح :

ثُمَّ اسْتَقَلَّتْ بِالْحَتُوفِ رَمَاهُنَا وَالْحِيلُ فِي لَيْلٍ مُسَدَّى مُلْبَسٍ ^(٣)
وَبَوَارِقُ الْأَغْمَادِ تَبْدُو تَارَةً حُمْرًا وَتَخْفَى تَارَةً فِي الْأُرُوسِ
حَرْبٌ يَكُونُ وَقُودُهَا ابْنَاؤُهَا لَقِيحَتْ عَلَى عَقْرِ وَلَمَّا تَنْفُسِ
مِنْ هَارِبٍ رَكِيبَ النَّجَاءِ وَمُقْعَصٍ جَثَمَتْ مِنْيْنُهُ عَلَى الْمُسْتَفْسِ

(١) الفرصاد : صبغ أحمر .

(٢) السخب : حب القرنفل

(٣) مُسَدَّى : ممدود

عَصَبَتَهُ أَطْرَافُ الْأَسِنَّةِ نَفْسَهُ كَفَتُوا فَرِيصَةً وَلَنِعِ أَوْ نُهَسِ

وان صور حبه اختار لهذا التصوير من الالفاظ ما يتلاءم وطبيعة الحب :

طَفَوْتُ عَلَى بَحْرِ الْهَوَى فِدَعَوْتُكُمْ دُعَاءَ غَرِيقٍ مَا لَهُ مُتَعَوِّمٌ
لِتَسْتَنْقِذُونِي أَوْ تُغِيثُوا بِرَحْمَةٍ فَلَمْ كَسْتَجِيبُوا لِي وَلَمْ تَتَرَحَّمُوا
رَكِبْتُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ بِحَرَ هَوَاكُمُ فَيَا رَبِّ سَلِّمْ أَنْتَ أَنْتَ الْمُسَلِّمُ

...

تَوَسَّطْتُ بِحَرَ الْحَبِّ حِينَ رَكِبْتُهُ فَفَرَّقَنِي آذِيَّتُهُ الْمُتَلَطِّمُ
فَوَاللَّهِ مَا أُدْرِي وَإِنِّي لَهَايِمٌ أَلْأَرْجِعُ خَلْفِي فِيهِ أَمْ أَتَقَدَّمُ

أضف الى هذا انني لا اعلم ان هناك بحراً من بحور الشعر اكثر ملائمة للضرب
والصمود في الحرب من الكامل بتفاعيله الثلاث المتكررة : متفاعِلن . متفاعِلن .
متفاعِلن ، ولا اكثر مناسبة لركوب بحر الهوى في قارب يتهادى من البحر
الطويل بحركاته وسكناته : فعولن . مفاعِلين . فعولن . مفاعِلن .



و - المبالغة

المبالغة ظاهرة اجتماعية موجودة عند جميع الامم ، ولكن على درجات . ولعل التعليل النفسي لها هو ان الانسان يرتاح الى ان يحقق في الخيال ما لا يقوى على تحقيقه في الواقع ، فكأنها في واقعها النفسي تعويض (Compensation) لعجز الانسان عن تحقيق ما لا تمكنه ذاته من تحقيقه .

ويخيل اليّ ان هذه الظاهرة هي اكثر ما تكون عليه قوة عند الأفراد عندما يصابون بالشعور بالضعة . وما يقال عن الافراد هنا يمكن ان يقال عن الامم . فلقد كان العرب في الجاهلية قابعين في جزيرتهم ، وكان احتكاكهم بالامم التي هي اعلى منهم حضارة محدوداً ضئيلاً ، ولذا كانت حالتهم لا تساعد على تقشي مثل هذا الشعور بينهم ، ومن ثم شيوع المبالغة في ادبهم .

أما في العصر العباسي فقد رأوا ، رغم غلبتهم ، انهم اقل شأنًا من حيث نظامهم الاجتماعي وثقافتهم العامة ومجاهم الحضاري من الامم التي غلبوها ، فعمد شعراؤهم الى التعويض عن ذلك عن طريق المبالغة في المفاخرة بانسابهم . وقد يقال ان الشعور بالسيادة على اثر الانتصار فيه التعويض الكافي ، وقد يكون هذا صحيحاً لولا ان الشعراء الموالي من الفرس طعنوا هذه السيادة في الصميم ولجأوا انفسهم الى التبعج بأعراقهم والتغني بحضارتهم في شيء من المبالغة تعويضاً عن هزيمتهم . وعلى ذلك كان الشعر الذي نظم في مجال الشعوبية والرد عليها مليئاً بالمبالغات.^(١)

وهناك مجال آخر كثرت فيه المبالغة في ذلك العصر وهو مجال المديح . ويرجع ذلك الى استبداد ذوي السلطة ، ولا سيما الخلفاء منهم ، وشعور الشعراء بالحاجة الى تملقهم والتزلف اليهم عن طريق المبالغة في مديحهم ليمهدوا لهم الجو الذي ترتاح اليه نفوسهم وتجدد فيه تعويضاً عن عجزها الانساني ، ومن ثم للظفر بهباتهم ونوال جوائزهم .

وعلى ذلك وجد مسلم في عصر صلحت تربته للمبالغة فاكثر من اللجوء اليها في شعره حتى تميز بها . ومن الواضح ان استخدامه لها لا يعكس شيئاً عن عدم حبه للواقع او حبه له ، فهو لم يستخدمها الا في مجالها الفني على ما نعلم من سيرته .

(١) انظر Brown's 'A Literary History of Persia', Vol. I, p. 266-67 فيما يتعلق بالمبالغات الموجودة في الناذج الشعرية التي اوردها لكل الفريقين .

ولعل أهم بابين أكثر من استخدامها فيها بابا المديح والغزل . ومن مبالغاته
في هذين البابين قوله :

يا أكرمَ الناسِ من عُربٍ ومن عجمٍ بعدَ الخليفةِ يا ضُرْغامَةَ العُربِ
فُقتَ البريةَ من كهلٍ ومن حَدَثٍ وفاقَ آباؤكَ الماضونَ ماضيها
إذا القَرَمُ زِيدٌ لم يَقِفْكَ على النَّدَى فمُتْ فالتَّندى من غيرِ زِيدٍ 'مَحْرَمُ'

...

ها قد هلكتُ ومِتُّ من ألمِ الهوى قوموا فَعَزَّزُوا مَعَشَرِي وأقاربي
فاذا زجرتُ القلبَ زادَ وجيبُهُ واذا حبستُ الدمعَ زادَ 'هَمولاً
إذا ما أدارَ الكأسَ ثَنَى بِطَرْفِهِ فعاطاهُمُ خمرًا وعاطاهُمُ سِحراً

ويلاحظ ان جميع هذه الشواهد هي من باب الاغراق ، اذ ان ما فيها ممكن
في العقل دون العادة . غير ان مسلماً قد يشتط في المبالغة احياناً فيخرج من
الاغراق الى الغلو حيث لا يكون مدلول المبالغة ممكناً ، لا في العقل ولا في العادة .
قال في ذينك البابين نفسيهما :

إنَّ الرِّفاقَ أَتَيْتُكَ تَلْتَمِسُ الغنى والبحرُ لو يَحِيدُ السَّيْلَ أَتَاكَ

...

لو كانَ يَفْقَهُ رَجَعَ القَوْلَ طائِراً غَنَى بِمَدْحِكَ فيها بُومُها الهامِ

...

رَضِيَتْ سَيُوفُكَ عَنْكَ يَوْمَ لَقِيْتَهُم وَأَجَبْتَ داعِي المَوْتِ حينَ دعاكَ

.....

شَفَّ الهوى مُهْجَتِي وَعَذَّبَهَا فليسَ لي مُهْجَةٌ ولا بَدَنٌ

...

وإذا كَتَمْتُ جُوى الأَسَى بَعَثَ الهوى نَفْساً يَكُونُ على الضَّمِيرِ دَلِيلاً

...

وما أَبَقَتْ الأَيامُ مَنِّي ولا الصَّبَا سوى كَبِيدٍ حَرَّيْ وَقَلْبٍ مُقْتَلٍ

.....

وأود هنا أن أقف قليلاً عند هذه الأبيات : ففي الأبيات الثلاثة الأولى استخدم الشاعر من الوسائل ما يجعل مبالغاته فيها مقبولة رغم الغلو. ففي البيتين ، الأول والثاني ، قرن المبالغة بالافتراض بقوله (لو يجد السبيل) في الحالة الأولى ، وقوله (لو كان يققه رجع القول قائلها) في الحالة الثانية ، وفي البيت الثالث خفف من اثر الغلو بأن اردف به (حين دعا كا) فقصر الاجابة على الدعوة ولم يطلق فيجعلها منوطة برغبة الممدوح فحسب .

اما في الابيات الثلاثة الاخيرة فقد غالى دون حرج. ويبدو أن لا ضير عليه في ذلك ، وهو شاعر ، في سنة ارسطو وقدامة ، على الأقل ، اذ ان الاول منها يرى ان المغالاة مقبولة « ما دام الشاعر يستطيع ان يبرزها في معرض الاشياء التي يمكن تصورها او يمكن فهمها » ولا يطلب من الشاعر « ما يكون فقط » بل « ما يمكن ان يكون »^(١) ، والثاني يجذ هذا المذهب ويقول في صدد بحثه عن الغلو في الشعر والاقتصار على الحد الاوسط فيه « ان الغلو... اجود المذهبين »^(٢) .
ووسائل مسلم الى المبالغة كثيرة اهمها :

(أ) التشبيه : والتشبيه ، كما هو معلوم ، مبني على المبالغة في اسناد صفة الى المشبه هي في العادة أقوى في المشبه به منها فيه . والتشبيه المؤكد ، أي الذي حذفت اداته ، ادعى للمبالغة من المرسل^(٣) ، والامثلة على كلا البابين كثيرة في الديوان . وقد اولع مسلم بالتشبيه المقلوب امعاناً منه في طلب المبالغة ، ومن امثلة ذلك قوله :

كالليث بل مثله الليثُ الهَـصُورُ اذا غَنَّى الحديدُ غِنَاءَ غَيْرِ تَغْرِيدِ

...

يَحْيِسُ كَأَنَّ اللَّيْلَ بَعْضُ حديدِهِ تَهَادَى الرَّدى فِيهِ الفوارِسُ والرَّجُلُ

...

كَأَنَّ أَعْلَامَهَا وَالْآلُ يَرْكَبُهَا بُدُنٌ تَوَافَى بِهَا تَذَرُّ إِلَى عِيدِ^(٤)

...

(١) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ١٥٨ .

(٢) نقد الشعر ص ٥٥ .

(٣) انظر اسرار البلاغة ص ٢٣١-٣٢ .

(٤) الاعلام : الجبال - البدن : النسيان .

يَخْرُجُنَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْمَهُ . أَسْمَأُفِينَا يَوْمَ الْعِجَاجِ الْأَغْبَسِ^(١)

(ب) الاستعارة : ووجه المبالغة فيها قائم على المساواة بين طرفي التشبيه ، ومن ثم حذفت أحدهما والاستعاضة عنه بالآخر . والشواهد عليها كثيرة ورد كثير منها في معرض حديثنا عن الصور الشعرية عند مسلم .

(ج) الاستفهام الإنكاري : وهو أمعن في المبالغة من صور النفي العادية ، ولذا فكثيراً ما يلجأ إليه مسلم ، اذ يقول :

سائلٌ جَدِيدُ الْهَوَى هَلْ كُنْتُ أَخْلَقُهُ إِذْ لِلصَّبَا مُهْجَةٌ تَمْثِي بِحُثْمَانِي

يَا مَنْ يُبْخِرُ مِنَ الزَّمَانِ وَصَرَفِهِ مَنْ ذَا سِوَاكَ مِنَ الزَّمَانِ يُبْخِرُ

ومن الواضح ان كلا من الاستفهامين (هل كنت اخلقه) و (من ذا سواك من الزمان يبخير) اشد مبالغة في انتفاء الحقيقة من (ما كنت اخلقه) و (ليس من يبخير من الزمان سواك) .

(د) المبالغة : وقد مر معنا اثرها في ابراز الصور ، ولا ريب ان في ذلك مبالغة في ايضاحها واظهارها .

(هـ) التشخيص : وقد مر معنا كذلك . ومن الواضح ان اشاعة الحياة في الجماد وتحويل اسماء المعاني الى ذوات ينطوي على مبالغة تقرب الحقائق من الجو الشعري وتكسبها الكثير من مائه وروائه .

(و) التهكم : وينطوي على مبالغة في الهجاء ولكنها مبالغة راقية تم عن عقلية مركبة صقلتها الحضارة . اقرأ البيتين التاليين لتبين فيها التهكم المقذع الذي يفوق قوة ومزارة الهجاء الصريح النابي :

أَمَّا الْهَيْجَاءُ فَدَقَّ عَرَضُكَ دُونَهُ وَالْمَدْحُ عَنْكَ كَمَا عَلِمْتَ جَلِيلُ
فَاذْهَبْ فَأَنْتَ طَلِيقٌ عَرَضُكَ إِنَّهُ عَرَضٌ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ دَلِيلُ

(١) الأغبس : الأغبر .

شخصيته الشعرية

قلنا آنفاً ان الخصائص التي ذكرناها لشعر مسلم يمكن ان تشكل ، مجموعة^(١) ، الهيكل العام لشخصيته الشعرية . غير ان هذا الهيكل - على ما يبدو - لا يزال يفتقر الى ما يظهر ملامحه الفارقة ، فكما ان كثيراً من الناس يتشابهون في هياكلهم فلا يميز الواحد منهم عن الآخر سوى ملامحه الخاصة كذلك كثير من الشعراء يتشابهون في خصائصهم الشعرية فلا يفرق بينهم سوى ما يميز كلا منهم من سمات خاصة تنبعث من هذه الخصائص في الغالب وتعمل على ايضاح شخصية الشاعر وابراز ملامحه الشعرية .

ويخيل إليّ ان ابرز ما يميز شخصية مسلم الشعرية ما يلي : النحت ومتانة البناء ، والتصنيع والزخرف^(٢) ، ومواءمة الطبع الصنعة . وهذه الميزات مجتمعة تبرز ملامح مسلم وتساعد على قدّ شخصيته الشعرية قدّاً واضحاً يميزها عن غيرها من شخصيات الشعراء الآخرين . فشاعرنا حين ينظم يدأب على نحت قصيدته ويحرص على متانة بنائها ، ثم هو فوق ذلك يجهد في توفير شتى انواع الحلية لها ، وهو في كل هذا يوائم بين طبعه وصنعه فلا ينحت قصيدته « من صخر » صلب كما يفعل ابوقمام ، ولا يأسره بديعه شأن ابى تمام وابن الفارض ، رغم انه - مثلها - يكثر من انواع هذا البديع فيستعمل الاستعارة والتشبيه والجناس والطباق والمحاكاة والترصيع ورد العجز على الصدر ومراعاة النظير وغير ذلك من انواع البديع الدقيقة ، فيميز نفسه بذلك عن كل من سبقه وعاصره من شعراء البديع « الصانعين » كابن هرمة وبشار وابى نواس ممن يكاد يقتصر بديعهم على الاستعارة والتشبيه .^(٣)

ولنأخذ اي قصيدة او مقطوعة من قصائد الشاعر ومقطوعاته نجد انها تشمل هذه الميزات متجاوزة فيها متلازمة ، فلا تكاد تخلو واحدة منها من النحت والجهد ومتانة التركيب حتى ولو رقّ موضوعها وسلس معانيها ، كما لا تخلو من ضروب البديع المختلفة ترصّع ابياتها وتزين معانيها وتجعلها لا تعبر عن خواطر بقدر ما تعبر عن الوان وصور جميلة في معظم الاحيان . كل ذلك والطبع يوائم الصنعة دون ان يسمح لها بالتمكن منه والتغلب عليه في الغالب . اقرأ هذه

(١) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١١٩ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ١١٦-١١٨ .

المقطوعة من قصيدة يتغزل فيها ويصف الحمرة :

ودارت علينا الكأس من كف طفلة
وحن لنا عود فباح بسرنا
تضاحكه طورا وتبكيه تارة
إذا ما اشتبهنا الأقحوان تبسمت
وأسعدنا المزمار يشدو كأنه
غدونا على اللذات نجني ثمارها
أقامت لنا الصهباء صدر قناتها
إذا ما علت منا ذؤابة شارب
فلا نحن متنامية الدهر بفتة
ولا هي عادت بعد عل إلى نهل^(٥)

تجد فيها الشاعر كالتحات الماهر يختار حجارته فيرصها رصفاً محكماً متيناً ويرصعها بأنواع الزخرف فيشخص الكأس والعود والمزمار والصهباء ، وينسب لها بالتتابع الدوران ، والحنين والبوح ، والشدو ، والحركة . ويشبه الساقية بالرشاء الطفل ، وعود الملاوي بساق الجارية العطل ، وشدو المزمار ببكاء الناحات الثالكات ، ومشى الثمل بمشي المقيد بالوحل . ويستعير العود للفتاة ، والأقحوان لثنايا القينة ، والمزمار للشادية ، واللذات للشجر المثمر ، والصهباء للفتاة . ويمحس بين طفلة وطفل . ويطابق بين تضاحكه وتبكيه ، وبين إقامة الصدر والميلان . ويراعي النظر ويرصد في عل ونهل .

وهذا يتنقل الشاعر بين ألوان البديع المختلفة وهو متمكن من طبعه ، آسر لصنعه ، وحافظ لرواء شعره ومتانته .

(١) الطفلة : الناعمة الرخصة .

(٢) العطل : التي لا حلي عليها .

(٣) الحدجلة : الحسنة الخلق - الشوى : الأطراف - عبل : ضمخ .

(٤) ثعل : ذات اعوجاج وتخالف في منابتها .

(٥) العل : الشرب الثاني فما فوقه - والنهل : الشرب الاول . يعني انها لم تعد الى حالها الاولى بعد ان شربناها وصارت غذاء في اجسامنا .

٥ . الابواب الشعرية التي طرقها

يبدو مما وصل إلينا من شعر مسلم ان معظم جهوده الشعرية انصبّت في ثلاثة ابواب : المديح ، والغزل ، ووصف الحمر . اما الابواب الاخرى فلم يكن له فيها حظ كبير على ما يظهر ، اذ لم ينظم غير مقطوعات معدودة في الهجاء والثناء ، وغير بضعة ابيات في العتاب ^(١) . ولهذا فسنركز بحثنا على الابواب الثلاثة التي اكثر من النظم فيها :

أ - المديح

وتشغل القصائد التي تتصل به القسم الاكبر من الديوان ، ويبدو في بعضها بتر ^(٢) يجعلنا نرجح سقوط بعض اجزاها . ولعل ما في جميعها من اشادة بكرم الممدوحين ، وما في معظمها من تلميح بطلب العطاء ، يحدد علاقة شاعرنا بمدوحه على وجهها الحقيقي ، اذ يبدو ان الحافز الاساسي لمديحه هو رغبته في التكبس ، لا حبه للممدوح ، ولا اشتراكه واياه في مذهب خاص من المذاهب الدينية او السياسية التي كانت في زمنه . ودليلنا على ذلك كفته عن مديح محمد بن يزيد بن مزيد حين انقطع رجاؤه منه ^(٣) ، ومديحه ليزيد حيناً ولخصومه البرامكة حيناً آخر . واغلب الظن انه كان يعبر عن مذهبه هذا تجاه جميع مدوحيه حين قال يخاطب الحسن بن عمران بن عمر الطائي :

وَقَفَّيْتُكَ لَمْ أُمْدَحْكَ لَا لِمِذْمَةٍ وَلَكِنْ تَأَنَّنَيْتُ اتِّجَاعَكَ لِلْحَمْدِ
وَإِنِّي لَا أَقْفُو الثَّنَاءَ بَغْيِرِهِ وَلَا أَبْتَغِيهِ قَبْلَ أَنْ يُبْتَغَى عِنْدِي

ولا غرابة في ذلك في عصر شاع فيه التكسب بالشعر حتى اصبح مهنة يحترفها معظم الشعراء . فها هو بشار يقول لأحد مدوحيه من البرامكة :

فَإِنْ تُعْطِنِي أَفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِي وَإِنْ تَابَ لَمْ يَضْرِبْ عَلَيَّ سَدَادُ
رُكَايِي عَلَى حَرْفٍ وَقَلْبِي مُشَيِّعٌ وَمَا لِي بِأَرْضِ الْبَاخِلِينَ بِلَادُ

(١) تعرضنا لجل ذلك في مواطن مختلفة مما سلف من الكتاب .

(٢) انظر القصيدتين الثانية عشرة والرابعة عشرة من الديوان .

(٣) مخطوطة دار الكتب للآغا (عن الدهان ص ٣٨١) .

وها هو ابنوأس يقول لخصيب مصر :

انتَ الخصيبُ وهذه مصرُ فَتَدَفَّقَا فكلَّاكما بَحرُ
وَيَحِقُّ لي إذ صرتُ بينكما أنْ لا يَحِلَّ بساحتي فُقرُ

وينتمي جل ممدوحى مسلم الى فئتين : الاولى الخلفاء ، والثانية الوزراء والقواد والوجهاء . ولذا ربما كان من الخير للبحث ان نعرض لمدحه لكل فئة على حدة ، في بادىء الامر :

مدحه للخلفاء :

وصل الينا من مدح مسلم للخلفاء خمس قصائد ، اربع منها في الرشيد ، والخامسة في الامين . وهو في مدحه للرشيد يظهر تزمناً وركانة باستثناء واحدة منها قصيرة ^(١) يستهلها بذكر الخمر ويحتفل فيها بنجاح حجابة للرشيد ويخلص فيها اخت الخليفة بأبيات في المديح اكثر مما يخلص الخليفة نفسه . ولعل الامر الاخير ، بصورة خاصة ، يتيح لنا الافتراض ان شاعرنا قد ازدادت دالته على الرشيد في وقت من اوقات حياته بحيث اباح لنفسه هذه الجرأة التي ابعده عن التوقر في مخاطبة الخلفاء . وربما كانت صلته الوثيقة بالبرامكة من جهة ، وسيطرة هؤلاء على امور الخليفة ^(٢) من جهة اخرى ، هي التي جعلته لا يتحسب لما قد ينتج عن مثل هذه الجرأة .

وشبه بهذه القصيدة القصيدة التي مدح بها الامين ^(٣) وان كان الحافظ على عدم التوقر والتزمت فيها عامل آخر يغلب على الظن ان يكون عدم توقر الخليفة السافر ^(٤) ورغبة الشاعر في الانحراف عن القديم وتقاليده في اواخر ايامه في بغداد ، تلك الرغبة التي يظهر اثرها في مطلع القصيدة على شكل نبذ لعادة القدماء في بكاء ديار الحبيبة ومغانيتها حيث يقول : ^(٥)

١) القصيدة السابعة والخمسون في الديوان ، وتقع في اربعة عشر بيتاً .

٢) انظر الجهشاري ص ٢١٢-٢١٤ .

٣) القصيدة الثلاثون في الديوان (الدعان) .

٤) انظر الجهشاري ص ٢٩٩-٣٠٠ .

٥) يذكرنا هذا المطلع بمطلع ابي نواس الذي يقول فيه :

مالي بدار خلت من اهلها شغل ولا شجاني لها شخص ولا طلل
ولا رسوم ولا ابكي لمنزلة للاهل عنها وللجيران منتقل ... الخ
(ديوان ابي نواس - ط آصاف - ص ٣٢٢) .

شغلي عن الدار أبكيها وأرثيها إذا خلت من حبيب لي مغانيها
دع الرواميس تسفي كلما درجت تراها ودع الأمطار تبليها
إن كان فيها الذي أهوى أقت بها وإن عداها فمالي لا أعديها
أحق منزلة بالترك منزلة تعطلت من هوى نفسي نواديها
أما القصائد الأخرى فيظهر فيها التوقر، في الفاظها ومعانيها، حتى وأوزانها.
فمن حيث الالفاظ انها تتراح بين الجزالة والميل الى الاغراب مما يقرها من النزعة
الارستقراطية في النظم، ويجعلها اثيرة لدى العلماء الذين كانوا يسيطرون
الى حد كبير على موقف الخلفاء من الشعر. ومن حيث المعاني انها لا تعرف ميوعة
في الغزل، او قصداً لذكر الحجر، او اندفاعاً في الفخر والحديث عن النفس.
ولعل هيبة الملك ورهبة السلطان هي التي تحد من كل ذلك. واما من حيث
الاوزان فان واحدة من هذه القصائد من البحر الطويل^(١) والاخران من البحر
البيسط^(٢)، وكلا الوزنين من البحور الطويلة التي تتلاءم والرغبة في التوقر.

ومسلم في جميع هذه القصائد، او في ما وصلنا منها على الاقل، يمدح الخليفة
بنعوت معظمها تقليدي متوارث كالشجاعة والجد ونفاذ الرأي، وبعضها وليد
العصر وظروفه، يتناول اعمال الخليفة في الداخل والخارج. فالرشيد جامع
لأهواء الناس اذا خرجوا عن الطاعة او اختلفوا في الميول والمشارب:

إذا اختلفت أهواء قوم جمعهم على العفو أو حد الحسام المهتد
والأمين مثبت للملك حين تزل دعائمه ونحمد لنيران الفتنة حين يشب أوارها:
يا مثبت الملك إذ زلت دعائمه وثار بالفتنة العمياء باغيها

...

أخذت بالشرق نيراناً مؤججة قد كان عزاً على الاسلام مخبيها
حتى بُعثت عليها رحمة فخببت نيرانها بك فانفتت أفاعيها
ويحاول مسلم، فوق ذلك، ان يجعل من الخليفة حامي الدين، زيادة على
حمايته للدولة، فهو «امام» المسلمين ورافع لواء الاسلام، في وقت كثر فيه
الشرك وانتشرت البدع. كما يحاول ان يجعل سلطة الخليفة مستمدة من الله،

(١) السابعة في الديوان (الدهان)

(٢) الرابعة عشرة والحادية والاربعون في الديوان (الدهان)

فالرشيد « خليفة الله » في الارض و « أمينه » ، يحكم باسمه ويستمد سلطانه منه :
خليفة الله إِنَّ النُّصْرَ مُقْتَصِرٌ عَلَيْكَ مُذْ أَنْتَ مَبْلُوءٌ وَخُتَبَرُ

...

إِلَيْكَ أَمِينَ اللَّهُ ثَارَتْ بِنَا الْقَطَا بَنَاتُ الْفَلَا فِي كُلِّ مَيْثٍ مُسَرَّدٍ^(١)

...

والامين « خليفة الله » كذلك و « أمينه » على ما يسبغ على الناس من ايايد
وفيء عليهم من نعم :

خليفة الله قَدْ ذَلَّتْ بِطَاعَتِهِ صُعُرُ الْخُدُودِ بَرْغٍ مِنْ مَرَاقِيهَا

...

كَمْ مِنْ يَدٍ لِأَمِينِ اللَّهِ لَوْ شُكِرَتْ لَقَصَّرَ النَّفْسُ عَنْ أَدْنَى أَدَانِيهَا

...

ولا ريب في ان خلفاء بني العباس كانوا يشجعون هذه الدعوة التي تمكن لهم
اسباب السلطان كما كان اسلافهم خلفاء بني امية يشجعون دعوة مشابهة.^(٢) ولعل
شاعرنا متأثر بما كان يقوله بعض الشعراء الامويين عن خلفائهم في هذا الصدد ،
او لعله واياهم متأثرون بفكرة الشيعة عن امامهم . والواقع ان من يقرأ قول
جرير في عبد الملك بن مروان الاموي :^(٣)

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه	ما قام للناس أحكام ولا جمع
انت الأمين أمين الله لا سرف	فيما وليت ولا هيابة ورع
انت المبارك يهدي الله شيعته	إذا تفرقت الأهواء والشيع

لا يستطيع الا ان يرى وجها للشبه كبيراً بينه وبين ما يقوله مسلم في ممدوحه
من خلفاء بني العباس .

مدحه للوزراء والقواد والوجهاء :

وهنا ، كما في مديحه للخلفاء ، تتراوح النسبة في التزامت بتراوح علاقة الشاعر
بالممدوح . فاذا ازدادت دالته عليه ساق نفسه على سجيته فأسهب في ذكر الحمرة ،

(١) الميث : اللين من الارض - مسرد : متتابع .

(٢) انظر التطور والتجديد في الشعر الاموي ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٣) ديوان جرير ص ٣٥٥ - ٥٦ .

ترضن سوا حكم الأمر كما فعل في بعض مبدحه للرشيد . ولعل افضل مثل لهذا التراوح نجده في قصيدته الرابعة والثلاثين التي يمدح بها محمد بن منصور بن زياد ، وتحرر في غزله ، وتحلل من غريب اللفظ ، وسمح لشخصيته بالظهور ، والاقائه وقصيدته الثانية والعشرين التي يمدح بها يزيد بن مسلم الحنفي ^(١) . ففي الاولى تحس بكثير من الركائز والاحتساب ، وفي الثانية تشعر بفضل من انسياب نفس الشاعر وانطلاق روحه . ولولا خشية الاطالة لذكرت القصيدتين لتبين مدى ما قد تعكسه نفسية الشاعر على شعره في ظرفين متغايرين .

ويشمل مديح مسلم لرجال هذه الفئة صفات مختلفة ، معظمها تقليدي ، كالجود ، والشجاعة ، والبطش بالاعداء ، والفضل على الاصفياء ، والعفو عند المقدرة ، ونفاذ الرأي ، وكرم المحتد . وهو يعبر عن هذه الصفات بطرق مختلفة ويصورها بصور متنوعة : فبينما يعبر عن الجود عند داود بن يزيد بن حاتم ، مثلاً ، بقوله :

أَعْطَى فَأَفْنَى الْمُنَى أَدْنَى عَطِيَّتِهِ وَأَرْهَقَ الْوَعْدَ نَجْحًا غَيْرَ مَنكُودٍ
وقوله :

لَمْ يَبْعَثِ الدَّهْرُ يَوْمًا بَعْدَ لَيْلَتِهِ إِلَّا انْبَعَثَ لَهُ بِالْبَاسِ وَالْجُودِ
يعبر عنه عند محمد بن منصور بن زياد بقوله :

وَلَهُ إِذَا غَنِيَ السُّؤَالُ مَذَاهِبٌ فِي الْجُودِ تَبَحُّثٌ عَنْ سُؤَالِ الْمُجْتَدِي
وقوله ايضاً :

أَعْطَيْتَ حَتَّى مَلَّ سَائِلُكَ الْغِنَى وَعَلَوْتَ حَتَّى مَا يُقَالُ لَكَ اِزْدَدِ

ولعلني لا استطيع الوقوف طويلاً عند امثال هذه الصور الرائعة لأبين مواطن الجمال الفني فيها ، فكل منها يمثل لوحة فنية مدهشة تشترك خطوطها والوانها وظلالها الواضحة في ابراز مواطن الجمال فيها . فإفناء داود لمنى قصاده بتجاوزه كل ما انتهى اليه املمهم في العطاء ، وارهاقه وعوده بإتباعها توأ بأفعاله ، وتجديده للوجود كلما تعاقب الجديدان ، ومذاهب محمد في البحث عن ذوي الحاجة « اذا

(١) يغلب على الظن ان ترمته في الاولى دون الثانية ناجم عن خطورة المركز الذي كان يشغله الاول بالنسبة للثاني ، فبينما كان الاول خليفة الفضل بن جعفر عند الرشيد كان الثاني من الشخصيات التي لم تجد كتب التاريخ خطراً في امالها (انظر الباب ج ١ ص ٣٢٥) .

ففي السؤال ، واعطاؤه المتتابع الوفير الذي يجعل سائله كارهاً للغنى راغباً عنه - كل هذه صور جميلة مختلفة لمعنى واحد . وهل كان اختلاف الصور للمعنى الواحد الا المظهر البارز لمذهب البديع الذي مسلم أحد زعمائه ؟!

وقد يضيف مسلم الى صفات ممدوحه ، او الصفات التي يرى ان يسبقها عليه بصورة ادق ، ذكر صلاته بالخليفة ، وخطره بالنسبة للدولة والدين ، واعماله . فهو يقول في يزيد بن يزيد :

لولا يزيد لأضحى الملكُ مطّرحاً أو مائل السّمكِ أو مسترخي الطّولِ
سلّ الخليفة سيفاً من بني مطرٍ أقام قائمُهُ من كان ذا ميلٍ
كم صائلٍ في ذرا تمهيدِ مملكةٍ لولا يزيدُ بني شيبانٍ لم يصلِ
تابُ الإمامِ الذي يفتَرُّ عنه إذا ما افتَرَّت الحربُ عن أنيابِها العُصلِ

...

سدّ الثغورَ يزيدُ بعدما انفرَجَتْ بِقائمِ السيفِ لا بالحتلِ والحيلِ
الى ان يقول :

أثبتَّ سُوْقَ بني الاسلامِ فأطأدتْ «يومَ الخليج» وقد قامتْ على زلزلٍ^(١)
لولا دفاعكُ بأسَ الرومِ اذ بَكَرَتْ عن عِترَةِ الدّينِ لم تأمنِ من الشّكلِ
ويوسفُ البرمِ قد صَبَّحتْ عسكرُهُ بعسكرٍ يَلْفِظُ الأقدارَ ذي زَجَلِ

...

وسواء أكان مسلم يمدح خليفة ، ام وزيراً ، ام قائداً ، ام وجيهاً ، فان في معظم مدحه قدراً كبيراً من التشابه في الامور التالية :

(أ) نهج القصيدة العام . (ب) الاستطراد . (ج) صفات الممدوحين .

(أ) نهج القصيدة العام :

ويكاد لا يختلف ، في معظم الاحيان ، عن النهج الذي ذكره ابن قتيبة للقصيدة العربية^(٢) ، في خطوطه العريضة ، وان كان هناك بالطبع اختلاف في التفاصيل اقتضته روح العصر . ولايضاح ذلك دعنا نستعرض احدي هذه القصائد ، ولتكن القصيدة الاولى من الديوان التي يمدح بها يزيد بن يزيد ، والتي مطلعها :

(١) اطأدت : ثبتت - يوم الخليج : يوم التقى فيه بالروم . والخليج اسم لنهر صغير في الاناضول .

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٠ .

أَجْرِرْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصَّبَا غَزَلٍ وَشَمَّرْتُ هِمَمُ الْعُدَّالِ فِي الْعَدَلِ
يستهل الشاعر هذه القصيدة بأربعة عشر بيتاً في الغزل ثم ينتقل بعد ذلك
الى السفر للمدوح ويتخذ لهذا الانتقال وسيلة بيتاً يبرر فيه مديحه للمدوح الذي
« أصفاه مودته » على حد قوله . ولا يطيل وصف السفر الذي لا يتجاوز البيتين
حتى ينتقل الى المديح في البيت الثامن عشر فيستهله بقوله :

يَا مَائِلَ الرَّأْسِ إِنَّ اللَّيْثَ مُفْتَرِسٌ مِيلَ الْجَمَاجِمِ وَالْاعْنَاقِ فَاعْتَدِلِ
ثم يستمر به الى نهاية القصيدة دون ان ينسى تضمين البيتين الاخيرين التلميح
بالسؤال ، على عادته في جل مدائحه :

يَأْبَى لِسَانُكَ مَنَعَ الْجُودِ سَائِلَهُ فَمَا يُلْجَلِجُ بَيْنَ الْجُودِ وَالْبَخْلِ
صَدَقْتَ ظَنِّي وَصَدَقْتَ الظُّنُونُ بِهِ وَحَطَّ جُودُكَ عَقْدَ الرَّحْلِ عَنْ جَمَلِي
وتسير جل مدح مسلم على هذا النهج ، وان كان يلاحظ انها لا تحافظ اجمالا
على نفس النسبة بين الاقسام .

(ب) الاستطراد :

ضمن هذا الاطار العام للقصيدة ينتقل مسلم من صفة لاخرى او صورة لثانية ،
دون ان يجد حرجاً في الاستطراد والعودة الى هذه الصفات والصور ان شعر
بأنه لم يوفها حقها من التوكيد ، او رأى في التكرار والاطالة ما يسعف على وفاء
القصد . فحين يمدح يزيد بن مزيد - اثيره وحبيبه في وقت من اوقات حياته -
في القصيدة السادسة من الديوان مثلاً ، يبدأ بذكر فضله في اخاد فتنة الوليد بن
طريف الخارجي فيقول :

لَوْلَا زَيْدٌ وَأَيَّامٌ لَهُ سَلَفَتْ عَاشَ الْوَلِيدُ مَعَ الْغَاوِينَ أَعْوَامَا
سَلَّ الْخَلِيفَةُ سَيْفًا مِنْ بَنِي مَطَرٍ يَمْضِي فَيَخْتَرِقُ الْأَجْسَادَ وَالْهَامَا
كَالدَّهْرِ لَا يَنْثَنِي عَمَّنْ يَهْمُ بِهِ قَدْ أَوْسَعَ النَّاسَ إِنْْعَامًا وَإِرْغَامَا
حَمَى الْخِلَافَةَ وَالْإِسْلَامَ فَامْتَنَعَا كَاللَّيْثِ يَحْمِي مَعَ الْأَشْبَالِ أَجَامَا

ثم ينتقل ، بعد هذه الصورة التي تجمع بين السطوة والشجاعة والكرم ، الى
ذكر آباء المدوح وما خلفوه من ايام مجيدة :

أَكْرَمُ بِهِ وَبِآبَاءٍ لَهُ سَلَفُوا أَبَقُوا مِنَ الْمَجْدِ أَيَّامًا وَأَيَّامَا

ثم يعود الى الممدوح نفسه فيذكر كرمه للمرة الثانية ، كما يذكر رحابة باعه
في المجد ورؤاه وبشره :

تَرَى الْعُقَاةَ عُكُوفًا حَوْلَ حُجْرَتِهِ يَرْجُونَ أَرْوَاعَ رَحْبِ الْبَاعِ بَسَامًا
ثم يرجع الى سطوة الممدوح مرة اخرى ولكن بشكل جديد فممدوحه الآن
« منية » في يدي الخليفة « يبعثها على اعدائه » :

مَنِيَّةٌ فِي يَدَي هَارُونَ يَبْعَثُهَا عَلَى أَعَادِيهِ إِنَّ سَامِي وَإِنْ حَامِي
ثم يعود الى ذكر آباءه وكرم محته :

خَيْرُ الْبَرِيَّةِ آبَاءُ إِذَا ذُكِرُوا وَأَكْرَمُ النَّاسِ إِخْوَالًا وَاعْمَامًا
ثم يرجع الى ما كان قد استهل به مديحه من ذكر الوليد بن طريف واقدام
الممدوح وشجاعته :

أَرْدَى الْوَلِيدَ هُمَامٌ مِنْ بَنِي مَطَرٍ يَزِيدُهُ الرُّوعُ يَوْمَ الرُّوعِ إِقْدَامًا
وهكذا يستمر الشاعر في تكرار نعوته وصوره ، ثم يضيف اليها نعوتاً
جديدة وصوراً جديدة ، ويكرر ايضاً ، حتى يوفي القصيدة البالغة سبعة وثلاثين
بيتاً . وهو يبدو في جميع هذا وكأنه يدور في حلقة مفرغة من صفات الممدوح
وأعماله في السلم والحرب .

ولعل هذه الظاهرة ، التي تبدو بشكل بارز في الادب العباسي ، هي وليدة
عصر سادته الشك وأصيب فيه « التصديق » بمحنة شديدة .

ج) صفات الممدوحين :

تبدو في مدائح مسلم بعض الصفات التي يشدد عليها الشاعر ويكاد يشرك
فيها جل ممدوحيه . فهو ان مدح احداً يصفه عادة بالكرم ، والفتك بالاعداء ،
والعفو عن التائبين ، ونفاذ الرأي ، وكرم الاصل . ويسوق كل ذلك بمبالغة يصل
فيها الغاية . وقد يبدو للمرء حين يحذف بعض القرائن الدالة ان مسلماً انما يمدح في
معظم مدحه نموذجاً بشرياً يمثل المثل الاعلى للرجل الكامل في عصره . وعلى
سبيل المثال سأسوق لك بضعة ابيات يمدح بها يزيد بن مزيد ، وأخرى يمدح بها
داود بن يزيد بن حاتم ، لترى اوجه الشبه بينها . قال في يزيد :

تَشَاغَلَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا وَأَنْتَ مِنْ ذَلِكَ بِالْمَعْرُوفِ فِي شُغْلٍ

...

يَغْشَى الْوَعْيُ وَشِهَابُ الْمَوْتِ فِي يَدِهِ يَرْمِي الْفَوَارِسَ وَالْأَبْطَالَ بِالشَّعْلِ

...

تَابُوا وَلَوْ لَمْ يَتُوبُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ لَأَبْجِشَكَ بِالْأَسْرِ وَبِالنَّقْلِ

...

صَافِي الْعِيَانِ طَمُوحُ الْعَيْنِ هَمُّهُ فَكُ الْعُنَاةِ وَأَسْرُ الْفَاتِكِ الْبَطْلِ

...

الزَّائِدُوثُ قَوْمٌ فِي رَمَاحِهِمْ خَوْفُ الْمُخِيفِ وَأَمْنُ الْخَائِفِ الْوَجِلِ

...

وقال في داود :

أَعْطَى فَأَفْنَى الْمُنَى أَدْنَى عَطِيَّتِهِ وَأَرْهَقَ الْوَعْدَ نَجْحًا غَيْرَ مَنكُودٍ

...

يَلْقَى الْمَنِيَّةَ فِي أَمْثَالِ عُدَّتِهَا كَالسَّيْلِ يَقْذِفُ جُلُودًا يَحْمُودٍ

...

إِنْ تَعَفُّ عَنْهُمْ فَأَهْلُ الْعَفْوِ أَنْتَ وَإِنْ تَمَضَّ الْعِقَابَ فَأَمْرٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ

...

مُوحَّدُ الرَّأْيِ تَنْشَقُّ الثُّظُنُونُ لَهُ عَنْ كُلِّ مُلْتَبِسٍ مِنْهَا وَمَعْقُودٍ

...

إِلَى بَنِي حَاتِمٍ أَدَّى رَكَائِبَنَا خَوْضُ الدُّجَى وَسُرَى الْمَهْرِتَةِ الْقُودِ^(١)

...

ولعل مسلماً ، في هذا التشابه في النعوت التي يطلقها على ممدوحيه ، كانت يسهم الى حد ما في بناء نموذج المديح الكلاسيكي على الوجه الذي غدا قدامة بن جعفر^(٢) يروج له في القرنين الثالث والرابع الهجريين .

(١) المهريّة : منسوبة الى مهرة وهو حيّ من همدان - القود : جمع قوداء ، وهي الطويلة من الخيل وغيرها .

(٢) يقول قدامة في الصفحة التاسعة والخمسين من « نقد الشعر » : « انه لما كانت فضائل الناس من حيث انهم ناس لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه اهل الألباب من الاتفاق في ذلك ، انما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة ، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الاربعة الخصال مصيباً ، والمادح بغيرها مخطئاً .. » والظاهر ان قدامة كانت يقصد بالعدل معناه الارسطوطاليسي الواسع ، ولذا اعتبر الجود أحد أقسامه (ص ٩٥ ايضاً) .

ب. الغزل

وصل الينا غزل مسلم بشكلين : الاول مطالع لمداخه ، والثاني قصائد او مقطوعات مستقلة غلب ان اختلط فيها بوصف الخمر .

أما غزله الذي من النوع الاول فهو تقليدي في مجمله يحاول ان يقلد فيه في الغالب شعراء الجاهلية وبني امية . ففي مطلع القصيدة الحادية والثلاثين التي يمدح بها منصور بن يزيد ، مثلاً ، تشعر كأنك امام شاعر جاهلي يبكي على ديار الحبيبة التي درست وغير معالمها هبوب الريح ونزول المطر ، بعد ان كانت مرتعاً لأوانس كالدمى عبثت بهن يد الدهر وعملت على تشتيتهن :

هاجَتْ وَسَاوِسَهُ بُرُومَةٌ ^(١) دُورٌ دُورٌ عَفَوَتْ كَأَنَّهُنَّ سَطُورٌ
أَهْدَى لَهَا الْإِقْفَارَ حَتَّى أَوْحَشَتْ مِنْ بَعْدِ أَنْسٍ زَائِرٌ وَغَيْرُ
جَرَّتِ الرِّيحُ بِهَا وَغَيْرَ رَسْمِهَا هَزِمَ الْكُلَّ دَانِي الرَّبَابِ ^(٢) مَطِيرٌ
أَبْكَى نَعَمَ أَبْكَاهُ رُبْعٌ بِاللَّوَى تَسْفِي عَلَيْهِ مِنَ الْعَجَاجِ ^(٣) الْمُورُ
خَلَّتِ الدِّيَارُ وَكَانَ يَعْهَدُ أَهْلَهَا وَأَجَدَّ بِالْأَحْبَابِ عَنْهَا مَسِيرُ
تَالَهُ مَا إِنَّ كَادَ يَقْتُلُنِي الْهَوَى لَوْلَا رُسُومٌ بِالْعَقِيقِ وَدُورُ
وَلَقَدْ تَكُونُ بِهَا أَوَانِسُ كَالْدُمَى بِيضُ التَّرَائِبِ نَاعِمَاتُ حُورُ

وليس في ما وصل الينا من سيرة مسلم ما ينبئ بأنه زار رومة او وادي العقيق . وسواء زارهما ام لم يزرهما ، فغزله هنا بعيد الصلة ببيئته الحضرية ، ومن ثم فهو بعيد الصلة بنفسه ، يبدو فيه اثر التقليد ، وتضيع فيه العاطفة بين ما اندثر من آثار ديار الحبيبة .

وفي مطلع القصيدة الخامسة التي يمدح بها بني جبريل ، والتي يقول فيها :

هَلَّا بَكَيْتَ ظَعَائِنَا وَحُمُولَا تَرَكَ الْفُؤَادَ فِرَاقَهُمْ نَحْبُولَا
أَمَّا الْخَلِيطُ فَزَائِلُونَ لِفُرْقَةٍ فَتَى تَرَاهُمْ رَاجِعِينَ قَفُولَا
أَتَبَعْتَهُمْ عَيْنَ الرَّقِيبِ مُخَالِسًا لِحَظًا كَمَا تَنْظُرُ الْأَسِيرُ كَلِيلَا
تَالَهُ مَا جَهْلَ السَّرُورُ وَلَا الْكَرَى أَنَّ الْفِرَاقَ مِنَ اللَّقَاءِ أَدِيلَا

(١) ارض بالمدينة بين الجرف وزغابة، فيها بئر يدعى بئر رومة (معجم البلدان ج ٤ ص ٣٣٦) .

(٢) هَزِمَ : منبثق بالمطر - الكُلَّ : جمع كلية وهي رقعة المزايدة التي عند أصول عراها . ويضرب هزم الكلا مثلاً للسحاب - الرباب : سحاب صغير .

(٣) المور : التراب تثيره الريح فيمور اي يتحرك .

فاذا زَجَرْتُ القلبَ زادَ وجيبُهُ وإذا حبستُ الدمعَ فاضَ هُمُولا
 وإذا كَتَمْتُ جوى الأسي بَعَثَ الهوى نَفْسًا يَكُونُ على الضميرِ دَلِيلًا
 تحس كأنك تستمع الى شاعر من شعراء بني امية يتحدث عن فراق الطعائن ،
 ووداع الخليط ، وما يرافق ذلك من جوى في النفس ، واضطراب في القلب ،
 وتبجس في العين . بل لعلك تحس ، كما احس شارح الديوان^(١) ، انك امام جرير
 نفسه وهو يسوق اليك قصيدته :

بَانَ الْخَلِيطُ لَوْ طَوَّعْتُ مَا بَانَ وَقَطَّعُوا مِنْ حَبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانًا
 ومسلم في غزله التقليدي يلح في التقليد احياناً حتى تكاد تنقطع الصلة بين
 غزله وبين نفسه فتخبو العاطفة ويسيطر الجمود ، ويتحلل احياناً اخرى فتنبعث
 من أرجاء غزله نفحات من عاطفة الحب الحقيقي وشعور المتيم الوله . ولعل
 علاقته بالممدوح ، ومدى ما بينه وبينه من كلفة أو ألفة هي مما يقرر ذلك الى
 حد بعيد .

وتبرز من خلال بعض مطالع مسلم قصة توبة فهو يقول في مطلع القصيدة
 العشرين التي يمدح بها داود بن يزيد بن حاتم :

لَا تَدْعُ بِي الشُّوقَ إِنِّي غَيْرُ مَعْمُودٍ نَهَى النَّهْيَ عَنْ هَوَى الْهَيْفِ الرَّعَادِيدِ
 ويقول في مطلع القصيدة الرابعة والثلاثين التي يمدح بها محمد بن منصور بن زياد :
 عَاصَى الشَّبَابِ فَرَّاحَ غَيْرِ مُفْتَنِّدٍ وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجَلَّدِ
 مُتَحِيرًا طَلَعَتْ لَهُ شَمْسُ النَّهْيِ فَشَى عَلَى سَنَنِ الطَّرِيقِ الْأَقْصَدِ

ومن الواضح ان هذه التوبة التي يتحدث عنها هي ليست تلك التي يتحدث
 عنها الرواة والتي انتهت بصاحبها الى الكف عن قول الشعر وهو في اخريات
 حياته في جرجان ، ان صحت الرواية . واغلب الظن عندي انها توبة مصطنعة
 طارئة جاءت اثر تشدد الخليفة معه ومع غيره من مجّان الشعراء . فهو يقول في
 القصيدة الثانية والاربعين .

أَثَرْتُ مَطْيَ الْقَصْفِ فِي مُسْتَقَرِّهِ فَلَا الْقَصْفُ مَتَبُوعٌ وَلَا هِيَ تَرَحَّلُ
 وَأَخْلَيْتُ مَيْدَانَ الصَّبَا مِنْ بَنَاتِهِ وَإِنِّي بِهَا لَمُسْتَهَامٌ الْمَوْكَلُ
 . . .

(١) انظر شرح الطبري للبيت الثاني من المطالع (الديوان ص ٥٣ - الدهان).

عَظْمَاتِ اللَّهْرِ عَنِّي أَمِيرُهَا وَأَتُكَلِّمُهُنَّ الْإِمَامُ الْمُعَذَّلُ
ولعل معاصره ابا نواس كان اصرح منه في عرض الموقف الذي ادى الى مثل
هذه التوبة او اصطناعها حين قال: (١)

أَعَاذَلْ بَعْتُ الْجَهْلَ حَيْثُ يُبَاعُ وَأُبْرَزْتُ رَأْسِي مَا عَلَيْهِ قِنَاعُ
نَهَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الصَّبَا وَأَمْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُطَاعُ
وَلَهُوَ لِتَأْنِيبِ الْإِمَامِ تَرْكُهُ وَفِيهِ لِلَّهِ مَنْظَرٌ وَسَمَاعُ
وَرَيَّانٍ مِنْ مَاءِ الشَّبَابِ كَأَنَّمَا يُظْمَأُ مِنْ ضَمْرٍ الْحِشَا، وَيُجَاعُ
قَصَّرْتُ عَلَيْهِ النَّفْسَ دُونَ مُدَامَةٍ هِيَ الْيَوْمَ حَرْبٌ وَهِيَ أَمْسٌ شِيَاعُ

وسواء توقف مسلم عن التصابي نتيجة لهذه التوبة او لم يتوقف ، فانها لا بد
ان قد حدثت من نشاطه في باب الغزل على الاقل ، لفترة ما .

اما غزله الذي من النوع الثاني فتتمثل في معظمه حياته اللاهية وعواطفه
الحقيقية ، الى حد كبير . وقد قلنا معظمه لانه لا يخلو كذلك من اثر التقليد
والتأثر ، كما سنرى . وقبل ان نعرض لهذا النوع من الغزل فتحدث عن وجوهه
المختلفة ، لا بد من ان نعرف شيئا عن حب مسلم وطبيعة هذا الحب لنستعين بذلك
على فهم هذه الوجوه وتبين مدى اصالة العاطفة في كل منها .

ذكر الاصبهاني (٢) رواية عن محمد بن يزيد قال :

« كان السبب في قول مسلم :

كَدَّعِي الشَّوْقَ إِنْ نَأَتْ وَتَجَعَّنِي إِذَا دَنَتْ

انه علق جارية ذات خطر وشرف ... وكانت له جارية يرسلها اليها ، ويبشها
سره ، وتعود اليه باخبارها ورسائلها ... وكان مسلم يحب جاريته هذه محبة
شديدة ، ولم يكن يهوى تلك انما كان يريد الغزل والمجون والمراسلة وان يشيع له
حديث بهواها . وكان يرى ذلك من الملاحاة والظرف والادب . »

واذا صحت هذه الرواية كان لمسلم لوانان من الحب : حب حقيقي « شديد » ،
وحب مصطنع زائف يريد فيه الغزل والمجون والمراسلة وحديث الناس ، تظرفاً

(١) ديوان ابي نواس (الغزالي) ص ١٢ .

(٢) مخطوطة دار الكتب المصرية للاغاني ج ١٧ (عن الدهان ص ٣٦٥) .

وملاحظة . والحب الاول هو الذي يعنينا امره بصورة خاصة فهو مصدر الالهام في غزل مسلم ، والمعين الذي تستقي منه عواطفه الحقيقية . ولكن السؤال الذي يتبادر الى الذهن الآن هو « من أحب ؟ » .

تتردد في شعره الغزلي الاسماء التالية : سحر ، رضى ، قاتول ، العامرية ، سلمى ، أروى ، زينب ، ليلي . فهل هذه الاسماء ترمز لحبيبات حقيقية كانت له معهن صلات عاطفية ؟ أغلب الظن عندي ان بعضها كان كذلك ، وان ما يحتمل معنى الصفة منها قد يرمز الى نساء حرائر او جوار « ذوات خطر وشرف » احبهن ، او شاء التظرف بحبهن ، ولكنه قصد الى اخفاء اسمائهن الحقيقية حرصاً وحذراً . ودليلي على ذلك ما يقوله على لسان سحر التي يتغزل بها في اكثر من موضع واحد في الديوان :

وَصَلَّاهُ فكلَّمَنَا بِسِحْرِ كَذَلِكَ كُلُّ مَلَأَقٍ خَلُوبٍ

ومها يكن من امر ، فالذي يبدو من هذه الاسماء ، ومما يمكن ان ينم عنه لقبه « صريع الغواني » ، انه لم يقصر حبه على فتاة واحدة ملكت عليه قلبه واستأثرت بعواطفه ، بل كان يتنقل في هذا الحب بين شتى الغواني ، يترسم فيهن مواطن الجمال ويقاسمهن أعشار القلب .

ويؤخذ مما يتكرر كثيراً في ديوانه من معانٍ تتصل بهذا الحب انه كان « ماجناً » خالماً عذاره فيه ، وانه اكثر ما كان يتجه فيه نحو مواطن الشهوة في جسم المرأة . ومن الواضح ان المعاني التي يكثر الشاعر من تكرارها تمثل الى حد بعيد ميوله واهواءه الخاصة ، في الغالب .

ولئن كان يبرز لنا احياناً بعض ابيات في العفة وهو يصف خلواته بالحبيب او طيفه ^(١) ، فأغلب الظن انه لم يقصدنا بهذه الابيات وانما قصد السلطان او من يتصل بالسلطان . وليس لدينا ما يمكن ان يبرر مثل هذه العفة ونحن نعلم من سيرة الرجل انه كان عشير ابي نواس والحسين الخليع واضرايها ، وانه خادع صديقه دعبلاً وقتك بجارية احضرها لبيته .

واذا درسنا الآن غزله الذي اودعه قصائد ومقطوعات مستقلة على نور من هذه الحقائق عن حياته وحبه ، وجدنا انه لا ينسجم جميعه معها ، ومن ثم فهو لا ينسجم بأسره مع نفس صاحبه . فبينما نرى صاحبه يمجن حيناً فيقول :

(١) انظر ص ٦٢ و ٢٢٧ من الديوان (الدهان) حيث يذكر هذه العفة .

فَقَطَّطْتُ رَمَانَ الصَّدُورِ لِلذِّةِ وَلَمَسْتُ أُرْدَافًا كَفَعِلِ اللَّاعِبِ
نراه يتذمم حيناً آخر ويقول :

ثم افترقنا ولم نَأْتَمْ ونحنُ كذا نَهَوَى التَّلَاقِي وما مِن شَأْنِنَا الرِّيبُ
ولا شك في ان وقوع الكثير من مثل هذا التناقض وعدم الانسجام يمكن
ان يعزى الى تقليد الشاعر لغيره في معانٍ تتصل بفنّه ولا تتصل بحياته . والظاهر
ان مسلماً أسرف في التقليد في غزله ، وتنوع فيه ، بحيث اصبحت تتلاقى في هذا
الغزل معظم المدارس التي سبقته والتي عاصرتة . فهو احياناً يطرق اساليب
المعذرين في اظهار الوله وشدة الوجد فيقول :

واني لأخلو مُذْ فَقَدْتُكَ دَائِبًا فَأَنْقُشُ تَمَثَّلاً لَوَجْهِكَ فِي الثَّرَبِ^(١)
ويقول :

فما حَزَنِي أَنِّي أَمُوتُ صَبَابَةً وَلَكِنْ عَلَى مَنْ لَا يَحِلُّ لَهُ قَتْلِي
أُحِبُّ الَّتِي صَدَّتْ وَقَالَتْ لِتَرِيهَا : دَعِيَهِ الثُّرَيَّا مِنْهُ أَقْرَبُ مِنْ وَصْلِي
أَمَاتَتْ وَأُحْيَتْ مُهْجَتِي فِيهَا عِنْدَهَا مُعَلَّقَةٌ بَيْنَ الْمَوَاعِيدِ وَالْمَطْلِ
بل انه قد يصطنع العفة تشبهاً بهم ويذكر انه لم ينل من حبيبته نائلاً ، وانه
يتأثر من سبقه من «العشاق مثل عروة بن حزام ، وعمرو بن عجلان ، وقيس بن
ذريح» - كما يقول شارح الديوان^(٢) :

وما نِلْتُ مِنْهَا نَائِلًا غَيْرَ أَنَّنِي بِشَجْوِ الْحَبِيبِ الْأَلَى سَلَفُوا قَبْلِي
واحياناً ينتحي نحو الحضريين فيقفوا اثر زعيمهم عمر ، ويصطنع اساليبه في
القص والحوار ، وذكر الكتب ، وتصوير شخصية المرأة ، ورسم ميولها واهوائها
وطرق تفكيرها . ففي القصيدة الخامسة والعشرين^(٣) يبدأ بذكر الكتب التي
يذكرني هذا بقول ذي الرمة :

عشة مالي حيلة غير انني بلقط الحصى والخط في الترب مولع
اخط واهو الخط ثم اعيدته بكفي والغربات في الدار وقع

(٢) انظر حاشية ص ٣٤ من شرح الديوان للدهان .

(٣) الواقع ان اثر عمر البارز فيه يتجاوز هذه القصيدة الى القصيدة الثالثة والعشرين ، والثانية
والثلاثين ، والتاسعة والعشرين . وتشبه القصيدة الاخيرة قصيدة عمر « لبيبة ذي دوران »
شبهاً كبيراً ، وان كانت تختلف عنها في اشتغالها على وصف الحمر وفي كونها اكثر منها جرأة .
ومن الجدير بالذكر ان عمر ذهب الى الكوفة (الاغاني ١/٦٧ ، «عمر ابن ابي ربيعة» ٨٦/٢) ،
وانه كان معروفاً فيها (الاغاني ١/١٤٢) وأثيراً (الاغاني ١/٣٦) حين كانت تنهال لتلقين
معلم عبقريته الشعرية .

كان يتبادلها مع الحبيبة فيقول :

كِتَابُ فَتَى أَخِي كَلَفَ طُرُوبٍ إِلَى خُودٍ مُنْعَمَةٍ لَعُوبٍ
صَبَوْتُ إِلَيْكَ مِنْ حُزْنٍ وَشَوْقٍ وَقَدْ يَصْبُو الْحُبُّ إِلَى الْحَبِيبِ ...
ثم ينتقل الى حديثها مع أترابها ، فيجعلها تستهل الحديث بذكر فتنتها
وجمالها : فهي شمس لا تغيب ، برأها الله من كل عيب ، وجعل فيها من السحر ما
لو كلمت معه انساناً مريضاً لما احتاج لطبيب يشفيه :

وقد قالتُ لِبَيْضِ آنِسَاتٍ يَصِدْنَ قُلُوبَ شَبَانٍ وَشَيْبٍ :
أَنَا الشَّمْسُ الْمُضِيئَةُ حِينَ تَبْدُو وَلَكِنْ لَسْتُ أَعْرِفُ بِالْمَغِيبِ
بِرَّانِي اللَّهُ رَبِّي إِذْ بَرَّانِي مُبَرَّاةً سَلِمْتُ مِنَ الْعُيُوبِ
فَلَوْ كَلَّمْتُ إِنْسَانًا مَرِيضًا لَمَا احتاجَ الْمَرِيضُ إِلَى الطَّبِيبِ

وتستمر في وصف خلقها وجسمها وجلدها وريقها في كثير من الدل الى ان يقطع
اترابها عليها الحديث بالتوسط لهذا الغريب الكئيب ، الهائم في حبها :

فَقُلْنَ لَهَا : صَدَقْتَ فَهَلْ عَطَفْتُمْ عَلَى رَجُلٍ يَهْمُ بِكُمْ كُتَيْبِ
غَرِيبٍ قَدْ أَتَاكَ فَأَطْلِقِيهِ فَإِنَّ الْأَجَرَ يُطَلَّبُ فِي الْغَرِيبِ
وَلَا تَلْبِثِ حَتَّى تَجِيبِينَ بِمَنْطِقِ الْمَرْأَةِ الْمَدْلَّةِ الَّتِي قَدْ تَتَخَذُ مِنْ أَتْفَةِ الْأُمُورِ سَبِيًّا
لِلْقَطِيعَةِ ، وَمَنْ تَهَافَتِ الرَّجُلَ سَبِيًّا لِلْهَجْرَانِ .

فَقَالَتْ : قَدْ بَدَتْ مِنْهُ هَنَاتٌ وَقَدْ تَبْدُو الْهَنَاتُ مِنَ الْمُرِيبِ
وَصَلَنَاهُ فَكَلَّمْنَا « بِسِحْرِ » كَذَلِكَ كُلُّ مَلَأَقٍ خُلُوبِ

وفي معظم الاحيان يتمثل مدرسة بشار في الغزل الحسي الماجن^(١) ، فلا
يرى في الحب غير دواعي اللذة ، ولا يرى في المرأة غير ما يشير الشهوة ، ولا
يعرف من الغزل غير الصور المادية الفاحشة . والواقع ان هذا اللون من غزل
مسلم هو الذي يسود الديوان وهو الذي تتمثل فيه حياته اللاهية ، ولذا فسنفرد
له بحثاً خاصاً .

غزله الماجن :

المرأة في نظر مسلم ألعوبة للهو ، لا يرى منها الا كونها مجموعة أعضاء ينبه
(١) ينتمي الى هذه المدرسة ابونواس وابو هفان والحسين الخليلع واضراهم . وقد لا يختلف
عنهم مسلم الا في كونه يكاد يقصر غزله على النساء دون الغلمان .

كل منها الحسن ويشير الشهوة ، فهي صدر وجيد وساق وأرداف . فإذا ما خلا بها ونهاه حبها عن الفتك - على حد قوله - لا يقف مكتوف اليدين ولا « يتبتل » ، بل يروح يجمشها : يمسك مكان المخلخل ويخليه ، وينازل الجيد ، ويعانق ، ويقبل :

نَهَانِي عَنْهَا حُبُّهَا إِنْ أَسْوَأَهَا بَلَسَ فَلَمْ أَقْتُلْكَ وَلَمْ أَتَبَتَّلْ
أَخَذْتُ لَطْرَفَ الْعَيْنِ مِنْهَا نَصِيْبَهُ وَأَخْلَيْتُ مِنْ كَفِّي مَكَانَ الْمُخْلَخَلِ
سَقَيْتِي بِعَيْنَيْهَا الْهَوَى وَسَقَيْتُهَا فِدْبٌ دَبِيبَ الرَّاحِ فِي كُلِّ مَفْصِلِ
وَإِنْ شِئْتُ إِنْ أَلْتَدَّ نَازِلْتُ جِيدَهَا فَعَانَقْتُ دُونَ الْجِيدِ نَظْمَ الْقَرَنْفَلِ
أَنَازَعُهَا سِرَّ الْحَدِيثِ وَتَارَةً رُضَابًا لَذِيذَ الطَّعْمِ عَذْبَ الْمُقْبَلِ
وإن لم ينهه هذا الحب أسفًا وفتكًا :

شَرِبْتُ وَنَادَمَنِي شَادِنُ صَغِيرٌ وَإِنِّي أَحَبُّ الصَّغَارَا
فَمَا زِلْتُ أَسْقِيهِ حَتَّى إِذَا كُنْتُ طَرَفَهُ نَشْوَةً وَاسْتَدَارَا
نَهَضْتُ إِلَيْهِ فَقَبَّلْتُهُ وَعَانَقْتُهُ وَحَلَلْتُ الْإِزَارَا
وَقَدْ زَادَنِي طَرِبًا نَحْوَهُ مُضَاجَعَةً الْيَاسْمِينِ الْعَرَارَا
أَتَانِي لَهَا شِعْرٌ ذِي قُدْرَةٍ عَلَى الشَّعْرِ قَدْ قَالَ فِيَّ اقْتِدَارَا
فَقُلْتُ لِرَضَى قَدْ رَضِينَا بِكُمْ وَإِنْ كُنْتُ لَسْتُ أُرِيدُ الْخِيَارَا

ويلاحظ ان هذا الغزل تنبعث منه رائحة الخمرة وتشيع فيه روح الحضارة ، فالحبشية فيه مثقفة تراسل بالشعر ، ويطيب مجالسها عبير الزهور . فهو غزل حضري اذن ولكنه يختلف عن غزل عمر في انه اكثر منه فحشاً وأشد مجوناً .

وأهم الصفات التي يرددها مسلم وهو يصف حبيباته هي : «خود» ، «خريدة» «منعمة» ، «لعوب» ، «نجلاء» ، «حوراء» ، «وسنانة» ، «ذات غنثة» ، «بيضاء اللون» ، «حمراء الوجه» ، «فاحمة الشعر» ، «رقيقة الجلد» ، «ناعمة» ، «فعمة مكن الحجل» ، «مثقلة الأرداف» ، «هضيمة الكشجين» . ويبدو من هذه الصفات التي تمثل المثل الأعلى للجمال عنده ، على ما يظهر ، ان مرتع هواه كان في الغالب بين الجواري وبين جيل جديد من الحسان يجمع بين بياض اللون وفحمة الشعر . كما تبدو من كثرة ترديده للصفتين الأخيرتين ، بالنسبة لباقي الصفات ، نظرته المادية الوضيعة للمرأة ، فهو يقول في موضع :

وأَعْقِدْ مِئْزَرِي عَقْدًا ضَعِيفًا على دِعْصٍ رُكَّامٍ مِنْ كَثِيبٍ^(١)
ويقول في موضع آخر :

إذا أَطَاعَتْ عَصَاهَا ثِقْلُ رَادِفِهَا كالدَّعْصِ يَفْرَعُهُ غُصْنٌ مِنَ الْبَانِ
ويقول في موضع ثالث :

وَمَمْكُورَةٌ رُودِ الشَّبَابِ كَأَنَّهَا قَضِيبٌ عَلَى دِعْصٍ مِنَ الرَّمْلِ أَهْيَلٍ^(٢)
ويقول في موضع رابع :

وَمُخْطَفِ الْحَصْرِ فِي أَرْدَافِهِ عَمَمٌ يَمِيسُ فِي خَامَةِ رَقَّتْ حَوَاشِيهَا^(٣)
ومن الواضح ان هذا المعنى قديم رده الشعراء القدامى وعكسوا فيه النظرية
الجاهلية في الجمال النسوي . غير انه يبدو انه لاقى هوى عند مسلم فكرره
وتفنن فيه .

ويسرف مسلم في اظهار اثر الحب في نفسه في غزله هذا ، فالحب يسلب
عقله وقلبه :

سَلَبَ الْهَوَى عَقْلِي وَقَلْبِي عَنَوَةً لَمْ يُبْقِ مِنِّي غَيْرَ جَسْمٍ شَاحِبٍ
وهو يوهنه ويشفه :

أَوْهَنْتَنِي حُبُّ مَنْ شَغَفْتُ بِهِ حَتَّى بَرَّانِي وَشَقَّنِي الْوَهْنُ
بل انه يهلكه ويميته :

هَذَا قَدْ هَلَكْتَ وَمُتُّ مِنْ أَلَمِ الْهَوَى قَوْمُوا فَعَزَّوْا مَعَشَرِي وَأَقَارِبِي

...

وَأَبَايَ مَنْ يَقُولُ لِي : أَبَايَ ، وَمَنْ فَوَّادِي لَدَيْهِ مُرْتَهَنُ
يَطْلُبُنِي حُبُّهُ لِيَقْتُلَنِي وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِحْنُ
اما الحبيب فأكثر ما يقف منه موقفاً سلبياً ، فهو صَادٌّ هَاجِرٌ في معظم
الاحيان :

(١) الدَّعْصِ : كَثِيبِ الرَّمْلِ الْمُجْتَمِعِ .

(٢) مَمْكُورَةٌ : ضَامِرَةُ الْبَطْنِ - رُودِ الشَّبَابِ : صَغِيرَةُ السِّنِّ نَاعِمَةُ الْخَلْقِ .

(٣) مُخْطَفِ الْحَصْرِ : رَقِيقُهُ - عَمَمٌ : امْتَلَأَ .

أَشْعَبَتْ قَلْبِي بِالْهُوَى وَصَدَعَتْهُ بِالْهَجْرِ مِنْكَ فَالَهُ مِنْ شَاعِبِ
سَأَمُوتُ مِنْ كَمَدٍ وَتَبْقَى حَاجَتِي فِيَا لَدَيْكَ وَمَا لَهَا مِنْ طَالِبِ
وَكذلك طيفه فانه كثيرأ ما يحانبه :

عَجَبًا لِطَيْفِ خِيَالِكَ الْمُتَجَانِبِ وَلِقَلْبِيكَ الْمُسْتَعْتَبِ الْمُتَغَاضِبِ^(١)
ولذا فان صاحبنا كثير البكاء كثير الشكوى :

أَبْكِي وَقَدْ ذَهَبَ الْفُؤَادُ وَإِنَّمَا أَبْكِي لِفَقْدِكَ لَا لِفَقْدِ الدَّاهِبِ

...

أَعْشَبَ خَدَّيْ مِنَ الْبُكَاءِ وَقَدْ أَوْرَقَ غُصْنُ الْهُوَى عَلَى كَبِيدِي
ولعمري ان حبأ كهذا يجمع فيه صاحبه بين شدة الوجد ، والحزن ، وتلف
النفس ، شديد الشبه بعشق المتصوفة . ويغلب على ظني ان صاحبه متأثر فيه
بالحركة الصوفية التي اخذت تتبلور في زمنه ، ومدفوع اليه - الى حد ما -
بلقبه الذي أسبغ عليه وهو في اوائل عنفوانه الشعري .

وكثير من المعاني التي يطرقها مسلم في غزله للتعبير عن هذا الحب طرقها من
سبقه ومن عاصره من شعراء الحواضر^(٢) ولاسيا ما يتعلق منها بالطيف
والعذال والرقباء .

اما العاطفة في هذا الغزل فهي فاترة في الغالب . ولعله لا غرابة في ذلك ،
فالعاطفة العنيفة الملتبهة لا تحيا الا في ظل الحرمان والجوع الجنسي ، ولا تفره
الا في حال الحب المخلص الصادق الذي يستأثر فيه بقلب الشاعر حبيب واحد ،
يتحكم به ، ويشير فيه كوامن الجوى ولواعج الوجد .

والقارىء لغزل مسلم يشعر بأنه يستعين على فتور العاطفة بالتوسع في وصفها .
واحسب ان محاولة كهذه كثيراً ما تستحث خيال الشاعر وتفتق امامه معانٍ
جديدة ، او على الاقل ، جوانب جديدة لمعانٍ قديمة .

ج - وصف الخمرة :

وصف الخمرة قبل عهد مسلم شعراء كثيرون ، منهم الاعشى وابو ذؤيب

(١) المستعتب : الساخط .

(٢) انظر العمدة ج ١ ص ١٥٠ .

الهذلي وامروء القيس من الجاهليين ، والاخلط والفرزدق والوليد بن يزيد من الامويين ، ومطيع بن اياس وعبدالله بن ربيع^(١) من المخضمين . ووصفها في عهده جماعة عكفوا على شربها ووقفوا عليها قسطاً كبيراً من حياتهم وتفكيرهم اهمهم بشار وحماة عجرد والحسين بن الضحاك وابونواس . وقد قدر لمسلم ان يتصل بطائفة من هذه الجماعة ويشترك في مجالسها ، يشاطرها الكؤوس ويسهم معها في وصف الحمرة وما يتصل بها . ولقد توسع في ذلك وأجاد بالنسبة لأسلافه ومعاصريه حتى غدا بعض الرواة يقرنونه بأبي نواس سيد هذا الباب في الشعر العربي^(٢) .

ولا ريب في ان بيئته ساعدته على ذلك فقد شاع في زمنه شرب الحمرة وكثرت حاناتها وانتشرت مجالسها . وكان لاقبال معظم الخلفاء على شربها اثر كبير في تهافت الناس عليها واقبال الشعراء على وصفها والتغني بمحاسنها . كما كان لشيوعها في اوساط الفرس - « وهم اهل عبث وغرام بالشراب »^(٣) - اثر كبير على شيوعها في اوساط العرب . زد على ذلك ان وجود فئتين من الناس ، احدهما غالبية والاخرى مغلوبة كان له اثر كبير في اقبال الناس عليها ، فالغالب يقبل عليها عادة ليضاعف سروره بما اكتسب ، والمغلوب يلجأ اليها ليهرب عن عالمه المرير ويتسلى بها عما فقد .

ومها يكن الامر ، فقد شرب مسلم الحمرة وأحبها حتى كاد يقبل بالجليد منها ثمناً لأهله ووطنه ، فقد قال :

لقد كِدْتُ مِنْ حُبِّ خمرِ البَلِيخِ أَنْ اجْعَلَ الشَّامَ أَهْلاً وداراً
وعلى ذلك فاننا نراه يخصصها بقسط من نتاجه العقلي اوردته الديوان إما على شكل قصائد ومقطوعات ضمنها الغزل في الغالب ، او على شكل مطالع لقصائد في المديح اشتملت على الغزل ايضاً .

ويتوسع مسلم في وصف الحمرة فيصف لونها ويقول :

(١) المكنى بأبي الهندي (انظر طبقات ابن المعتز ص ١٣٦ ، وتطور الخمريات في الشعر العربي ص ١٦٣) .

(٢) روى صاحب الاغانى عن محمد بن يزيد المبرّد انه قال : « كان مسلم شاعراً حسن النمط جيد القول في الشراب » وكثير من الرواة يقرنونه بأبي نواس في هذا المعنى . الدهان ص ٣٦٤ (عن مخطوطة دار الكتب المصرية للاغانى) .

(٣) تطور الخمريات في الشعر العربي ص ١٢٧ .

وسُلافةٍ صهباءٍ بِنْتِ سُلَافَةٍ صَفراءٍ لَمَّا تُعَصِّرُ التَّسْلِيلا

...

كُمَيْتٍ رَحِيقٍ إِذَا صُفِّقَتْ أَطَارَتْ عَلَى حَافَتَيْهَا الشَّرَارَا^(١)

...

صَفراءٍ مِنْ حَلَبِ الْكُرومِ كَسَوَتْهَا بِيضَاءٍ مِنْ صَوْبِ الْغُيُومِ الْبُجْجِسِ

ويذكر اختلاف هذا اللون باختلاف حالتها بين المزج وعدمه :

حمراءٍ إِنْ بَرَزَتْ صَفراءٍ إِنْ مُزِجَتْ كَأَنَّ فِيهَا شَرَارَ النَّارِ تَلْتَهِبُ

ويلاحظ انعكاس هذا اللون على يد المدير :

مُحَمَّرَةٌ كَفُ سَاقِيهَا بِحُمْرَتِهَا كَأَنَّمَا هُوَ بِالْفِرْصَادِ مُخْتَضِبُ

...

إِذَا مَسَّهَا السَّاقِي أَعَارَتْ بَنَاتَهُ جَلَابِيبَ كَالْجَادِي مِنْ لَوْنِهَا صَفراءُ^(٢)

ويصف رائحتها كذلك فيقول :

كَأَنَّمَا ضُمِّنَتْ مِسْكَاً يَفُوحُ بِهِ أَوْ عَتَبَرَ الْهِنْدِ أَوْ طِيباً مِنَ السَّخَبِ^(٣)

ويتحدث عن مزجها بالماء ويصف حالتها بعد المزج فيقول :

كَأَنَّ حَبَابَ الْمَاءِ حِينَ يَشْجُهَا لَأَلَى عِقْدٍ فِي دِمَالِيجٍ أَوْ حِجْلِ^(٤)

...

كَأَنَّهَا وَسِنَانُ الْمَاءِ يَقْتُلُهَا عَقِيقَةٌ ضَحَكَتْ فِي عَارِضٍ بَرْدِ

...

لَطْفَ الْمِزَاجِ لَهَا فَزَيْنَ كَاسِهَا بِقِلَادَةٍ جُعِلَتْ لَهَا إِكْلِيلًا

ويشوقه ان يخلق صورة فنية رائعة لعملية المزج هذه فيصف ما ينجم عنها من حباب ابيض كأنه جني النرجس ، ومن تغير في اللون يقرنها من السهولة . ويلمح بأثرها على شاربها قبل القتل وبعده في بدعة لطيفة طريفة يستعير لأثر

(١) صفق الشراب : حوله مزوجاً من اثناء لآخر ليصفو .

(٢) الجادي : الزعفران .

(٣) السخب : حب القرنفل .

(٤) دماليج : اساور تحبس في الاعضاء .

المرج فيها بَسْمَة تكشف عن اللون الحادث وتم عن قلة الحدة وذهاب الجهل :
 'مَزَجَتْ' ولاوذاها الجبابُ فحَاكَهَا فكَأَنَّ حَلِيَّتَهَا جَنِيُّ السَّرْجِسِ
 وكَأَنَّهَا والماء يطلبُ حَلَمَهَا لَهَبٌ تَلَاطِمُهُ الصَّبَا فِي مَقْبَسٍ (١)
 جَهَلَتْ فدارى جهلها فتَبَسَّمَتْ عن مُشْرَبٍ لَوْنِ الشُّهُلَةِ أَعْيَسٍ (٢)
 ويصف كذلك اصلها وصنعها وتعتيقها فيقول :

وَلَدَيْهِمْ كَرَّخِيَّةٌ شَمْسِيَّةٌ قَدْ خُلِّيتْ فِي دَنِّهَا أَحْوالاً

...

لم تُؤْطَ فِي حَوْضٍ وَلَكِنْ خُلِّيتْ حَتَّى جَرَى مِنْهَا السَّلَافُ فَسَلا

...

فَقَامَ يَسْعَى إِلَى دَنْ فَسَلَّلَهَا حِمَاءٌ بِكَرَأِهَا عَشْرٌ مِنَ الْحَقَبِ

...

لَمْ يَغْدُهَا بِمَصِيفِ الْقَيْظِ بَائِعُهَا وَلَا غَذَاها بِحَرِّ الشَّمْسِ وَاللَّهَبِ

...

مُعْتَقَّةٌ لَا كَشْتَكِي وَطَاءٌ عَاصِرٌ حَرَّوْرِيَّةٌ فِي جَوْفِهَا دُمُهَا يَغْلِي (٣)

ولا يضمن على دَنِّها بوصفه فيقول :

أَنَاخَ عَلَيْهَا أَغْبِرُ اللَّوْنِ أَجُوفٌ فَصَارَتْ لَهُ قَلْبًا وَصَارَ لَهَا صَدْرًا

...

شَقَقْنَا لَهَا فِي الدَّنِّ عَيْنًا فَأَسْبَلَتْ كَمَا أَسْبَلَتْ عَيْنُ الْخَرِيدِ بَلَا كُحْلٍ (٤)

وقد يعاملها معاملة الكائن الحي ، فهي عنده فتاة مخدرة بكر ، لها نسب ،

ولها خطاب يطلبونها من أهلها فيغلون فيها المهر لأنها عزيزة عليهم اثيرة فيهم .

يقول :

وَبِنْتُ بَجُوسِيٍّ أَبُوهَا حَلِيلُهَا إِذَا نُسِبَتْ لَمْ تَعْدُ نُسْبَتُهَا «النَّهْرَا»

...

(١) الصَّبَا : الريح الشرقية - المقبس : الموقد .

(٢) تَبَسَّمَتْ : أي اظهرت لونها كالضاحك الذي يدل بتبسمه على سرورة - الاعيس : ما كان لونه بين البياض والحمر .

(٣) حرورية : منسوبة الى حَرَّوْرَاءَ وهي موضع بظاهر الكوفة .

(٤) امرأة خريد او خريدة : محشمة حية .

مَحْجُوبَةٌ مِّنْ عُيُونِ النَّاسِ لَيْسَ لَهَا فِي غَيْرِ بَيْتِ بَنِي سَاسَانَ مِّنْ نَّسَبٍ

...

حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ وَحَانَ خِطَابُهَا سَاوَمْتُ صَاحِبَهَا الْبَيْاعَ فَغَالَتِي

...

بَعَثْنَا لَهَا مِنَّا خَطِيْبًا لِّبَضْعِهَا فَجَاءَ بِهَا يَمْشِي الْعِرْضُنَّةَ فِي مَهْلٍ (١)
رَقَى رَهْبًا حَتَّى احْتَوَاهَا مُغَالِيًا عَقِيلَتُهُ دُونَ الْاِقَارِبِ وَالْأَهْلِ

ثم انه يصف مجالسها باسهاب فيذكر الكؤوس والساقى او الساقية والندماء
وآلات الطرب . ويقول في وصف احد هذه المجالس :

وَسَادَةٌ سُرَاةٍ مَا فِيهِمْ مَسُودٌ

...

يُسْقَوْنَ صَفْوَ رَاحٍ لَذِيذُهَا مَوْجُودٌ

...

وَعِنْدَنَا غَزَالٌ بِطَرْفِهِ يَصِيدُ

...

فَلَمْ يَزَلْ يَسْقِينَا وَعِشْنَا رَغِيْدٌ

...

فِي مَجْلَسٍ نَضِيرٍ يَزِينُهُ الشُّهُودُ

غَطَارِفُ كِرَامٍ بِيضُ الْوُجُوهِ صِيدُ

مِنْ فَوْقِهِمْ أَطْيَارُ صِيَاحُهَا تَغْرِيدُ

وَتَحْتَهُمْ جَنَانُ نَبَاتُهَا تَنْضِيدُ

أَكْوَاسُهُمْ مِلَاءٌ طَافِحَةٌ رُكُودُ

قَدْ قُلِدَتْ بِأَسٍ قَرَائِنُهَا التَّقْلِيدُ

مِثْلُ بَنَاتِ مَاءٍ أَفْزَعَهَا الرُّعُودُ

فَمَرَّةٌ رُكُوعٌ وَمَرَّةٌ سُجُودُ

وَعِنْدَهُمْ دِفَافٌ وَزَامِرٌ وَعُودُ

خَاضُوا بِبَحْرِ قَصْفٍ تَجْرِي لَهُ مُدُودُ (٢)

(١) العرضنة : مشي في انحراف من التيه .

(٢) القصف : اللهو ورجة الأوتار .

حَقِّ انْتَشَوْا وَقَامُوا مَجْلِسُهُمْ مَحْمُودُ
مَنْ قَالَ مِثْلَ هَذَا فَانَّهُ سَعِيدُ
هَذَا الْخُلُودُ عِنْدِي لَوْ دَامَ لِي الْخُلُودُ

وندماء مسلم هنا « سادة سراة » يطوف عليهم بلذيد الراح ساق كالغزال ، يصيدهم بطرفه ويسكرهم براحة . وهم ينتشون بكؤوس ملاء طافحة قلدها رسوم الآس ، فوقهم طيور مغردة ، وتحتهم جنان نضيدة ، وبينهم معازف وقصف ... ولعمري انها صورة حضرية لاهية ينتزعها مسلم من بيئته . غير ان هذه البيئة - كما يبدو - لم تشأ الا ان تتمثل بوجهها الآخر لتكون الصورة كاملة معبرة عن وجهي بغداد والكوفة في عهد مسلم ، فكان هذا الجانب الذي فيه ذكر الركوع والسجود المنتزع من حياة المدينتين الدينية آنذاك .

ولا يرض علينا مسلم بذكر أثر الحمرة في الجسم والنفس كما يراه او كما يراه خلانه . اما في الجسم فهي تختلط بدم الشارب لتنبعث نارا متأججة في وجهه :
خَلَطْنَا دَمًا مِنْ كَرَمَةٍ بِدِمَائِنَا فَأَظْهَرَ فِي الْأَلْوَانِ مِنَّا الدَّمَ الدَّمَ
...

فَأَغْضَتْهُ وَلِلْأَكْوَاسِ فِي وَجْهِ رَبِّهَا لَهَيْبٌ كَلَوْنِ الْوَرْدِ أَوْ هُوَ أَضْرَمُ
وهي تشيع في جسده لتعقل رجله وتقيدته :
أَنْهَضْتُهُ مِنْ بَعْدِ مَا أَسْكَرْتُهُ فَشَى كَأَنَّ بَرَجْلِهِ عُقَالًا
...

إِذَا مَا عَلَتْ مِنْهَا ذُوَابَةُ شَارِبٍ تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ الْمُقَيَّدِ بِالْوَحْلِ
واما في النفس فهي تقتل وتميت ، وقتلها عنده غيبوبة محبة او نوم لطيف يحضر إليه طيف الحبيبة فيجلب الى قلبه السرور والغبطة :
أَمَاتَتْ نَفُوسًا مِنْ حَيَاةٍ قَرِيبَةٍ وَفَاتَتْ فَلَمْ تُطْلَبْ بِتَبَلٍ وَلَا ذَحْلٍ
...

إِلَى أَنْ دَعَا لِلشُّكْرِ دَاعٍ فَمُوتُوا وَكَانَ مُدِيرُ الْكَأْسِ أَحْسَنَهُمْ سُكْرًا
...

وَيَقْطُيْ يَبَيْتُ الْقَوْمُ فِيهَا بِسَكْرَةٍ بِصَهَاءٍ صَرَاعَهَا مِنَ الشُّكْرِ نُومٌ

...

حتى إذا الرِّاحُ قامتُ عنه فترتها ربيع الكرى وأقامت حسرة الخلد
وهي أيضاً تستخرج سر الضمير وتشيع في النفس الخيلاء حتى ليخيل إلى
شاربها أنه ملك :

بعثت إلى سر الضمير فجاءها سلساً على هذر اللسان مقولاً

...

إذا ما تحسَّأها الحليم أخو النهي أسرَّ بها كبراً وأبدى بها كبراً

...

وما نَحَى شُرَّاءُهَا المُلُكَ قَهْوَةً بجوسية الأنساب مُسَلِّمَةَ البَعْلِ
وهي فوق ذلك تزيل الغم وتقتل هموم النفس وتشيع السرور وتبعث على
الكرم :

تصدُّ بنفْسِ المرءِ عمَّا يَغْمُهُ وتُنطِقُ بالمعروفِ السَّنةَ البُخْلِ

...

وَصَرَفِ رُصَافِيَّةٍ قَهْوَةٍ تُمِيتُ الهُمومَ وتُبْدي السَّرارَ

...

رَكِبُوا المُدَامَ فَأَدْبَرَتْ رِيحُهُمْ عَلَى سُبُلِ السُّرُورِ وَأَقْبَلَتْ إِقْبَالاً
وهكذا يستمر مسلم في التحدث عن الحمرة وما يتصل بها، من نعوت وأوانٍ
ومجالس وأثر، بمعانٍ كثيراً ما تتكرر عنده . ويلاحظ على خمرياته ظاهرات
بارزتان :

الاولى : ان جلها يقترن بالغزل .

والثانية : ان الكثير من معانيها وارد عند غيره من الشعراء ، ممن سبقوه
او عاصروه .

اما الظاهرة الاولى فشبيهة بما نجده في شعر الوليد بن يزيد^(١)، وابي الهندي^(٢)،

(١) انظر ديوانه نشر المستشرق الايطالي ف. جبريالي .

(٢) انظر طبقات ابن المعتز ص ١٣٦ - ١٤٣ .

وبعض شعر أبي نواس^(١) . وتعليقها ان لذافة صاحبنا الكبرى كانت في اجتماع النساء والخمرة ، بل ان شعاره في الحياة كان الجمع بينهما . فهو يقول كما نعلم :
هَلْ الْعَيْشُ إِلَّا أَنْ تَرُوحَ مَعَ الصَّبَا وَتَعْدُو صَرِيحَ الْكَأْسِ وَالْأَعْيُنِ النَّجْلِ^(٢)
وعلى الرغم من ان حداثي هذا الشاعر كانا عزيزين على مسلم ، فانه يبدو انها لم يكونا متكافئين في نظره . ولعله كان يرى في الخمرة لذة مسعفة للذة اعظم هي لذة الاجتماع بالنساء :

فكنتُ نديمَ الكأسِ حتى إذا انقضتْ تَعَوَّضْتُ عَنْهَا رِيْقَ حَوْرَاءَ عَيْطَلٍ^(٣)
بل لعله كان لا يضيره ان يترك الخمرة لندمائه ويدعي الكف عن شربها ان استطاع التعويض عنها بغادة حسناء ينهل من « خمر طرفها » ويعب من رحيق ريقها :

خُذَاهَا فَأَمَّا أَنْتَ فَاشْرَبْ وَهَاتِيهَا لِأَسْقِيَهَا هَذَا مُعْتَقَةً بِكَرَا
وَهَاتِ اسْقِيْنِي مِنْ طَرَفِهَا خَمْرَ طَرَفِهَا فَإِنِّي أَمْرُؤٌ آلَيْتُ لَا أَشْرَبُ الْخَمْرَا

واما الظاهرة الثانية فربما كان من اسبابها ان موضوع الخمر هو موضوع محدود من السهل استنفاد معانيه ، ولذا كان مجال النقل والتقليد ، ومن ثم التشابه ، فيه واسعاً بين الشعراء . وحتى ابو نواس ، اكثر شعراء الخمر تفنناً وابتكاراً ، لا يخلو شعره من اثر التقليد والنقل في هذا الباب . ويبدو انه اخذ الكثير من معانيه فيه عن ابي الهندي^(٤) ، والحسين بن الضحَّاك^(٥) ، والوليد بن

(١) انظر خرياته في ديوانه . ويلاحظ ان اكثر الغزل الذي يضمه بعضها هو غزل بالذكر .

(٢) يذكرني هذا بشعار ابي الهندي الذي يقول :

انما العيش فتاة بغادة وقعودي عاكفاً في بيت حان
أشرب الخمر واعصى من نهى عن طُلابِ الراح والبيض الحسان
(طبقات ابن المعتز ص ١٣٨) .

(٣) عيطل : خالية من الحلي .

(٤) ذكر ابن المعتز انه « كان جماعة مثل ابي نواس والحليع وابي هفَّان وطبقتهم انما اقتدروا على وصف الخمر بما رأوا من شعر ابي الهندي ، وبما استنبطوا من معاني شعره » . طبقات الشعراء ص ١٤٢ . وانظر ايضاً الاغاني ج ٢١ ص ١٧٧-١٧٨ .

(٥) قال الاصبهاني في سيرة الحسين بن الضحَّاك : « وكان ابو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها . واذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبته الناس الى ابي نواس . وله معاني في صفتها ابداع فيها وسبق اليها فاستعارها ابو نواس » . (الاغاني ج ٦ ص ١٧٠) .

يزيد (١) - ان صحت الروايات .

ولعلنا لا نستطيع تبرئة مسلم في هذا المضمار، وذلك لامرين: الاول: التشابه الذي نراه بين معانيه ومعاني من سبقه من الشعراء ، بصورة خاصة .

والثاني : عدم التألف الذي نلاحظه بين بعض معانيه ذاتها .

اما الامر الاول فان شدته واتساع مداه لا يدعان مجالاً للافتراض بأنه قد يكون وليد الصدفة . ويخيل اليّ انني لا استطيع ان انقل صورة قريبة من الحقيقة لهذا التشابه دون ان اضع بين يدي القارئ جميع خمریات شاعرنا من جهة ، وجميع خمریات الأعشى وأبي ذؤيب الهذلي والاخلط والوليد بن يزيد وأبي الهندي والحسين بن الضحّاك وغيرهم ، من جهة اخرى . ومع ذلك فلا يسعني الا ان انقل بعض الامثلة فلعل ذلك يساعد على اظهار جانب من هذه الصورة ، مها كان ضئيلاً :

(١) قال الاعشى يصف أثر الخمرة (٢) :

من قهوةٍ صينتُ ببابلٍ حِقْبَةً تَدَعُ الفقى مَلِكاً أَغْرَ مُتَوَجِّلاً
وقال المنخّل الشكري :

واذا شربتُ فأنني ربُّ الشوْبةِ والبعيرِ

ثم قال مسلم :

وما نَحَتْ شُرَّاءُهَا المُلْكَ قهوةٍ مجوسيةٍ الانسابِ مُسْلِمَةِ البَعْلِ

(٢) قال ابو ذؤيب الهذلي يشبه لونها بالدم (٣) :

إذا فُضَّتْ خَوَاتِمُهَا وفُكَّتْ يُقالُ لها دمُ الودجِ الذبيحِ

وقال مسلم :

كَأَنَّ فَنِيْقاً بازِلاً شُكَّ نَحْرُهُ إذا ما اسْتَدْرَتْ كالشُعاعِ على البَزَلِ (٤)

(١) وقال ايضاً في صدد حديثه عن الوليد بن يزيد : « وللوليد في ذكر الخمر وصفتها اشعار كثيرة قد اخذها الشعراء فأدخلوها في اشعارهم ، سلخوا معانيها وابووناس خاصة فانه سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره فكررهما في عدة مواضع منه ، ولولا كراهة التطويل لذكرتها هنا على انها تنبئ عن نفسها » (الاغاني ج ٦ ص ١١٠) .

(٢) تطور الخمریات في الشعر العربي ص ٦١ .

(٣) نفسه ص ٤٤ .

(٤) الفنيق : الجمل الاحمر - البازل : الذي بزل نابه اي شق اللثة - والبزل : شق الدن .

(٣) وقال الاخطل يشبهها بالنار (١) :

قَصَبُوا عُقَاراً فِي الْإِنَاءِ كَأَنَّهَا - إِذَا لَمَحَوْهَا - 'جَذْوَةٌ' تَتَأْكَلُ
وقال مسلم :

وَكَأَنَّهَا وَالْمَاءُ يَطْلُبُ حِلْمَهَا لَهَبٌ تَلَاظِمُهُ الصَّبَا فِي مَقْبَسٍ
(٤) وقال ابوالهندي يصف الابريق (٢) :

'مَقْدَمَةٌ' قَزَاءً كَأَنَّ رِقَابَهَا رِقَابُ بَنَاتِ الْمَاءِ أَفْزَعَهَا الرَّعْدُ
وقال مسلم يصف الكؤوس :

قَدْ قُلِدَّتْ بِأَسْفَلِهَا التَّقْلِيدُ
مِثْلُ بَنَاتِ مَاءٍ أَفْزَعَهَا الرُّعُودُ

ويضيق بنا المجال عن ايراد شواهد اكثر ، غير انه تجدر الملاحظة ان مسلماً هنا يضيف على ما يتناول من معانٍ قديمة طريقته الخاصة من نقل المعنى من حالة لأخرى او التوسع في الصورة والميل بها نحو التمثيل والابداع .

أما الامر الثاني الذي يتعلق بعدم التآلف بين بعض معانيه فيجعلنا نرجح استقاء بعض المتنافر منها ، على الاقل ، من مصادر مختلفة . وكمثل على ذلك اورد البيتين التاليين اللذين قالهما مسلم في معرض ذكره للخمرة التي يفضلها :

١. تَنْشُمِي إِلَى الشَّمْسِ فِي إِغْدَائِهَا وَلَهَا مِنْ الرِّضَاعَةِ فِي حَرِّ الْهَجِيرِ أَبُ
٢. لَمْ يَغْدُهَا بِمَصِيفِ الْقَيْظِ بِائِعُهَا وَلَا غَدَاها بِحَرِّ الشَّمْسِ وَاللَّهَبِ

ومن الواضح اننا لا نستطيع التوفيق بسهولة بين تفضيله للخمرة التي اختمرت في الشمس في الحالة الاولى ، وللخمرة التي لم تحتمر فيها في الحالة الثانية ، الا على اساس افتراض اخذه احد المعنيين عن شاعر آخر ، او كليهما عن شاعرين مختلفين .

على ان التشابه بين مسلم وغيره من الشعراء في موضوع الخمرة لا يقتصر على من سبقه منهم - كما علمنا - بل يتعدى ذلك الى بعض شعراء عصره ، ولا سيما ابي نواس .

(١) تطور المحريات في الشعر العربي ص ١٥٩ .

(٢) طبقات ابن المعتز ص ١٤٠ .

وتشابه التراث الحمري الذي يغلب ان يكونا قد نهلا منه ^(١) ، وتماثل الظروف التي عاشا فيها ، واتصالها ببعضها في كثير من مجالس الحمرة ، كل ذلك يفسر ما نلاحظه من تشابه في معانيها الحمزية ومعجمها الحمري . وكشاهد على هذا التشابه دعني اورد الامثلة التالية التي يمكن ان تعطي فكرة عنه ، وان كانت ، لقلتها ، لا يمكن ان تبين وجوهه المختلفة ومداها :

يقول ابو نواس ^(٢) :

تسقيك من عينها خمرأ ومن يديها خمرأ فما لك من سكرين من بُد
ويقول مسلم :

وهات اسقني من طرفها خمر طرفها فإني امرؤ آليت لا أشرب الخمر
ويقول ابو نواس ^(٣) :

من اللواتي خطبناها على عجل لما عجبنا بربات الحوانيت
ويقول مسلم :

بعثنا لها منّا خطيباً لبضعها فجاء بها يمشي العريضة في مهل
ويقول ابونواس ^(٤) :

كريمة أصغر آبائها إن نسبت كسرى وسابور

ويقول مسلم :

محبوبة من عيون الناس ليس لها في غير بيت بني ساسان من نسب
ورغم ما نراه من تشابه بين الشاعرين في هذا المضمار فان هناك فروقا اساسية بينها فيه في الواقع . فمسلم لم يصل الى الحد الذي وصل اليه ابونواس من عشق الحمرة وتقمص روحها - ان صح لنا هذا التعبير . ولئن كان العيش عند مسلم هو بالجمع بين النساء والحمرة ، فهو عند رفيقه انما يكون بالخمير وحده :

(١) يقول البهيتي ان مسلماً وأبا نواس « يأخذان عن الوليد بن يزيد مذهبه في وصف الخمر اخذاً يبلغ حد الاغارة » (تاريخ الشعر العربي ص ٣٧٥) . ومن المعلوم ان اهم ظاهرة في مذهب الوليد هي الجمع بين وصف الحمرة والغزل .

(٢) ديوان ابى نواس (الغزالي) ص ٢٧ .

(٣) نفسه ص ٣٨ .

(٤) نفسه ص ١٤ .

فما الطيشُ إلا أن تَرَانِيَ صَاحِبِيَا وما العيشُ إلا أن أَلَدُ فأسكرا^(١)
واذا كانت فتاة مسلم «المخدرة» «البكر» يجري بها «بعلمها» في عالم الحس ، فان
فتاة ابي نواس «المخدرة» «البكر» ايضاً قد «انتقل بها صاحبها من والحسية، الى
والمعنوية، فجعلها وفكرة، شائعة تحس بها الروح ولا تدرك لها كنهاً ... واخذ
شعوره بها يقترب من شعور المتصوفين بالآلهة ، فلها آلاء واسماء حسنى ولها
صفات تجل عن الشبه والمثل^(٢) .

وبينا نرى ان اكثر خمريات ابي نواس يسودها الغلمان وترسم فيها حياة
الفجور والفحش ، نرى معظم خمريات مسلم يسودها التغزل بالنساء وتجري في
وسط اقل فحشاً ، في الجملة .

ولئن كان عنصر القصص يجتمع بعنصر الوصف في كثير من خمريات ابي نواس
فان خمريات مسلم بأسرها تكاد تقتصر على الوصف دون غيره .

وقصائد مسلم في الحمر — باستثناء قصيدتين نوهنا بهما قبلاً — اكثر تقييداً ،
في جملتها ، من قصائد ابي نواس واجرى منها في باب الصنعة والبديع .

ومسلم لا يتخذ من خمرياته سوى معرض للهوى وحسب بينما يتخذ منها زميله ،
عدا ذلك ، معرضاً لآرائه الادبية والاجتماعية والسياسية : ففيها يدعو لاستبدال
المطالع التي تقوم على بكاء الديار والتحدث عن الاطلاع بذكر الخمرة ومجالسها ،
وفيها يعيب حياة الاعراب الجديبة ، وفيها يعتز بقومه الفرس .

ولئن كان مسلم ، في النهاية ، يطلع وراء زميله في هذا الباب ، فانه في الواقع
يسير في الطليعة فيه بالنسبة لشعراء العربية الآخرين .



(١) ديوان ابي نواس (الغزالي) ص ١٠١ .

(٢) مقدمة ديوان ابي نواس (الغزالي) ص (ص)

خاتمة

عرضنا في هذه الرسالة لسيرة مسلم وشعره ، وأبنا ان ابرز ما في الرجل هو اتخاذه البديع مذهباً وتحويله إياه الى مدرسة . والسؤال الذي يتبادر الى الذهن الآن هو عن الاثر الذي خلفه وراءه في الشعر العباسي والدور الحقيقي الذي قام به في امتداد مدرسته الى ما بعده .

يذكر الرواة ابياتاً من الشعر لبعض الشعراء العباسيين يدعون بانهم اخذوا معانيها عن ابيات لمسلم^(١) . وان صح هذا فلا قيمة له ولا خطر في حركة الشعر العامة . ويذكرون كذلك ان ابا تمام - زعيم مدرسة البديع - كان شديد الولع بشعر مسلم^(٢) ، كما يذكرون انه تأثر به في بديعه^(٣) . وقد يكون غرضهم من هذا الغرض من قيمة ابي تمام احياناً ، او الاشادة بفضل مسلم في امتداد هذا المذهب احياناً اخرى . غير ان الامر ، في الواقع ، اعظم من هذا ، فسواء وجد مسلم ام لم يوجد كان لا بد لهذا المذهب من ان يستمر باستمرار الاسباب التي أدت الى ظهوره ، فهو مظهر ادبي لظاهرة اجتماعية حضارية . وكل ما قام به مسلم في هذا الصدد هو انه جرأ الناس عليه بالاكثار منه ، ومن ثم ساعد على انتشاره والاسراع في عملية تبلوره عند ابي تمام .

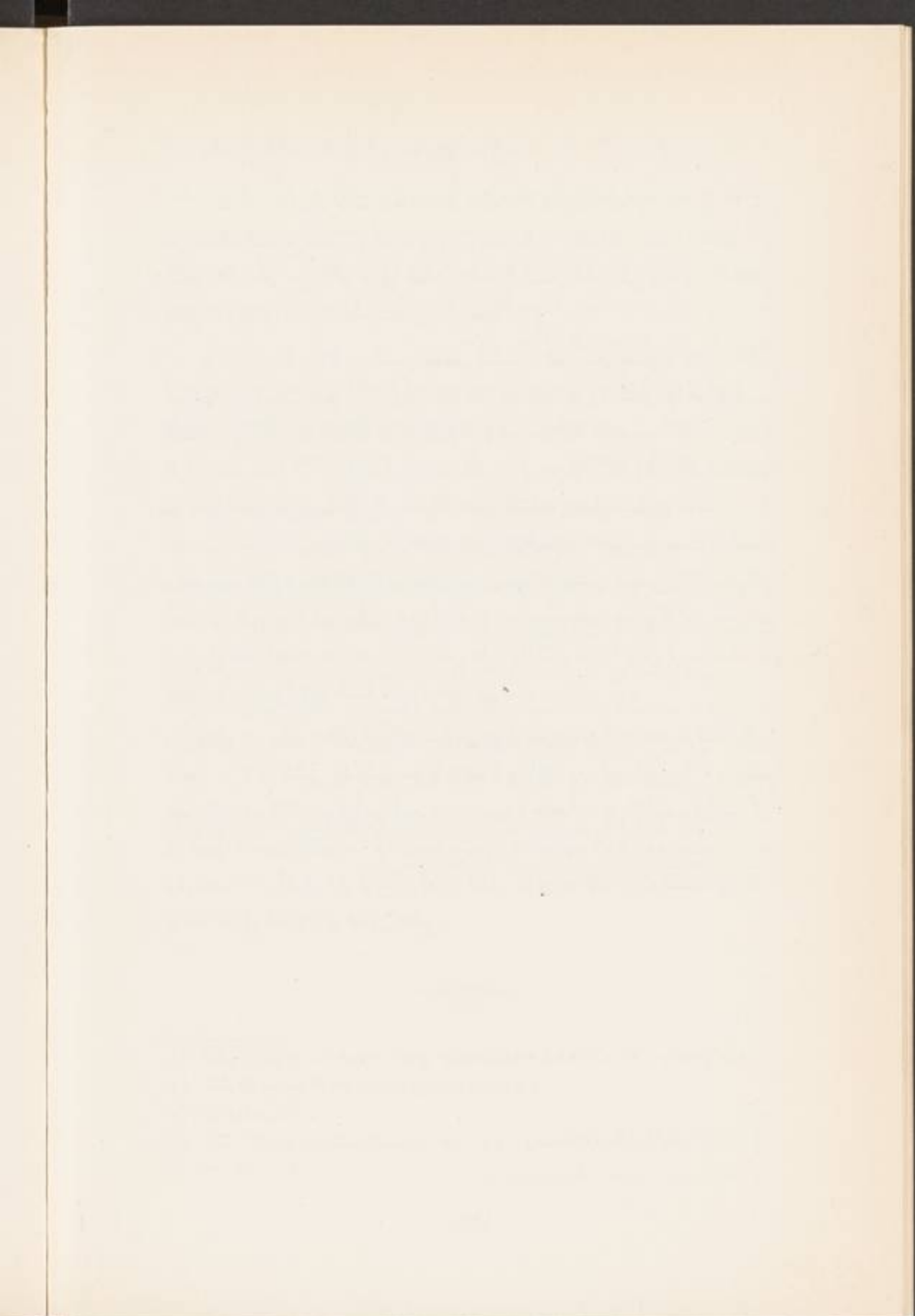
وعلى اي حال ، فلتن لم يكن لمسلم من فضل سوى انه كان احد اولئك الذين قاموا بحركة في الشعر نشطت حركة النقد ، ومالت به نحو المنهجية ، وحثت علماء القرنين الثالث والرابع الهجريين - بصورة خاصة - على التأليف في الشرق ، والخصومة حول الشعراء ، والموازنة بينهم ، وطبقاتهم ، وفي معايير الشعر وقواعده^(٤) . أقول ، لو لم يكن له من فضل سوى انه كان من اولئك الذين اغنوا تراثنا الادبي ، لكان له فضل عظيم .

(١) انظر الاغاني ج ١٨ ص ٣٢ ، ودي خويه ص ٢٩٨ و ٢٩٩ و ٣٠٠ ، والدهان ص ٤٤٣ .

(٢) مخطوطة ميونيخ للاغاني (عن دي خويه ص ٢٤٧) .

(٣) الموازنة ص ١٧ .

(٤) انظر كتاب قواعد الشعر لثعلب ص ١٣ - ١٨ ، ومقدمة محمد عزام لديوان ابي تمام ج ١ ص ١٧ - ٢٠ .



كشف المصادر والمراجع

(أ) العربية :

المصادر والمراجع الأولية :

- ١ () الأمدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر - الموازنة بين الطائيفين (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) ، مطبعة السعادة . القاهرة (١٩٥٤ م) .
- ٢ () ابن أبي أصيبعة ، أبو العباس أحمد - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، المطبعة الوهبية . القاهرة (١٨٨٢ م) .
- ٣ () ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن محمد :
(أ) اسد الغابة في معرفة الصحابة - جمعية المعارف .
القاهرة (١٢٨٠ هـ) .
(ب) الكامل في التاريخ - إدارة الطباعة المنيرية . القاهرة
(١٣٤٨ - ٥٧ هـ) .
(ج) اللباب في تهذيب الأنساب - مكتبة القدسي . القاهرة
(١٣٥٧ هـ) .
- ٤ () ابن الأحنف ، العباس - ديوان العباس بن الأحنف ، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي . مصر (بدون تاريخ)
- ٥ () ابن برد ، بشار - ديوان بشار بن برد (نشر محمد الطاهر بن عاشور)
لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٥٠ م) .
- ٦ () ابن تغري بردي ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف - النجوم الزاهرة ، دار
الكتب المصرية . القاهرة (١٩٣٠ م) .
- ٧ () ابن جعفر ، أبو الفرج قدامة : (أ) نقد الشعر - مكتبة الخانجي . مصر
(١٩٤٩ م)
(ب) نقد النثر - لجنة التأليف والترجمة
والنشر (١٩٣٧ م) .
- ٨ () ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي - نقد العلم والعلماء أو تلبيس
ابليس . مطبعة السعادة . مصر (١٩٢٨ م) .

- ٩ (ابن حجة ، تقي الدين ابو بكر ابن علي المحوي - خزائن الادب وغاية الارب ، مصر (١٢٩١ هـ) .
- ١٠ (ابن حزم ، ابو محمد علي بن سعيد الاندلسي - جهرة انساب العرب ، ادارة المعارف . مصر (١٩٤٨ م) .
- ١١ (ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن ابراهيم - وفيات الاعيان (تحقيق محمد محي الدين) ، مكتبة النهضة المصرية . القاهرة (١٩٤٨ م) .
- ١٢ (ابن رشيق ، ابو علي الحسن بن علي القيرواني - العمدة في صناعة الشعر ونقده ، مطبعة امين هندية . مصر (١٩٢٥ م) .
- ١٣ (ابن سعد ، ابو عبدالله محمد بن منيع - كتاب الطبقات الكبير (تحقيق ادوارد سخو) ، لندن ، بريل (١٣٢١-١٣٣٨ هـ) .
- ١٤ (ابن طباطبا ، محمد بن احمد : (ا) عيار الشعر ، شركة فن الطباعة . مصر (١٩٥٦ م) .
(ب) الفخري في الآداب السلطانية - المطبعة الرحمانية . مصر (١٣٣٩ هـ)
- ١٥ (ابن عبد ربه ، ابو عمر احمد بن محمد - العقد الفريد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة (١٩٤٠ - ٥٣ م) .
- ١٦ (ابن قتيبة ، ابو محمد عبدالله بن مسلم - الشعر والشعراء (تحقيق احمد محمد شاكر) . دار احياء الكتب العربية . القاهرة (١٣٦٤ - ١٣٦٦ هـ) .
- ١٧ (ابن المعتز ، ابو العباس عبدالله : (ا) طبقات الشعراء (تحقيق عبدالستار فراج) دار المعارف . القاهرة (١٩٥٦ م) .
(ب) كتاب البديع (تحقيق كراتشكوفسكي) لوزاك . لندن (١٩٣٥ م)
- ١٨ (ابن منظور ، ابو الفضل محمد بن مكرم - لسان العرب ، دار صادر . بيروت (١٩٥٥ - ٥٦ م) .

- (١٩) ابن النديم، ابو الفرج محمد بن اسحق - الفهرست (تحقيق غوستاف فلوغل)
ليبزغ (١٨٧١-١٨٧٢ م) .
- (٢٠) أبو تمام، حبيب بن أوس : (١) ديوان أبي تمام (شرح أبي زكريا يحيى
ابن علي التبريزي، ونشر محمد عبده
عزّام) - دار المعارف. مصر (١٩٥١ م)
(ب) ديوان الحماسة (شرح أبي علي أحمد بن
محمد المرزوقي) - لجنة التأليف والترجمة
والنشر . القاهرة (١٩٥١ م)
- (٢١) ابو العتاهية، ابو اسحق اسماعيل - الانوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية،
مطبعة الآباء اليسوعيين . بيروت (١٨٨٦ م) .
- (٢٢) ابو نواس، الحسن بن هانئ (أ) ديوان أبي نواس (نشر اسكندر
آصاف) ، القاهرة (١٨٩٨ م) .
(ب) ديوان أبي نواس (نشر احمد عبد المجيد
الغزالي) ، مطبعة مصر . مصر
(١٩٥٣ م) .
- (٢٣) الاصمهاني، ابو الفرج علي بن الحسين - الاغانى، بولاق. القاهرة (١٢٨٥ هـ)،
دار الكتب . القاهرة (١٩٢٧ م)
- (٢٤) الانصاري، ابن منظور - اخبار أبي نواس، مطبعة المعارف . بغداد
(١٩٥٢ م) .
- (٢٥) البكري، ابو عبيد عبدالله بن عبد العزيز - سمط اللآلي .. في شرح امالي
القالبي، لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة (١٩٣٦ م) .
- (٢٦) البلاذري، ابو العباس احمد بن يحيى - فتوح البلدان، لندن . بريل
(١٨٥٦ م) .
- (٢٧) البيهقي، السيد جعفر بن السيد محمد السقاف - مواسم الادب وآثار العجم
والعرب جمالي وخانجي . القاهرة (١٣٣٦ هـ) .
- (٢٨) التنوخي، ابو علي المحسن بن علي - المستجد من فعلات الاجواد، المجمع
العلمي العربي . دمشق (١٩٤٦ م) .

- (٢٩) الثعالبي ، ابو منصور عبد الملك (١) لطائف المعارف ، بولاق . مصر (١٢٩٦ هـ) .
- (ب) احسن ما سمعت ، الطبعة الثانية . مصر (بدون تاريخ) .
- (٣٠) ثعلب ، ابو العباس أحمد - قواعد الشعر (شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي) مطبعة البابي الحلبي . مصر (١٩٤٨ م) .
- (٣١) الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر (أ) البيان والتبيين (تحقيق هارون) لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة (١٩٤٨ - ٥٠ م) .
- (ب) الحيوان (تحقيق هارون) ، عيسى البابي . القاهرة (١٩٣٨ - ٤٥ م) .
- (ج) المحاسن والاضداد ، مطبعة الساحل الجنوبي . بيروت (بدون تاريخ)
- (٣٢) الجرجاني ، عبد القاهر - اسرار البلاغة (تحقيق هـ. ريتز) مطبعة وزارة المعارف . استانبول (١٩٥٤ م)
- (٣٣) الجرجاني ، علي بن عبدالعزيز - الوساطة بين المتنبي وخصومه . دار احياء الكتب العربية . مصر (١٩٥١ م) .
- (٣٤) جرير بن عطية بن الخطفي - ديوان جرير (شرح محمد اسماعيل عبدالله الصاوي) مطبعة الصاوي . القاهرة (١٣٥٣ هـ) .
- (٣٥) الجهشيارى ، محمد بن عبدوس - كتاب الوزراء والكتّاب ، مصطفى البابي . القاهرة (١٩٣٨ م) .
- (٣٦) الحصري ، ابواسحق ابراهيم بن علي . زهر الآداب وثمر الالباب (تحقيق زكي مبارك) المطبعة الرحمانية . مصر (١٩٢٩ م) .
- (٣٧) الخطيب البغدادي ، ابو بكر احمد بن علي - تاريخ بغداد او مدينة السلام مكتبة الخانجي . القاهرة (١٩٣١ م) .
- (٣٨) الخفاجي ، ابن سنان - سر الفصاحة . مكتبة الخانجي . القاهرة (١٩٣٢ م) .

- (٣٩) الدهان ، سامي - شرح ديوان صريع الغواني ، دار المعارف . مصر
(١٩٥٧ م) .
- (٤٠) دي خويه ، ميشيل - ديوان أبي الوليد مسلم بن الوليد الانصاري ، ليدن ،
بريل (١٨٧٥ م)
- (٤١) الرومي ، ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت (١) معجم الادباء - دار المأمون .
مصر (١٩٣٦ م) .
- (ب) معجم البلدان ، مطبعة
السعادة . مصر (١٩٠٦ م) .
- (٤٢) الزبيدي ، ابوبكر محمد بن الحسن - طبقات النحويين واللغويين ، مطبعة
الخارجي . مصر (١٩٥٤ م) .
- (٤٣) السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن ابن ابي بكر (١) الاشياء والنظائر في
النحو ، مطبعة دار
المعارف العثمانية . حيدر
آباد الدكن (١٣٥٩ هـ)
(ب) المزهر في علوم اللغة
وانواعها ، مكتبة صبيح .
القاهرة (بدون تاريخ) .
- (٤٤) الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أبيك : (١) تشنيف السمع في انساب
الدمع ، مطبعة الموسوعات .
القاهرة (١٩٢٦ م) .
- (ب) الغيث المنسجم في شرح لامية
العجم ، المطبعة الوطنية .
مصر (١٣٠٥ هـ) .
- (ج) نكت الهميان في نكت
العميان ، المكتبة التجارية .
القاهرة (١٩١١ م) .
- (٤٥) الصولي ، ابوبكر محمد بن يحيى (١) اخبار ابي تمام ، لجنة التأليف والترجمة

- والنشر . القاهرة (١٩٣٧ م) .
- (ب) الاوراق ، مطبعة السعادة . مصر (١٩٠٧ م) .
- (٤٦) الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير - تاريخ الرسل والملوك . ليدن ، بريل (١٨٧٩ - ١٩٠١ م) .
- (٤٧) العباسي ، ابو الفتح عبدالرحيم بن عبدالرحمن - معاهد التنصيص ، مصر (١٢٧٤ هـ) .
- (٤٨) العسكري ، ابو هلال - كتاب الصناعتين ، مطبعة محمد علي صبيح بالازهر ، مصر (بدون تاريخ) .
- (٤٩) القالي ، ابو علي اسماعيل بن القاسم - الامالي والنوادر ، دار الكتب المصرية . القاهرة (١٩٢٦ م)
- (٥٠) القرشي ، ابو زيد محمد بن ابي الخطاب - جهرة اشعار العرب ، المطبعة الخيرية . مصر (١٣٣٠ هـ) .
- (٥١) القزويني ، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن - التخليص في علوم البلاغة ، المكتبة التجارية الكبرى . مصر (١٩٣٢ هـ) .
- (٥٢) القفطي ، جمال الدين ابو الحسن - اخبار العلماء باخبار الحكاء ، مطبعة السعادة . مصر (١٣٢٦ هـ) .
- (٥٣) المتنبي ، ابو الطيب احمد بن الحسين - ديوان المتنبي « التبيان في شرح الديوان » (شرح ابي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري) مطبعة البابي ، مصر (١٩٣٦ م)
- (٥٤) المرزباني ، ابو عبدالله محمد بن عمران (١) معجم الشعراء (ومعه المؤلف والمختلف في اسماء الشعراء ...) مكتبة القدسي . القاهرة (١٣٥٤ هـ)
- (ب) الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء جمعية نشر الكتب المصرية . القاهرة (١٣٤٣ هـ) .

- ٥٥) المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين - مروج الذهب ومعادن الجوهر
(تحقيق باربيه دي مينار) ، باريس (١٨٧٢ م) .
- ٥٦) المعري ، ابو العلاء احمد بن عبدالله : (١) سقط الزند ، مطبعة دار الكتب
المصرية . القاهرة (١٩٤٥ - ٤٨ م) .
(ب) الفصول والغايات ، مطبعة
حجازي . القاهرة (١٩٣٨ م) .
- ٥٧) المهزومي ، ابو هفان عبدالله بن احمد - اخبار ابي نواس ، مكتبة مصر .
القاهرة (١٩٥٣ م) .
- ٥٨) الموسوي ، العباس بن علي الحسيني - نزهة الجليس ، المطبعة الوهيبية .
القاهرة (١٢٩٣ هـ) .
- ٥٩) النويري ، ابو العباس احمد - نهاية الارب في فنون الادب ، دار الكتب
المصرية . القاهرة (١٩٢٣ - ٥٥ م) .
- ٦٠) الوطواط ، جمال الدين محمد بن ابراهيم - غرر الحقائق الواضحة وعرر
النقائق الفاضحة . بولاق . القاهرة (١٢٨٤ هـ) .

المراجع الثانوية

- ٦١) ابراهيم ، طه محمد - تاريخ النقد الادبي عند العرب ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر . القاهرة (١٩٣٧ م) .
- ٦٢) ابو رحاب ، حسان - الغزل عند العرب ، مطبعة مصر . القاهرة (١٩٤٧ م)
- ٦٣) ارسططاليس - كتاب الخطابة (ترجمة ابراهيم سلامة) مكتبة الانجلو
المصرية . مصر (١٩٥٠ م) .
- ٦٤) امير علي ، مولوي سيد - مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ، لجنة
التأليف والترجمة والنشر . القاهرة (١٩٣٨ م) .
- ٦٥) امين ، احمد - ضحى الاسلام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر . مصر
(١٩٣٣ - ٣٦ م) .

- (٦٦) الامين ، محسن (١) اعيان الشيعة ، دمشق وبيروت (١٩٣٦-٥٧ م) .
 (ب) ابونواس ، مطبعة الاتقان . دمشق (١٩٤٧ م) .
- (٦٧) اوليري ، دي لاسي - انتقال علوم الاغريق الى العرب ، ترجمة بيثون
 والثعالبي . مطبعة الرابطة . بغداد (١٩٥٨ م) .
- (٦٨) بدوي ، عبدالرحمن - من تاريخ الاحاد في الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية
 القاهرة (١٩٤٥ م) .
- (٧٩) البراق ، حسين بن السيد احمد - تاريخ الكوفة ، المطبعة المرتضوية الحيدرية .
 النجف (١٣٥٦ هـ) .
- (٧٠) البهبيقي ، نجيب محمد (١) ابوقام الطائي ، حياته وحياة شعره ، دار
 الكتب المصرية . القاهرة (١٩٤٥ م) .
 (ب) تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري
 دار الكتب المصرية . القاهرة (١٩٥٠ م) .
- (٧١) جبريالي ، ف. - ديوان الوليد بن يزيد ، مطبعة ابن زيدون . دمشق
 (١٩٣٧ م) .
- (٧٢) جبور ، جبرائيل سليمان - عمر ابن ابي ربيعة ، المطبعة الاميركانية . بيروت
 (ج١/١٩٣٥ ، ج٢/١٩٣٩ م) .
- (٧٣) الجواري ، احمد عبد الستار - الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث
 الهجري . دار الكشاف . بيروت (١٩٥٦ م) .
- (٧٤) حتي ، جرجي ، جبور - تاريخ العرب (مطول) ، دار الكشاف .
 بيروت (١٩٥٢ م) .
- (٧٥) حسين ، طه - في الادب الجاهلي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة
 (١٩٣٣ م) .
- (٧٦) خلف الله ، محمد احمد - صاحب الاغاني ابو الفرج الاصفهاني الراوية
 مطبعة نهضة مصر . مصر (١٩٥٣ م) .
- (٧٧) دعبيل « اسم مستعار » - ابونواس عالم حر ، مطبعة الهلال . بغداد
 (١٩٥٠ م) .

- ٧٨) الدوري، عبد العزيز - النظم الاسلامية، مطبعة نجيب. بغداد (١٩٥٠م).
- ٨٩) الرفاعي، مصطفى صادق - تاريخ آداب العرب، مطبعة الاستقامة . مصر (١٩٤٠م).
- ٨٠) رفاعي، احمد فريد - عصر المأمون، دار الكتب المصرية . القاهرة (١٩٢٧م).
- ٨١) الزركلي، خير الدين - الاعلام، المطبعة العربية . مصر (١٩٢٧-٢٨م).
- ٨٢) زيدان، جرجي - (١) تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة الهلال . مصر (١٩٢٤ - ٣٠م).
- (ب) تاريخ التمدن الاسلامي - مطبعة الهلال . القاهرة (١٩٣١ - ٣٥م).
- ٨٣) سعيد، جميل - تطور الحمريات في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصرية . القاهرة (١٩٤٥م).
- ٨٤) سلامة، ابراهيم - بلاغة ارسطو بين العرب واليونان، مكتبة الانجلو المصرية . مصر (١٩٥٢م).
- ٨٥) سلطان، محمد جميل - صريع الغواني، مطبعة الترقى . دمشق (١٩٣٢م).
- ٨٦) ضيف، شوقي (١) التطور والتجديد في الشعر الاموي، لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة (١٩٥٢م).
- (ب) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مكتبة الاندلس . بيروت (١٩٥٦م).
- ٨٧) الطبعاء، عبدالله انيس - الحب والغزل بين الجاهلية والاسلام، دار الكشف . بيروت (بدون تاريخ).
- ٧٨) العقاد، عباس محمود - ابونواس الحسن بن هانئ...، مطبعة الرسالة . مصر (بدون تاريخ).
- ٩٩) علوان، حسن - صريع الغواني، مسلم بن الوليد . المطبعة النموذجية . مصر (١٩٤٩م).

- ٩٠) عنبر ، احمد محمد - قضية الادب بين اللفظ والمعنى ، دار الكتاب العربي مصر (١٩٥٤ م) .
- ٩١) غريب ، روز - النقد الجمال واثره في النقد العربي ، دار العلم للملايين . بيروت (١٩٥٢ م) .
- ٩٢) فاخوري ، حنا « والجر ، خليل » تاريخ الفلسفة العربية ، دار المعارف . بيروت (١٩٥٨ م) .
- ٩٣) فراج ، عبد الستار احمد - نديم الخلفاء ، دار المعارف ، القاهرة (١٩٥٢ م)
- ٩٤) قير ، يوحنا - اصول الفلسفة العربية ، المطبعة الكاثوليكية . بيروت (١٩٥٨ م) .
- ٩٥) الكفراوي ، محمد عبدالعزيز - الشعر العربي بين الجمود والتطور ، مكتبة نهضة مصر . القاهرة (١٩٥٨ م) .
- ٩٦) لويس ، برنارد - العرب في التاريخ ، دار العلم للملايين . بيروت (١٩٥٤ م) .
- ٩٧) ماسينيون ، ل - خطط الكوفة (ترجمة المصعبي) مطبعة العرفان . صيدا (١٩٣٩ م) .
- ٩٨) مبارك ، زكي - النثر الفني في القرن الرابع ، دار الكتب المصرية . القاهرة (١٩٣٤ م) .
- ١٠٩) مندور ، محمد - النقد المنهجي عند العرب ، مكتبة النهضة المصرية . مصر (١٩٤٨ م) .
- ١٠٠) نالينو ، كارلو - تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني امية دار المعارف . مصر (١٩٥٤ م) .
- ١٠١) هدارة ، محمد مصطفى - مشكلة السرقات في النقد العربي ، لجنة البيان العربي . القاهرة (١٩٥٠ م) .

المخطوطات

- (١) مخطوطة ميونيخ للسفر الخامس من الاغانى «نقلا عن دي خويه» .
- (٢) دار الكتب المصرية للجزء السابع عشر من الاغانى « عن الدهان »
- (٣) غوطا للاغانى « عن دي خويه والدهان » .
- (٤) ليدن لجمهرة الاسلام ، للشيرزى «عن دي خويه والدهان» .
- (٥) ليدن للمحب والمحبوب والمشموم والمشروب ، للسري الرفاء « عن دي خويه والدهان » .
- (٦) مخطوطة كيمبريدج للموازنة « عن مصور لها في مكتبة الجامعة الاميركية
بيروت 286 Qq (No.)

(ب) الاجنبية

1. Encyclopaedia of Islam
Articles on : 1- Gurgan, by W. Barthold.
2- Al-Kufa, by K. V. Zetterstéen.
3- Muslim B. Al-Walid, by Ign. Kratschkowsky).
2. Brockelmann, Carl-Geschichte der Arabischen Litteratur 1,
Leiden, Brill, 1943, and Supplement No. 1,
Leiden, Brill. 1937.
3. Browne, Edward G. - A Literary History of Persia,
Cambridge University Press, 1906-1928.
4. De Goeje's Latin preface of Muslim's Diwan.
(translated into English by F. L. Kent).
5. Nicholson, Reynold A.- A Literary History of the Arabs,
University Press, Cambridge, 1953.
6. O'leary, De Lacy: (a) Arabic Thought and its Place in History.
Routledge & Kegan Paul Ltd. , London, 1954.
(b) How Greek Science passed to the Arabs,
Routledge, London, 1948.
7. Zambaur, Eduard de-Manuel de Genealogie et de
Chronologie pour l'Histoire de
l'Islam. Hanovre, Lafaire, 1927.

My dear Mr. [Name]
I have just received your letter of the 10th inst. and am
glad to hear that you are well. I am also well and hope
this finds you the same. I have been thinking of you
very much lately and wondering how you are getting on.
I have been very busy lately but I have managed to
find some time to write you. I hope you will find
this letter of interest. I have been thinking of you
very much lately and wondering how you are getting on.
I have been very busy lately but I have managed to
find some time to write you. I hope you will find
this letter of interest. I have been thinking of you
very much lately and wondering how you are getting on.
I have been very busy lately but I have managed to
find some time to write you. I hope you will find
this letter of interest.

I have been thinking of you very much lately and wondering how you are getting on. I have been very busy lately but I have managed to find some time to write you. I hope you will find this letter of interest. I have been thinking of you very much lately and wondering how you are getting on. I have been very busy lately but I have managed to find some time to write you. I hope you will find this letter of interest. I have been thinking of you very much lately and wondering how you are getting on. I have been very busy lately but I have managed to find some time to write you. I hope you will find this letter of interest. I have been thinking of you very much lately and wondering how you are getting on. I have been very busy lately but I have managed to find some time to write you. I hope you will find this letter of interest.

سنة العلوم الشرقية

- (١) - (٣) مجموعة الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا
للدكتور أسد رستم، المجلدات الاول والثاني والخامس سنة ١٩٣٠-١٩٣٣
- (٤) - امراء غسان لثيودور نولدكه . ترجمة الاستاذين بنسدي
جوزي وقسطنطين زريق سنة ١٩٣٣
- (٥) مجموعة الاصول العربية ... للدكتور اسد رستم ، المجلدان
(الثالث والرابع) سنة ١٩٣٤
- (٦) اليزيدية قديماً وحديثاً للأمير اسماعيل جول
نشره الدكتور قسطنطين زريق سنة ١٩٣٤
- (٧) عمر ابن أبي ربيعة للاستاذ جبرائيل جبور. الجزء الاول: عصره سنة ١٩٣٥
- (٨) أسباب الحملة المصرية على سوريا كما تظهر في سجلات عابدين الملكة
للدكتور اسد رستم سنة ١٩٣٦
- (٩) تاريخ ابن الفرات : لناصر الدين ابن عبد الرحيم ابن الفرات
المجلد التاسع ، الجزء الاول . نشره الدكتور قسطنطين زريق سنة ١٩٣٦
- (١٠) تاريخ ابن الفرات: المجلد التاسع، الجزء الثاني. حققه وضبط نصه
الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة نجلا عز الدين سنة ١٩٣٨
- (١١) الاضطرابات في فلسطين سنة ١٨٣٤ كما تظهر في سجلات
عابدين الملكية للدكتور اسد رستم سنة ١٩٣٨
- (١٢) ديوان ابن الساعاتي. نشره الاستاذ انيس المقدسي. الجزء الاول سنة ١٩٣٨
- (١٣) عمر ابن ابي ربيعة: للاستاذ جبرائيل جبور. الجزء الثاني: حياته سنة ١٩٣٩
- (١٤) تاريخ ابن الفرات : المجلد الثامن. حققه وضبط نصه الدكتور
قسطنطين زريق والدكتورة نجلا عز الدين
- (١٥) العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث للاستاذ انيس المقدسي سنة ١٩٣٩
- (١٦) ديوان ابن الساعاتي. نشره الاستاذ انيس المقدسي. الجزء الثاني سنة ١٩٣٩

- (١٧) تاريخ ابن الفرات: المجلد السابع. حققه وضبط نصه الدكتور
قسطنطين زريق
سنة ١٩٤٢
- (١٨) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة . الجزء الاول حققه
وضبط نصه الدكتور جبرائيل جبور
سنة ١٩٤٥
- (١٩) معجم الالفاظ العامية في اللهجات اللبنانية للدكتور انيس فريجه سنة ١٩٤٧
- (٢٠) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة . الجزء الثاني حققه
وضبط نصه الدكتور جبرائيل جبور
سنة ١٩٤٩
- (٢١) حياة ابن قتيبة وآثاره - بالانكليزية - للدكتور اسحق
موسى الحسيني
سنة ١٩٥٠
- (٢٢) - (٢٣) الاتجاهات الادبية الحديثة في العالم العربي للاستاذ
انيس المقدسي
سنة ١٩٥١-١٩٥٢
- (٢٤) حياة المدن في سورية في ظل المماليك الاول - بالانكليزية -
للدكتور نقولا زيادة
سنة ١٩٥٣
- (٢٥) - (٢٦) الامثال العامية اللبنانية من رأس المتن للدكتور
انيس فريجه
سنة ١٩٥٣
- (٢٧) اسماء المدن والقرى اللبنانية للدكتور انيس فريجه
سنة ١٩٥٦
- (٢٨) حضارة في سبيل الزوال للدكتور انيس فريجه
سنة ١٩٥٧
- (٢٩) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة . الجزء الثالث .
حققه وضبط نصه الدكتور جبرائيل جبور
- (٣٠) TATOO COPTIC ART by John Carewell
- (٣١) SANUSIYAH by Nicola A. Ziadeh Ph.D. , 1958 (Leiden) (E)
- (٣٢) AE-BIRUNI ON TRANSITS, by Edward Kennedy Ph.D. , (E)
- (٣٣) LEBANON IN THE LAST YEARS OF FEUDALISM, 1840-1868
by Malcolm Keer, Ph. D. , 1959
- (٣٤) MARONITE HISTORIANS OF MEDIAVAL LEBANON, by Kamal
S. Salibi, Ph. D. , 1959

SOURCES AND STUDIES IN THE HISTORY OF THE EXACT (٣٥)
SCIENCES 2 - AL-KASHI ON ROOT EXTRACTION by Abdul-
Kader Dakhel, Edited by Wasfi A. Hijab and E.S. Kennedy, 1960

سنة ١٩٦١ مسلم بن الوليد للاستاذ فؤاد ترزي (أ.س.ع) (٣٦)

ORIGINS OF NATIONALISM IN TUNISIA, by Nicola A. Ziadeh, (٣٧)
Ph. D, 1961 .



T

S

Bach

B

*PB-39115
5-01T
CC

0

Date Due

[illegible]

Demco 38 297

MUSLIM IBN EL-WALĪD

BY

FUAD HANNA TARAẒI, M.A.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

PRINTED AT DAR AL-KITAB PRESS, BEIRUT — 1961